حريق الأخيلة

إدوار الخرّاط

رواية

حريق الأخيلة

لوحة الغلاف : للفنانة الكبيرة جاذبية سرى

ادوار الخراط

حريق الأخيلة

(رواية)

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٤

لا وقـــــت للنـــوستـــالچيــــــا
شهـــوات الـــروح غيـــر مقســومـــة
والمعنى اللا محدود تِنٍّين شربت معه الرّاح

إدوار الخراط

١- سريـــر محـــترق

كان كامل الصاوى أرستقراطى الهيئة أرستقراطى السلوك .

كان زميلاً لنا فى الجامعة ، ولكنه كان مترفعا عنا جميعاً ، متحفظاً، ومنعزلاً تقريباً .

دائماً عنده ، على رقبته الرفيعة الطويلة ، بابيّون رشيق صغير ، يتغير لونه من الأسود إلى الأحمر الداكن إلى المنقّط بنقط صفراء دقيقة حسب تغيُّر لون بدلته ، ويلتف بعناية حول ياقة صلبة الشكل ناصعة البياض . كان البابيوّن عنده مهماً جدا ، كأنه شعار ، أو رمز ، أو استعلان .

وفى سنة الليسانس ربّى لحية مخروطية خفيفة ، على غرار لحية تروتسكى ، وكانت نظارته أيضاً مدورة يحيط بها إطار ذهبى رفيع . والسيجارة مذهبة الفم معلقة دائماً فى ركن فمه ، مشتعلة أو مطفأة أو جديدة بكرا ، على السواء .

يقرأ هيجل بعناية ودأب ، ويتنازل أحياناً فيحدثنا عن الفلسفة الهيجلية ونحن نتمشى فى شوارع محرم بيه بعد المحاضرات ، أنا وقاسم اسحاق وفتوح القفاص ، نناقشه بجديّة كاملة ، ويجادله فتوح القفاص بحماسة واندفاع وهو يشوّح بيديه ويتفتف ويتناثر الرذاذ من

فمه فى حميا المقارعة والمنازلة ، ويشتم بصوت عال كل «الجهلة والأغبياء» ولكن كامل الصاوى ينصت اليه باهتمام وهدوء ثم يرد عليه بلهجة باردة ، ومنطق . لم نكن نأخذ مجادلات فتوح القفاص - مع تشويقها - على محمل الجد حقا .

وكان كامل الصاوى يحب المشى فى الشوارع ، وحده أو مع اثنين ثلاثة من «الأصدقاء» - لم يكن له حقا صديق - ويظل حذاؤه الأجليسيه مع ذلك لامعا مصقولا .

كان بيتهم فى أحد شوارع محرم بيه الجانبية الهادئة ، زرته مرة واحدة لم تتكرر، مع قاسم اسحق الذى كان قريباً اليه أكثر من أى أحد، على تحفظٍ من كامل الصاوى طول الوقت ، لا يريم . بينما كان قاسم على طريقته النوبية مرحا متفتح القلب ودوداً لعله أكثر تبسطا واحتضانا للناس - حتى - مما تسمح به ظروف العمل الثورى الذى كنا غارقين فيه . أما كامل فهو مقفل تماماً على نفسه ، نموذج مثالى لقواعد الأمان .

نسيت اسم الشارع على الفور ، كأنما عن عمد .

صعدنا السلالم الساكنة . لا أصوات ، ولا روائح الطبيخ البلدى الشهية ، ولا وَشّ الوابور وزياط الأولاد ، ولا اسكت يا واد اسكتى يا بت يا مقاصيف الرقبة من وراء الأبواب ، لا نكهة تقلية الملوخية ولا فوحة الفلفل الأخضر المقلى ، ولا دقات الهون لعمل الكفتة ، ولا نفحات تسبيكة البامية ، السلالم خافتة النور ، صامتة ، فى عز

الظهر ، موحشة ، مثل سكنى القبور. قلت لنفسى : كيف يطبخون ؟ ماذا يأكلون ؟

كان للباب جرس بارز من الصينى أبيض مكور على شكل الكمثرى - كل بيوتنا لها أبواب بلا أجراس كهربائية ، نخبط عليها .

فتحت لنا الباب خدامة صغيرة السن صغيرة الجسم (لم تكن كلمة «شغالة» معروفة على أيامها ، «خدامة» هى الكلمة الأصح والأصرح والأكثر مطابقة لمقتضى الحال) وجاء وراءها مباشرة كامل الصاوى ، يلبس الروب دى شامبر الحريرى بألوانه القلابة بين الأرجوانى والبنفسجى الفاتح ، على القميص والبابيون ، والجزمة والشراب ، الطقم كله ، كاملا ، شياكة طبيعية ومعتادة عنده ، أما نحن فكنا نستقبل بعضنا بعضا بالجلابية ، أو البيجاما ، وبالكتير بالقميص والبنطلون والشبشب أو الصندل .

كان قاسم قد حكى لى، باختصار، أن كامل فقد أباه منذ طفولته، وليس له أخوة أو أخوات ، ترك له هذا البيت الملك ، وأرضا فى البحيرة ، وأن أمه فى عز شبابها بعد ، وألمح قاسم بايجاز ، لأنه فى الغالب لم يكن يعرف أكثر مما قال ، وياعجاب أيضاً - ألم يكن ثوريا ؟ - أنها «متحررة» تخرج وتدخل بلا حرج فى أتومبيلات الصديقات اللاتى يأتين إليها مع الشوفيرات ، أو اتومبيلات الأصدقاء الذين يقودون سياراتهم الباكار أو الفورد بأنفسهم ، يسهرون ويتعشون ويشربون فى المونسينيور أو باستروديس أو سكارابيه، أليست الطبقة الوسطى وحدها هى التى تتمسك بمواضعات الأخلاق البالية ،

أما الطبقة الأرستقراطية ، أو البروليتاريا ، فانهم متحررون ، أو كما قال ، قال إنها كانت تترك كامل كثيرا وحده ، ترعى شؤونه الخدامة الصغيرة ، فى البيت الموحش الذى أحسسته معتما وخاوياً على ازدحامه بالكراكيب البورجوازية الغالية : البيانو الألمانى الضخم ، جاثم فى الصالون ، لامع السواد ، مصقولا ، مشحونا بطاقة متفجرة كامنة تحت غطائه المقفل ، عليه تماثيل رخامية لجياد ترمح وهى فى جمودها صافنة الساقين تخطف الريح بأعرافها ، وغزالة تجرى أمام صيادة عارية الساقين ترميها بالسهام - أهذه «ديانا» ؟ أم أية صيادة متحررة منطلقة وراء شهوات الطراد والقنص ؟ - وعلى الجدران صور من الكانفاه - لم أعرف اسمه إلا بعد ذلك بسنوات - لمروج خضراء وأكواخ لها سقف من القرميد الأحمر ونهر بنى متجمد فى جريانه المشغول بالخيوط الحريرية ماكرة الصنعة ، وفى الأركان ترابيزة صغيرة مدورة من الأبنوس توهجه مدفون تحت مفارش مشغولة بالكروشيه الأنيق المكوى بدقة . جلسنا على كراسى الطقم المذهب ، كانت صلبة غير مريحة ، ظهورها منحوتة بنقوش بارزة لتلافيف أغصان وعناقيد صغيرة وأوراق شجر مطلية بذهب باهت مقشر فى بعض المواضع عند احتكاك الكراسى بالحائط فيما أظن - لم تكن هذه الأسرة غنية جدا إذن ؟ - لكن السجادة ، طبعا ، عجمى كثيفة الوبرة تصاعدت منها هبوة تراب خفيفة جدا عندما غاصت فيها أحذيتنا التى لم تكن - يعنى - نظيفة جدا .

قال لى قاسم اسحق : كامل جاء إلى الثورة لا عن احساس بالظلم

الاجتماعى ، أو تمرد على الفقر والمهانة فى مجتمعنا ، ولا حتى عن احساس خلقى بضرورة العدالة والكرامة ، بل لأسباب عقلية ، علمية بحتة ، موضوعية . الثورة بحاجة إلى هذا النوع من المثقفين الذين لهم أصول بورجوازية أو ارستقراطية واختاروا الانضمام إلى صفوفنا .

كانت «صفوفنا» عندئذ ، عملياً ، نحو دستة من «الثوريين» أو أكثر قليلا .

بعد ١٩٥٠ ، وبعد أن خرجت من المعتقل ، محبطا ويائساً ، وخضت غمار حب محبط ويائس ، ترك قاسم اسحق «صفوفنا» التى كانت قد انفرط عقدها ، على أى حال ، وانفضت . انضم إلى حد تو، وسجن وعذب فى سجون عبد الناصر ومنافيه ، ثم فتح مكتبا للمحاماة فى أسوان ، ومات بسرطان فى المخ ، وأفتقده كثيرا ، حتى الآن .

انفتح باب على الصالون وهبت نفحات عطر خفيفة ولكن نفاذة ، تحمل أنوثة وخلاعة خفية ، تدعو للاضطراب ، متلبثة فى الأركان الداخلية للبيت عند الأبواب المغلقة التى تفضى إلى مكامن العيش الحميمة ، خمنت - هكذا دون أن أعرف - أنها عطر باريسى حريمى.

حملت الينا اللمونادة الخدامة التى فتحت لنا الباب .

كانت هذه ناهدة ، صدرها صغير ولكن ناتىء البروز خلف حمالات عريضة للمريلة البيضاء المنشاة ، على فستان حريرى الملمس مشجر واضح أنه كان من ملابس ستها وقصّره الخياط أو ضيّقه ، وواضح أن

ستها تقمعها ، وربما سيدها الصغير كامل بيه يستغل صباها أيضاً، كانت نظرتها اليه مما لا تخفى دلالته ، مزيج من الخضوع الروحى واعتزاز الجسم الصغير بما يستطيع أن يمنح .

كل شىء فى الشقة الفخمة - رثة الفخامة - وفق النمط بالضبط، ضقت به ذرعا وكدت أصيح به :

- ياه ... هو بيتكم كمان طالع من كتاب .

على أيامها كنا قد فرغنا ، من زمان ، من قراءة قصص محمود كامل المحامى ، أو محمود تيمور ، وكنا قد عرفنا ، من هذه الكتابات ، أجواء تلك البيوت «الارستقراطية» وأسرارها وما فيها من ميلودراميات الأرامل الطروبات اللعوبات والخادمات المستذلات ، المعتزات مع ذلك بما لديهن من عطايا الجسم التى ليس مثلها عند الفتيات «بنات الناس» المكبوتات . هل كنا قرأنا أيضا بلزاك وستاندال ومواسان وأضرابهم ، دعك طبعا من شارلس ديكنز أو ثاكرى أو فيلدنج ونحوهم .

اتفقنا فى هذه الجلسة على أن يقتصر التعامل مع كامل الصاوى علىّ وقاسم اسحق وحدنا ، واعتبرنا ثلاثتنا «خلية مركزية» وقال كامل بلهجته التى فيها خنة قليلة ، وهو ينظر إلى آخر الصالون من وراء نظارته مذهبة الدوران :

- مافيش داعى ، منطقياً ، لأكتر من كده . ومن الناحية الموضوعية أنا حاعمل بحوث فى الفلسفة الثورية ، تبقوا تستفيدوا منها ، وإذا كنتم عايزين ترجمة ، ممكن برضه ...

سألته : هل يعزف على البيانو ؟ فقال دون مبالاة : ساعات ، لما أكون زهقان شوية ، فالس من شتراوس ، نوكتيرن من شوبان ، حاجة كده ، عزف هواة يعنى .

هواة ، بالطبع ، فى الموسيقى وفى الثورة سواء .

فى ١٥ مايو ١٩٤٨ اعتقلتنى حكومة النقراشى ، عشية حرب فلسطين الأولى ، مع مئات من كل أصناف «الخطرين» أو «المشبوهين» سياسيا ، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وجاء للمعتقل بعد ذلك من جماعتنا يسرى محمد يوسف ، وفريد اسكاروس ، وعبد الرؤوف نصر الله ، وشوارتز ، وقاسم اسحق ، لم يعتقل كامل الصاوى ، ولا فتوح القفاص ، ولا أحمد النمس . أفرج عن زملائنا كلهم بالترتيب ، بعد فترت متراوحة ، وبقيت وحدى ، ذهبت إلى معتقلات هاكستيب والطور ثم عدت إلى أبو قير وكنت من أواخر الذين خرجوا فى فبراير ١٩٥٠ . استيقظت ووجدت أن المعتقل خاوٍ تقريباً ، مفتوح الأبواب على الصحراء ، الطريق المسفلت كان أمامى ليس فيه أحد ، وركبت الأتوبيس ، بتلاتة تعريفه ، إلى محطة الرمل ومنها بالترام إلى بيتنا ، بستة مليم ، ومعى شنطة ورق مقوى على شكل الجلد مربوطة بحزام ، رافقتنى طول التنقلات ، وبنظارة مكسورة مربوطة بسلك ، وكانت الجزمة بوزها مفتوح وواسعة ، قضيت فترة الإعتقال كلها إما بالصندل أو بالجزمة الكاوتش ، وكان الناس فى الشوارع وفى الأوتوبيس والترام لا يكادون يلتفتون إلىّ ، وأنا أتحرك بحرية لأول مرة منذ عشرين شهرا ، وكأنه ليس للحرية طعم ولكنى

كنت أملأ صدرى بهواء مفتوح ، ليست عليه حراسة .

وفقدت الاتصال تماما بكامل الصاوى ، لم أره قط بعد ذلك ، وان ظل هذا الشبح الغريب يراودنى بين الحين والحين ، من بين أشباح كثيرة .

اسكندرية ٣ مارس ١٩٣٤

عزيزى وفيق

لست أدرى .. هل يحق لى أن أكتب لك الآن ... اننى أشعر دائما بشعور أحمق .. ان خطاباتى تقابل لديك بنوع من الاهمال الخفيف .. «ليته كان اهمالا خطيراً» .

ولكن نفسى تفيض دائما .. وتطفح بما فيها ... لست أجد من أكلمه .. فصبرا جميلا ...

لا تهمك تلك المشاعر الزجاجية الهشة الحمقاء ... ولتستعد أنت ... لتقبل ما سأكوم على رأسك من نفايات ...

عزيزى ...

لعلك تذكر .. أولاً تذكر ... اننى سألتك مرة - وكان ذلك فى دمنهور - كيف يكتب توفيق الحكيم مسرحياته دافقة بصور «الحياة» ... الحياة العملية بتعبيراتها الدارجة البارعة .. على رغم أنه - كما يقول - معتكف فى برجه العاجى ... عزوف عن المجتمعات ... البريئة وغير البريئة منها ... على حد تعبيره .

ولعلك تذكر - أنا أذكر جيدا - انك أجبتنى : أن هذا الصنف من خلق الله .. يحيا .. ليس كسائر الناس .. بل يحيا حياتين .. احداهما

صاخبة ... عادية .. تافهة .. بين الناس .. والأخرى .. هادئة .. ساهمة ... منزوية بين أربعة جدران عاجية ... بين كتب ... وموسيقى ... وتأملات ذاهلة طويلة حالمة ممتعة .. هكذا أجبت .. أو ما يقرب من ذلك .

نعم ... لقد عادت تلك الصورة القديمة .. صورتك متحمسا .. تتكلم بمثل هذا الكلام .. فى شارع مزدحم .. قذر ... مترب .. فى ظهيره خانقة .. دمنهورية .. وفى يدك زجاجة بها دواء من الصيدلية .. وفى اليد الأخرى بنطلون مكوى ... وقميص جديد ... أقول - وعفوا عن كل هذه الثرثرة - كنت أقول أن تلك الصورة .. بكل تفاصيلها .. جاءت تفرض نفسها علىّ ... على ذاكرتى أقصد ... وترتسم أمامى فى عناد .. واصرار .. بعد عودتى من زيارة اليومين والليلتين ... أعنى من زيارتك ... فى القاهرة بالطبع حين استصرختنى أن أجىء ، بحق الله ... قبل أن «تنهى كل شىء» .

(يمكنك أن تشطب الثلاث كلمات الأخيرة ... بالنيابة عنى) ... القصد من كل هذا الهذيان ... أن أقول اننى كنت أقول ... ان تلك الصورة ظلت ترتسم أمامى .. بعد تلك الزيارة .. بلا سبب .. ولا معنى .. ولا تلميح ... ! وتلك .. أيها العزيز .. مشكلتنا .. أعنى .. مشكلتى .. مسألة الحياتين هذه ...

لماذا أبدو .. فى غالب الأحايين .. أبله .. متعثرا .. مرتبكا .. أو سمجا .. أو غريبا ..؟ .. ذلك اننى أحاول - فى غباوة منقطعة النظير - أن أحيا حياة واحدة .. رائعة .. منسجمة .. صافية .. محلقة ..

يا للغرور .. «أنا» أريد أن أحيا حياة واحدة ... ان هذا ليستلزم شيئاً آخر .. غير «أنا» ...

ما الذى - مثلا - يجعل من بعض الناس أفرادا عظماء ... انسانيين ... بكل ما تحوى الكلمة .. أو الكلمتان .. من معان ؟ .. هو أنهم نجحوا .. فى أن يحيوا حياة واحدة .. فى أن يفرضوا «حياة الروح» على بضع العشرات من السنين التى عاشوها .. شخص كسقراط .. لماذا كان عظيما وخالدا ... وجبارا يرتفع على القرون .. وتنسرح بين قدميه .. مدى الأجيال الطوال .. انسانية كسيحة .. زاحفة .. تتطلع إلى أعلى .. إلى الوجه الدميم .. المشوه ... الذى يحمله على كتفيه والى الذراع العارية ... المنفلتة من ردائه الاغريقى .. القديم ، مشيرا إلى عالم آخر جديد ؟ .. لماذا ؟ .. لسبب واحد .. أنه عاش فلسفته .. ولم يكتبها .. إنه علّم بالواجب .. وبالفضيلة .. وبالخضوع لحكم العقل .. عاش يعلم بهذه الأشياء - كائنة ما كانت قيمتها - فى كل مكان ... فى أى وقت .. وكيفما استطاع ... فى السوق .. فى المنزل .. فى الشارع .. وعلى الرصيف .. وفى مطبخ بيته .. وعلى عتبة الهيكل .. وبين الحقول ... وأمام المحكمة .. ففى كل مكان يذهب اليه سقراط .. كنت تجد «بضاعة» سقراط .. المحتوية على «الفضيلة» .. و «العقل» .. و «الواجب» .. محزومة كلها .. فى ردائه الاغريقى .. الذى لم تغسله زوجته منذ أمد طويل .. والذى تنفلت منه ذراع عارية ..عجفاء لوحتها شمس اليونان .. ثم .. لما طالبته الفضيلة .. وأخواتها .. أن يضحى حياته .. لم ينِ..

ولم يتردد .. كان فى استطاعته أن يفر .. وأن يرشو سجانيه .. أو أن يفلت من أيدى القضاة .. ولكن .. اننى أشك .. فى أنه لو فعل ذلك ... ثم عاد يبحث .. فى ردائه الاغريقى .. عن حزمة الفضيلة والواجب والعقل .. أشك فى أنه كان يجدها .. ولكنه .. كان مخلصا وكان عظيما .. لقد أسلم الحزمة إلى الانسانية ... وشرب كأس السم .. وهو يبتسم .. لأنه كان عبدا أمينا .. مخلصا .. أخذ الدينار من سيده .. وأعاده اليه .. ثلاثة دنانير .. كما يقول المسيح ..

والمسيح .. ؟ لماذا استطاع .. عابر السبيل .. بردائه المنسوج المكون من قطعة واحدة .. لم تخطها ابرة .. هذا النجار الذى لم يكن يرى إلا برفقة المجذومين .. والبرص .. والعميان وصيادى السمك ... وحثالة اليهودية .. لماذا استطاع أن يفرض نفسه .. على انسانية دامت عشرين مائة عام .. لماذا ؟ ... لأنه .. عاش فلسفته .. هذا هو كل شىء ...

آه .. على ذكر صيادى السمك ..

ألا ترى معى ... أنه من السهل جدا .. أن يعتنق المرء .. «الاشتراكية» ويعجب «بالاشتراكية» .. ويتحمس لها .. ثم يأتى فى صباح قاهرى من شتاء بارد .. على باب منزل ما .. يأتى «ليشخط» فى أحد بائعى السمك التعساء ، وليصرخ فيه .. «بأنها بيعة وليست خناقة» .. يصرخ بلهجة بورجوازية .. نصف ارستقراطية (أى ارستقراطية كسيحة .. بنصف رِجْل) يصرخ فيه .. مرة .. وأخرى .. ودون أن يستمع لعذر البائع المسكين .. على رغم أن الأخير مـ

آه من هؤلاء البورجوازيين ...

نعم .. هذا من السهل جدا .. اؤكد لك ..

وعلى فكرة .. هذا الشخص نفسه يقرأ موليير .. فيستحسن أن يقرأ روايته : (Le Bourgeois Gentilhomme) .. فهاهنا شخص عظيم .. يفضح بيئة موبوءة .. متعفنة .. منتنة .. تعيش فيها .. تلك الطبقة الوسطى ...

نعود لمشكلة الحياتين .. ففى هذه المشكلة .. قد نجد جوابا .. حين نتساءل لماذا لم ينبغ فى الأدب العربى .. فى مصر على الأقل شخص عظيم .. يستطيع أن يفرض صوته على أسماء العالم المتحضر .

نعم .. لأن أدباءنا .. أغلبهم .. يعيشون فى «أبراج عالية» .. ويتكلمون كلاما كثيرا .. عن خلق القادة .. ومسئوليات الزعيم الروحى .. وعظمة الكاتب .. وثقل الوقر الذى يحمله الفنان .. على كاهليه النحيفين .. ثم .. وفجأة .. وبلا وساطات .. ينزلقون من هذه الأبراج .. ليعيشوا بين الناس .. زائفين كالناس .. يذهبون إلى مقر الوظيفة .. ويلبسون الطربوش للرئيس .. ويتشاءبون فى سهرات «الاهرام» .. ويتشدقون بأحاديث النساء .. وأعداء النساء .. وحبائب النساء ... !!

لننظر مثلا إلى مخلوق كتولستوى .. يتنازل عن أملاكه .. ولقبه .. وثروته .. وعائلته .. وحياته القديمة التى درج عليها منذ نعومته .. يهجر كل ذلك .. فى سبيل مبدأ .. ليموت على قارعة الطريق كمتسول .. كما يموت الشحاذون .. والعباقرة .. ! .. لننظر .. إلى

مثل هذا الانسان .. ثم .. ثم لنهز رؤوسنا .. ونتثاءب .. ونغوص فى أوحالنا .. أكثر .. فأكثر .. ماذا يهمنا من كل ذاك ؟ .. هل تعرف يا صديقى .. لماذا نعجب .. غالباً .. بالمحبين الصادقين ؟ ..

يمكنك أن تعرف هذا .. على الضوء الذى اجتهدت أن ألقيه .. فى هذه المسألة ..

اننا نعجب بهم .. لأنهم يفرضون حياتهم الداخلية .. على حياة المجتمع الفاسدة .. لأنهم يسهرون طوال الليل .. ويبكون طوال النهار .. و «يسرحون» ويحملقون إلى الناس .. ويلبسون طربوشين أحدهما فوق الآخر .. ويلبسون فردة من حذاء أسود .. وفردة أخرى من حذاء أصفر فاقع زاه ..

لأنهم يحيون حبهم .. لهذا هم عظماء ... ولهذا هم يحققون قمة الحياة الانسانية .. لأنهم - فى هذا الطور - يصبحون انداد الفنان .. والمتصوف .. والفيلسوف ...

ولكن .. هل تعرف أى ضعف إنسانى فينا جميعا ؟ نعم .. انك تعرفه ..

وأوضح مثال لذلك .. هو تلك المأساة الصغيرة .. التى تحدث كثيرا فى حياتنا المصرية الاجتماعية .. فالفتاة - مثلا - التى تكون قد درست فى مدارس ... راقية - فرنسية فى الغالب - تلك الفتاة الأنيقة .. الجميلة .. الهيفاء .. التى تحب الفن .. و «الجمال» .. والتى تعجب بالشعر . وتقرأ كل كتب توفيق الحكيم .. على سبيل المثال ... تلك الفتاة التى تتذوق تلك الحلاوات الرائعة .. على قمم

الحياة .. وهناك عينات كثيرة جدا فى المجتمع المصرى الحالى .. لهذه الفتاة .. التى تكون فى الواقع .. لا تفعل شيئاً .. أكثر من أداء وظيفة «الحياة» .. الوظيفة القديمة القديمة .. انظر إلى تلك الفتاة بعينها - بعد أن تكون قد زوجت .. لفتى أنيق راق .. تجدها قد مالت .. قليلا .. قليلا .. إلى السمنة .. وتجد عنايتها ، قد أخذت شيئاً فشيئاً تنقص وتضمحلّ بالأناقة .. وبالجمال .. وتجد قصائد الشعر .. ورسائل الحب .. قد ربطت بشريط أزرق سماوى أو أرجوانى .. ودفعت إلى آخر الدرج .. وتجد أشعار على محمود طه وابراهيم ناجى .. قد علتها طبقة خفيفة من الغبار .. وتجدها ... رويدا رويدا .. تضيق بأحاديث الفلسفة .. والفن .. وسحر الحب والحياة .. وتميل .. أكثر فأكثر إلى أحاديث المجتمعات والمراقص .. والخطوبات .. وأخبار التيزات والأبلوات والتانتات .

ثم ... بعد عشر سنوات .. تعال نبحث عن فتاتنا .. عاشقة الفن .. والحب .. والجمال .. تجدها قد أصبحت سيدة «عظيمة» .. ضخمة .. إما متأنقة أناقة التكلف والكبرياء .. تضع على وجهها .. غالبا .. نصف دكان «الجمال» وتتحدث كثيرا .. عن أشياء تافهة .. عن حلى فى الغالب .. وأصناف الدهانات الجديدة .. وإما «ست بيت» .. تلد .. وتحلب لصغارها .. وتعنى ببيتها .. وسمنها .. وزيتها ..

نعم .. هذه هى المأساة الصغيرة ... التى تحدث كثيرا بل ودائماً .. مأساة تغلب المجتمع بزيفه .. وريائه .. ونقماته .. على الحياة الروحية .. الضئيلة .. المحتاجة إلى الكثير من الغذاء .. والوقود .. ذلك

الوقود الذى قد لا يقل عن كومة كبيرة هائلة من الهشيم .. تجد فيها أعوادا كتب عليها أشياء كالآتية : «المجتمع» .. «الأسرة» .. «صداقات الناس» .. «الكبرياء» .. «الراحة» .. «اللذة» .. كلها تقدم للنار .. وتحترق .. لينبت من ألسنة اللهب نبات شيطانى ممتع الجمال ... !

من السهل جدا يا صديقى .. أن يعيش المرء كالناس .. يعمل .. ويبحث عن اللذة .. والتسلية .. ويحب .. ويكره .. وينافق .. ويشرب الخمر .. ويحضر دور اللهو الرخيص .. ثم يأتى آخر النهار ليقرأ كتاباً .. ويسمع موسيقى .. ويكتب رسالة .. انها تكون حياة سهلة .. لذيذة .. ولكن .. لكنها حياة ميتة ... حياة ستموت .. لأنها ليست أكثر من مركب تفاهات .. أما الحياة الأخرى .. الحياة التى نحترق لكى نحياها .. الحياة الحقيقية .. أين هى ؟ .. إنها تحتاج لشىء أكثر مما فينا .. انها تحتاج لتضحيات هائلة .. انها تصرخ بنا .. لكى نحمل ثقل صليب .. مبهظ .. مخيف .. ساحق .

هل تصدق .. اننى اشعر بندم مر .. وبأسف لاذع .. حينما أحدث زميلا .. أو أقرأ جريدة .. أو أجلس فى مجلس عائلى عادى .. أو أذهب إلى دار سينما ... أو أكتب محاضرة .. أو أخرج لأمشى فى الشمس قليلا ؟ .. وأننى أشعر بيأس .. وبخيبة مريرة .. حينما أنام .. وحينما أستيقظ .. وحينما آكل .. وحينما أحيا .. باختصار ... ؟ .. اننى أحس فى عمق مخيف قاتل .. ان هناك شيئاً آخر .. غير كل هذا يطلب منى .. فى صوت مميت .. أن أحيا فنى .. أو أن أموت ..

شيئاً عميقاً .. قوياً .. جبارا .. حقيقياً ..

نعم .. ان العلاقات بينى .. وبين الحياة ليست على ما يرام .. هناك سوء تفاهم كبير .. ولذلك فأنا لست مسرورا من نفسى - وأصدقك القول - على الاطلاق ... ! ..

عزيزى ..

أشكرك .. فقد كنت أشعر بسأم تافه .. وبضجر راكد تنمو عليه الطحالب .. ولكنى قضيت وقتا مسليا ... لا بأس به فى كتابة هذه التفاهات .. ولذلك فأنا أشكرك .. كما تقضى قواعد اللياقة والذوق السليم ..

أما الكتب التى تطلبها منى .. فلن أبعث لك منها سوى كتاب برناردشو ، لأنك فى حاجة اليه ... هو وحده .. ولكن ليس الآن .. وإنما .. فى وقت آخر .. قريباً بالطبع ..

مسألة أخرى .. أن العنوان الذى أعطيته لك تغير الآن ... وأصبح عنوانى :

٩ شارع ابن زهر ، المتفرع من شارع راغب باشا - الاسكندرية .

ابن زَهْر أو زُهَر أو زِهَر أو زَهِر .. أو سمه ما تشاء .. !

فى الختام .. أحظر عليك حظرا باتا أن تكتب لى .. أو تتصل بى .. بأى شكل كان .. وفى أية صورة كانت .. لست أريد أن أسمع عنك خبرا .. أفاهم ؟ .. نعم .. لعل هذا الكلام يفلح ... لعلك تحس ..

لقد حفى قلمى من التوسل إليك أن تكتب لى .. على جناح السرعة .. ومن التضرع .. والالحاف .. والاصرار .. والالحاح ..

والرجاء الحار ... الباكى .. الدامع .. المحزون .. الملهوف .. !

وذلك كله بدون فائدة ...

فلعل الحظر .. والمنع .. والتحريج .. والتحريم .. والاعراض .. واظهار الملل المتثائب الهادىء الخامد .. اللامبالى .. المتحجر .. الميت .. لعله ينفع .. بحق الأولياء الصالحين .. ! ...

تحياتى إلى جانيت .. وصداقتى ..

باريس فى ١٤ مارس ١٩٨٤

عزيزى الأستاذ ....

تحياتى وأطيب تمنياتى لك وللأخ العزيز الأستاذ شفيق خلّه وللأخ الأديب المصقع الدكتور عبد الستار عكاوى .

وشكرى وتقديرى لتحيتك الرقيقة فى رأس السنة ، واعتذارى عن سوء أدبى لتأخرى فى الرد ، لكننى أرجو أن تسامحنى بمجرد تخمين الحوسة الكبيرة التى تنوشنى يمينا ويسارا ، حتى قررت أن أعتزل بالمعاش المبكّر خلال عامين على الأكثر ، لكى أخرج من اليونسكو على قدمى - لا على ظهرى .

طبعا أبلغت رسالتك للأخ العزيز وفيق راقم ، فسال منه ما نعرفه جميعا من شهد طيب مصحوب بالصياح و «الانشراح» ، أعنى ما تعرفه عنه من ذلاقة لسان وتدفق بما يحلو ويروق من القاموس المنتقى، وبلغ من ضجيجه أن تآمرت على إيفاده إلى نيويورك فى نهاية العام الماضى ، ويبدو أنه انبسط هناك جدا ، لأننى تلقيت منه خطابا واحدا من العسل المصفى ، وبعده الصمت العميق .

أرجو أن تكون بخير وبصحة جيدة ، وغير متأثر بما يجتاح آسيا وأفريقيا من مخاضات طالت واستطالت وأينعت وأورقت وأزهرت حتى أدارت رؤوسنا .

وأمل أن نلتقى قريباً بإذن الله .

ودمـــــــت للمخـلــــــص

محـــــمد حســـــن عبيـــــد

كنت قد التقيت بمحمد حسن عبيد فى مكتبه باليونيسكو فى باريس ، وعندما زارنى فى ليلة عيد الميلاد سنة ١٩٨٣ فى بيتى بالقاهرة عرفت أنه أصبح رئيس قسم الترجمة العربية فى اليونيسكو، وشربنا كأسين أو ثلاثة ، وضحكنا كثيرا ، مزاج عيد الميلاد ، والشجرة السامقة فى الأنتريه تلفها عقود المصابيح الصغيرة الملونة تومض وتنطفىء وتومض وتنطفىء ، وعلى أغصان الشجرة شرائط الزينة الفضية المتهدلة ، وندف القطن الثلجى ، ودُمَى بابا نويل الصغيرة ، والكريات الهشة المجوفة المصنوعة من زجاج رقيق ، فضية وذهبية وحمراء ، والجرس الفضى ، والنجوم الزاهرة يعلوها جميعا نجم المجوس الهادى ، وقد صفت ربطات الهدايا ، وتكومت ، ملفوفة بالورق اللامع الملون .

وكان معنا الدكتور عبد الستار عكاوى ، مدملجا ، مدورا ، مدموكا ، وقد فرغ من شكاته الأبدية من عقوق الجامعة ، ونُهَز الأساتذة ، وتفاهة المناهج ، وعزوف القراء عن الفلسفة ، وتأخر الحقوق المستحقة ، وتعثر أوراق الإعارة لجامعة الكويت ، ومالانهاية

له من المظالم والمواجع ، فضلا عن صعوبة سلّم الفن المراوغ الجميل .

وجاءت سيرة وفيق راقم فقلت لعبيد إنه يستحق منا التأييد والمساندة بعد أن عاد من سوريا ، وهو يبحث عن مورد يعينه على الاستقرار هو وعائلته الكبيرة فى لندن وإنه كما نعرف جميعا مترجم حاذق عتيد ، ومضت الشهور حتى جاءنى خطاب عبيد .

وكما يحدث كثيرا ، لم ألتق به بعد ذلك ، فيما أظن .

أما وفيق فقد تواتر عمله فى الأمم المتحدة ، ثلاثة شهور كل سنة، على الأقل، فيما عدا الاستدعاءات الاستثنائية للجلسات غير العادية .

الاسكندرية فى ١٩٤١/٣/٣١

بنى النجيب

أحييك تحية المقدر لوفائك ، المعجب بنبوغك ونيلك قصب السبق فى مضمار العلم والأدب والأخلاق ، واهنىء بك المستقبل الزاهر الذى ينتظرك ، حقق الله يا بنى لك الآمال .

ولا يسعنى إلا أن أسجل إعجابى بأدبك بهذه الأبيات :

بنشرٍ ساحر الألباب قلته ... سحرت الناس يا بالازهار زِنْتَه

مضى عبد الحميد وقد نشدنا ... فتى يحيى كتابته فكنتَه

شفانا ما بِطِرْسِك من رياض ... بها ورد الربيع لنا نثرتَه

يكاد النحل يسبقنا اليه ... ليرشف منه معنا ما غرستَه

أهنّىء يا بنى بك المعالي ... وديوانَ الكتابة اذ رفعتَه

وشكراً يا بنى على وفاءٍ ... لمن لم ينسَ عهدك قد رعيتَه

عبد الحميد بدر

هأنا قد نسيت تقريبا عبد الحميد افندى ، مدرس اللغة العربية فى مدرسة النيل الابتدائية بغيط العنب ، لا أكاد أذكر إلا وجها سمحا ودمثا وانسانا حلو الشمائل كما يقال ، وكان بلا شك يحنو على محاولاتى الأولى فى الانشاء وطبعا كنت تلميذه المفضل ، فى النحو والاملاء لا أكاد أخرم حرفا . فهل كنت قد أرسلت له «أشعارى» المتعثرة الأولى بعد أن تركت فصله بسنتين أو ثلاثة ؟ لماذا ؟ هل كنت أحب فيه بديلا لأب كان غريبا عن كل ما أكتب من حماقات واندفاعات وتفيقهات ؟

قصيدته لى ختام وختم وتصريح لى بالنسيان ، أو يكاد .

وليست هذه سيرة ذاتية ، بمعنى ما ، وإنما أريدها أن تكون رواية ، يعنى .

فلماذا اقتحام هذه القصيدة العتيقة ؟ ولماذا ظهور عبد الحميد افندى بدر ، فجأة ، وأنا أحكى حكايات لاصلة لها به ؟

قلت : ما من حسرة هنا ، ولا تفجع ، ولا أسى .

قال : ألم يكن هذا الزمن جميلا ؟ خاصة الآن وقد مضى ، وأنت تسترجعه .

قلت : لم يكن هذا الزمن جميلا . بل هو جميل الآن ، مازال ، وسيظل .إنه ماثل ، لم ينقض ، أنا لا أسترجع شيئاً . كيف استرجع ما هو حاضر راهن ؟ كم من مرة خرجت لكم قائلاً : يا ناس . هذا كله ليس الماضى ، بل الآن . لكنكم تظلون أسرى التواريخ .

قال : التاريخ لا يُدحض .

قلت : بل مخادع . لا أعرف التاريخ . وأنا أقول ١٩٤١ ، ١٩٨٤ ، ١٩٤٥ ، ليست هذه الا منارات تضيء بحرا بلا شاطىء ولا مرسى . تيه الموج بلا نهاية ، ليس فيه مسار . مراكبى تمخره بلا توقف وهى رابضة بلا حركة . فأين التاريخ ؟ وأين الحزن الموهوم ؟

قلت : التوجع سمة الصبا والمراهقة التى لا تحول .

قال : يا شيخ !

فقلت : ليس ثم شيخ يتذكر ، أو يتحسر ، وليس ثم فتى انحسر ظله ، بل هما واحدٌ وهما كثير .

قال : هذه ، ربما ، مجرد طريقة فى الكلام ، لعلها توشية ، أو استعارة .

قلت : لا طنطنة . لا أقنعة .

قلت أيضا : أبعد هذا مكاشفة ؟

قال : لا بأس بهذا كله دفاعا .

قلت : هل تسللت إلىّ نغمة اعتذار ، أو تفسير ، أو تبرير ؟

قلت أيضا : لا دفاع . ولا اعتذار . ولا تبرير

أقول : هذا دمى .

ليس لى معبد ألوذ به .

كان وفيق فى غرفة الاستقبال الضيقة فى بيته ، فى آخر كينتيش تاون ، الضوء شحيح نوعا ما ، وهناك عدة كتب مجلدة مذهبة الحواف تزين الصالون وتشغل حيزا من خزانة بلورية الزجاج ، أعداد متناثرة من الانسكلوبيديا بريتانيكا ومختارات تقليدية من الشعر وروايات

أمريكية من قبيل «ذهب مع الريح» .

وكانت شيرويت صغرى بنات وفيق مخطوبة أيامها لسارجنت فى الجيش الأنجليزى ، يأتى ليزورهم ويتعشى عندهم ليلة السبت ، ويقضى مع البنت يوم الأحد .

والبنت جالسة على الصوفا ، تحت ساعة كبيرة ، وقد ثنت ساقيها تحتها ، ولبدت فى حضن خطيبها ، على الطريقة الأوربية ، تداعبه ويلس عليها ويقبلها فى فمها ، خطفا . وأبوها ينظر اليهما بشىء من الرضى ، والغيظ المكتوم ربما ، والغيرة ربما ، ولا ينبس بحركة ولا نأمة. يا عم نحن الآن فى لندن، فى الربع الأخير من القرن العشرين، فماذا فى ذلك كله ؟

وسألنى وفيق عن الحال فى مصر ؟ ومن غير أن ينتظر اجابة انطلق يعدد سيئات مصر وسوءات الحياة فيها ، ولم يكن قد وضع قدمه على أرضها منذ أن غادرها قبل خمسة عشر عاما أو نحوها ، وتكلم عن القمامة ، والاهمال ، والذباب ، والرشوة ، لم يذكر حمى القتل ، والقتل المضاد إذ لم تكن موجة العنف ، والتعصب الأعمى ، والظلامية ، والسعى اعتسافا إلى الاستئثار بالسلطة ، تحت زى الدين وتسترا بقناعه ، قد اندلعت بعد على أرض الوطن ، بكل شراستها ووحشيتها ، وان كانت قد تطايرت لها شرارات ، هنا أو هناك ، لكنه تحدث عن الرثاثة ، والديكتاتورية ، والفساد ، وتكميم الأفواه ، وقمع الحريات وخبث الناس ، إلى آخره ، ورددت عليه وأنا أحاول التحكم فى نبرة صوتى ، وفى منطقى ، بما معناه أن الناس فى

مصر أكرم وأكثر أصالة ودفئاً منهم فى أى مكان آخر ، أو على الأقل فى أوروبا ، وانهم فى البيئة المناسبة يبدعون ، ويلتزمون ، ويتفوقون ، وأن الوطن أكبر وأبقى من أى نظام للحكم . واستدعيت ثورة ١٩١٩ وانتفاضات الطلاب فى ٣٥ و ٤٦ و ٦٨ ، وتكلمت عن ١٨ و ١٩ يناير ، وقلت ان العساكر سرقوا منا ثورة ١٩٥٢ وان كان جمال عبد الناصر قد غير وجه المجتمع وله رغم كل شىء أمجاد كثيرة، إلى آخر ما يقال عادة فى مثل هذا المجال ، لكنه قاطعنى باحتداد واحتدام صارخ عالى النبرة جدا ، وكانت يده ترتجف بكأس الويسكى فتترجرج قطع الثلج فيه وترتطم بزجاج الكأس ، وفجأة قالت شيرويت ، بالانجليزى طبعا : دادى ، لماذا تتحدث الآن عن ذلك البلد ؟ تركته أنت من زمان ، لا شأن لك بهؤلاء الناس . لا تهتم بهم.

وربت السارجنت على كتفها بسرور وتحبيذ .

وطبعا حز فى نفسى كلامها عن «ذلك البلد» الذى كانت قد ولدت فيه ، والذى دفن فيه جدها الصعيدى ناظر محطة صفط الملوك العتيد ، وجدتها المرهفة التى قطعت ساقها فى بيت كوبرى القبة ، ولد ومات فيه أجدادها وأسلافها ، ألهذه الحجة العاطفية التقليدية قيمة ؟ لماذا يحز فىّ كلامها ؟ فكرت انه كان على وفيق أن يبث فيها وفى أولاده الآخرين حب «ذلك البلد» أو على الأصح «البلد القديم» كما يقول غيرنا من الذين نزحوا إلى الغرب ، بما تحمل تسمية «البلد القديم» من اعزاز وما توحى به من آصرة الانتماء . أما «ذلك البلد» بما توحى به تلك اللهجة المتعالية ...

استأذنت بعدها مباشرة ، وتركت بيت كينتيش تاون ، أظن أنه قد تصادف مجرد صدفة اننى لم أعد إليه بعد ذلك .

عرفت بعد ذلك بكثير ان البنت لم تسعد فى زواجها بالسارجنت وأن المشاكل والمتاعب من جراء ذلك كانت تنوء بكتفى عم وفيق العجوز ، حزنت قليلا على الرغم من كل شىء . كانت شيرويت فى مقام بنتى - وان كانت لا تكاد تذكرنى - وكانت سمراء مسمسمة عذبة التقاطيع وان كان فيها شىء من غرور أبيها وصلابة مظهره ، ولم أقل : تستاهل . خلها تشوف ما يجرى لها فى «هذا البلد... » (كأنما كانت متاعب الزواج لا يمكن أن تحدث - يعنى - فى أى بلد).

فى نيويورك كان وفيق يلتقى بى - على سبيل الصدفة - فى ردهة مبنى الأمم المتحدة ، كنت للمرة الأولى والأخيرة قد قبلت التعاقد معهم لفترة ثلاثة شهور فى أثناء انعقاد الجمعية العامة ، وكان هو ربما فى سنته السابعة أو الثامنة أو نحوها من تواتر هذا العقد ، من أواخر سبتمبر إلى نهاية ديسمبر من كل عام . كان يسلم على ببرود ، بالإنجليزى ، ويمضى دون أن يتوقف معى لحظة ، حتى . أو تقريبا . لم يقل لى مرة تعال نشرب قهوة ، دعك من أن يدعونى إلى بيته هناك أو للخروج فى المساء ، أو حتى للغداء فى فترة الظهر فى مطعم قريب مثلاً . وعرفت من صديق مشترك استغرب هذا كله وسأله ، صراحة ، أنّ حجته كانت أننى غادرت لندن ، ذلك العام العتيد ، بعد حكاية سبت السارجنت الذى لم أتعش معهم فيه ، دون أن أتصل به حتى . بينما كان قد أعد لاقامتى هناك شقة ابنه الذى

كان أيامها خارج لندن . وبدت تلك الحجة عندى لا قوام لها . فدعوته إلى فنجان قهوة فى كافيتيريا الأمم المتحدة ، وجلسنا هناك فى الدفء المريح وفى هدوء بعد الظهر ، نطل على مياه الهدسون التى تجرى باردة من وراء الزجاج ، والرياح تهب بالشجرة الوحيدة البعيدة على الجزيرة الصغيرة غير المأهولة ، والصنادل تسرى بلا صوت تحمل بضاعة مغطاة بالمشمع المندى اللامع ، وطائرات الهيليوكوبتر تنطلق فى مساراتها تعلو وتنزل فى قوس بعيد ، قلت له اننى لا أريد أن أقول كلاما عاطفيا حتى لو كان هذا الكلام يصدر فعلا عن عاطفة حقيقية . هل احتاج أن أذكرك كيف كنا قريبين جدا ؟ وأيام الاسكندرية ؟ قلت اننى لن أكرر مثل هذا الكلام مرة أخرى . كنت أنتظر منه شيئاً آخر غير هذا الذى يحدث ، إلى آخره إلى آخره . فقال : وما هذا الذى يحدث ؟ لاشىء هناك غير منتظر . كل شىء عادى وطبيعى . فقلت فى نفسى : لا أيأس من صداقةٍ عريقة أحسّها فى نفسى غير زائلة ، هاهى ذى تزول أمامى . لماذا ؟

قلت : أليس ذلك كله محزناً قليلا ؟

يوميات :

٢٠ يونيو ١٩٤٥ .

نحن غرباء . غرباء تربطنا لحظة ويضرب بيننا أبد من الزمان . هذه هى النغمة الكبيرة التى تدوى وتصرخ فى أيامى .. وعندما أذكر كيف كنا نقضى معا تلك الساعات الطويلة . بازاء البحر . فى الظهر وفى الغروب . عندما أذكر ذلك الايمان الذى كان يملأ حياتى إذ ذاك .

الايمان بالحب والفهم .. ترتفع تلك النغمة القديمة . المسيطرة . تدوى فى عتمة الوحشة . خارج الأسوار . تدوى وتملأ ليلى بالشكاة العميقة الجريحة . كعواء حيوان تتركه القافلة ... ثم تمضى وتترك الصمت . الصمت. انزواء الاستسلام. كحيوان يرتمى على باب الكهف القديم - وقد هجرته القافلة - يضع رأسه على الأرض وينظر إلى السماء ...

كلمات. كلمات. جنون الأغانى العتيقة. جنون الدموع التى تهلهلت .

وتلك القسوة . قسوة الغرابة . قسوة الحائل الصلد الذى بنته الأيام طبقة بعد طبقة - فارتفع بين الروحين - لا يلين - ولا يهتز . بل يرتفع بقسوة . ذلك الشىء الغريب الجامد بين الغرباء .

وكنت فى غباوة محبة قديمة أنظر إلى الصيف وفى نفسى أمنية رقيقة .. أن يأتى الغروب المشمس وأن نرى أحدنا الآخر كل يوم - أو على الأقل كل يوم والآخر نخرج فى الغروب نمشى فى طريقنا معا - فى رقّة الشمس الذاهبة ونتحدث . ونفهم أحدنا الآخر .. ونبنى أحدنا الآخر .. حلم تُكنّه فى أحشائها محبة قديمة .

ولكن الشىء الغريب .. الشىء الغريب .. فى قسوة جامدة .. يقف حائلا بين غرباء .

عندما ذهبت أول أمس ، قلت لوفيق ذات مرة : على فكرة ، ألم تقرأ بعد القصص ؟ كنت قد كتبتها من زمن ، وبيّضتها ، ولم يكن عندى نسخة أخرى منها . قصصى المباركة فى السماء والأرض .. وفى لهجة حادة جارحة أجابنى : أنه ادعاها لنفسه يا سيدى ، وباعها فى مصر للجرانيل .

وفُجِئْت .

كنت متعبا ولم أستطع فى أول لحظة أن أفهم ثم ذهبت الكلمة بعيدا فى النفس .. اللهجة التى قيلت بها ذهبت تحز فى الأغوار .. وترسخ هناك . ثقل آخر من العتمة .

اذن فهو يعتقد أننى أحتفظ عنه بتلك الأفكار : إنه ادعاها لنفسه وباعها فى مصر - كما لو كان هذا يهمنى - ولكن الشىء الغريب .. تلك القسوة الجامدة العمياء .

وفى المحطة قال فى غمرة الحديث : يالها من حياة حزينة ! .. وأجبت فى ثقل أبدا يا أخى دى حياة جميلة جدا .. وامتدت ظلال الشىء الغريب مرة أخرى وأحسست بجمود اللعنة .. عندما رد قائلاً : أيوه ما هو أنا بتظاهر أن الحياة دى حزينة .. باستدر «العطف» .. وأشياء أخرى من هذا القبيل . ولم يعرف . لم يحس . لم يخطر بباله قط اننى عندما قلت إن الحياة جميلة كان فى الكلمة ثقل من الاحساس بالوحشة لا يُحتمَل . ان الكلمة كانت تأييدا لكلمته هو اننى لم يخطر فى بالى قط إلا أن أؤمن على كلمته .. بطريقة خاصة .

ولكننا غرباء .. نحن فى هذا الركن من الوجود . غرباء لا نفهم بعضنا بعضا ولا نعرف بعضنا بعضا .. منفيين فى أنفسنا .. مدفونين فى تراب البؤس الذى بلى .. والدموع المهلهلة .

وفى المساء، كان يحدث أحمد صبرى يأخذ منه ميعادا للغد. ولكنه لم يشر إلىّ بكلمة . وذهب ذلك الصمت الذى تَلاَ اتفاقهما على الميعاد . ذهب كطعنة أخرى . وانقطع الحيوان فى نفسى عن عوائه

لأن كل شيء قد نساه . وارتمى على الأرض . ونظر بعينين جافتين إلى ظلمة الغسق .

وانزويت .. انزويت فى الظلمة .. كأننى لم أرد أن أنفجر . لأن الدموع أشياء رثة لا معنى لها . ولكنه أعطى ميعادا هو بنفسه .. ميعادا اضطر أن يعطيه من أجل خاطر المعرفة القديمة .. بعد ثلاثة أيام .

غرابة الأيام .

وفيق .. لو كنت تعرف أى عمق من الحاجة فى نفسى .. أى عمق من الحاجة إلى رفيق .. الحاجة إلى إنسان أعرفه .. لكى يعرفنى . لكى أهمس له بأغانىّ القديمة . أعانى أى عمق من الوحشة . من الشعور بالانزواء . بالانسحاق فى الظلام .

هأنذا تتمزق نفسى بحثا عن رفيق . لأننى لست أطيق هذه الوحشة . لست أطيق أن أموت فى شقائى العتيق .. لست أقوى أن أرتمى على الأرض أخيرا بجانب جدار كهفى . وأنظر وحيدا إلى ظلمة السماء . وإلى القافلة الغريبة . بينما أنا قد نستنى قافلتى . وتركتنى للجروح التى جفت دماؤها . ومازالت تنز بعد .

لو كنت تعرف يا صديقى لما ارتفع ذلك الشيء الغريب فان لك فى النهاية النفس التى تستطيع أن تفهم وأن تعرف .. أن تحب .. لأنك الرفيق الذى عرفته عندما كنت اتفتح للحياة . ولن تنسى الحياة الفجر الذى تفتحت فيه . لن تنساه . لن تنساه .

ذلك الشعور عندما أنظر حوالى فى كل هذا العالم .. فلا أجد

أحداً يذكر اننى مازلت موجودا ... اننى مازلت فى حاجة للإنسان الذى بليت أقدامى فى البحث عنه .. والذى لم أجده .. لأننى أنا نفسى قاس وشقى ، لأننى أجعل نفسى كريها .. لأن المحبة فىّ - كما يبدو - هشة لا تقوى على شىء ...

هشة ؟ كلا .. كلا إنها منبثقة من غور الحاجة إلى الحياة نفسها . لست أستطيع أن أعيش . لست أستطيع على الإطلاق .. إذا لم تكن فى نفسى محبة للإنسان . محبة للرفيق . ولكنها محبة منكمشة فى ذاتها منزوية فى ظلمة الكهف لأنها منسية .. لأنها تحترق فى صمتها .. لأن أحدا لا يهتم .

لست جديرا بشىء ... هذا هو التفسير الوحيد ... لست جديرا بشىء ..

هذا المرض القديم .. ولست أستطيع إلا أن أعوى فى المساء قليلا .. ذلك العواء عواء الحيوان فى البرية .. لا أحد يحسه لا أحد يسمع .. ولكنه يرتفع متمزقا من الروح تنزعه من العمق الجروح النابضة القديمة . التى تجف .. ولكنها تحز فى النفس وتدمى مرة أخرى هذا الانسحاق. هذه الدموع الرثة.. أما آن لها أن تمضى الآن؟ أما كفاها؟ والبرية موحشة .. فارغة .. وأنا خارج الأسوار فى الظلمة ..(كم يبدو ذلك كله الآن زائف النبرة ، مع كل صدقه وحرارته ، ومع إحساسه - حتى فى ذلك الحين - بإسراف العاطفيّة ونواحها المنفّر) .

فى ١٩٤٦ تخرج كامل الصاوى ، معنا ، وبينما ظللت سنة تقريبا

بلا عمل ، غرقت خلالها فى النشاط الثورى حتى استبد بكل لحظة من يومى وبشطر كبير من الليل أيضاً ، وأنا مع ذلك لا أنى أواصل ارسال خطابات طلبات العمل وأتلقى جوابات الاعتذار المهذب ، عرفت أنه عين معاون نيابة فى الجمرك ، فور تخرجه بترتيب «جيد» فقط . أصبح اذن جزءا من السلطة ، من أجهزة القمع القانونى أو المقنن ، هل نسى هيجل ، وتروتسكى ، والفلسفة الثورية ؟ كان هذا هو المنتظر ، طبعا . وتم الانقطاع .

وبعد سنة أخرى فقط ، قبيل أن أعتقل مباشرة ، قرأت فى «الأهرام» أن الأستاذ كامل الصاوى ، معاون نيابة الجمرك بالاسكندرية ، قد لقى ربه إثر حادث أليم ، فقد غلبته سِنة من النوم وهو يدخن سيجارة ، واتضح من التحقيقات أن السيجارة المشتعلة سقطت على السرير، وتوفى سيادته محترقا فى شرخ الشباب بينما المستقبل الزاهر ينتظره ، رحمه الله رحمة واسعة.

صدمنى الخبر ، وهزنى ، رغم كل شيء .

راودتنى أفكار شاردة عن احتمالات موت متعمد ، مقصود عن وعى أو غير وعى . أهى فضيحة جنسية ؟ هل كانت بطلتها الأم الأرملة المتحررة ، أم الخادمة التى تضخم بطنها ؟ أم هو شق عميق لم يبرأ بين الثورى القديم وبين رجل السلطة ؟ وخطر لى أن حسه الخلقى الكامن ربما تيقظ فجأة ، تغلب على «موضوعيته» العلمية ، ودفعه إلى حافة النار ، فتردى ، أم لعله قد علا ؟ هل كان النوم (أو الموت) قد غافله فعلا ؟

ظل سريره المشتعل يؤرقنى شيئاً ما ، ويحيرنى .

قربان الموت ، الأخير على شاطىء «الجانج» أو «الستايكس» سواء ، هل لقيته نِمْفِيَّة.. النهر العارم الذى لا غلاب له والذى يصب فى غيابات الظلمة ، قاطنة الغرب النائى . على حواف الليل فى مأواها المظلل بجبال معتمة شامخة ، سريره المرتفع وأحطاب الوقود عطرى الرائحة وأعواد البخور وترانيم التعبد والتذكر بأصوات رتيبة النغم فى الحر الذى يسحق الحس ويعطل الفكر .

ألسنة اللهب متطايرة تصعد إلى العنان والدخان والعبق الأبيض به شرائح دسمة سوداء يفلت من بين النيران صوت أجيج الاشتعال وفحيح اللظى لا يكاد يخفى طقطقة العظام المهيضة التى تتقوض فى الحريق ولالزوحة الأوصال التى تذوب فى حنوطها تحت هرم الكومة المتقدة .

سرير كامل الصاوى فى غرفة نومه البورجوازية الضيقة فى محرم بيه قد احترق به بصمت ، دون نجدة ، دون ترانيم ، وانطفأ من تلقاء نفسه ، وترك البقايا وسط الرماد وجذاذات متفحمة من القطن والقماش والأسلاك المتلوية ، تحت المصباح الكهربائى الذى ظل مضيئاً فى نور النهار . تدحرجت نظارته الذهبية الاطار وسقطت على الأرض وبقيت سليمة وصافية . مات وحده ، دون حب ، دون مجد .

قالت لى : لو كنا فى الهند فلن أكون أنا الذى أحترق معك على سرير موتك . ليس مكانى على سريرك الأخير المشتعل .

قلت : مكانك اشتعال آخر ، حىّ أبدا ، ليس له انطفاء .

٢- وسوسة الهواجس الراسخة

«أُقسّمُ جسمى فى جسوم كثيرة»

وأزداد غنى بالقسمة. فى التشتّت كمال. البَدَدُ يضمنى إلى ذاتى.

أما شهوات الروح فهى غير مقسومة .

شهوات الروح تفح وتتلوى . ثعابين بين أنقاضها .

لا ضربات السنين تقوى عليها ، ولا قبلات الحب البغضاء الدامية.

ولا حريق الأخيلة .

للروح أيضاً مخالبها

ناشبة فى لحمى

ناشبة .

والصليب الداخلى ثقيل على كتفى الداخليتين المرهقتين .

الطريق إلى جلجثتى زلق وعر الانحدار .

قدماى العاريتان مجرحتان ، قطرات الدم تتحجر بمجرد أن تنزّ من الجروح الدفينة ، وتتدحرج تحتى ، لا تصل إلى قاع .

قلتُ أليست هذه استعارات ، وأماكن ، ومجازات ، قديمة بالية ؟

لماذا تحملها حتى الآن ؟ قلت .

قلت فى العالم ألمٌ لا يطاق حمله .

هل خطر ببالك لحظة أن تحمله ؟

وأنسى وجع أسنانى ، وأنسى مسرات بائدة ، بينما الساعة تدق العاشرة .

أحاول أن أنسى كذلك نشوات غير معترف بها أصلا ، وحسرات أخرى ، الحذاء ضيق عند مقدمى قدمى ، فتاة منذ أربعين سنة ، لم تقل لى «أحبك» .

أنفاس الحلم قريبة من وجهى ، حارة ، أشم بخار أحشائى .

أتخبط - ولا أتوه - فى أروقة العلاقات القديمة المتشابكة الخنايا، فى ممرات النفس الداخلية . شباكها المتلوية صخور ، حية ، تنبض . بينما القمر يسقط أمامى ، أنقاضاً ، والنجوم الهالكة .

أوهام سامقة مبنية صروحاً من الخيال العتيق ، تحترق ،

مسوخا جافة العظام ، شاهقة ، تحترق ،

تحترق .

على الورق الأبيض المسطر (اثنين وثلاثين سطرا للصفحة)

وبقلم رفيع السن ، أسود ، غير طيّع .

امرأة رينوار عارية تنظر إلى بعينين مفتوحتين .

موسيقى الچاز من الستينات

وأذان الظهر ، ورائحة الأرز المسلوق ، على النار ، من يمينى

أقول لنفسى : لست محاصراً . لا . لا ...

هل أنا فى قلب حصار من نوع ما ؟

هل كان بيتهم آخر بيت فى شارع سد ، هادىء ، قصير ؟ وهل كان رمليّ التربة ، غير مسفلت ؟ ويتفرع من شارع الرصافة الأرستقراطى المظلل بشجر وارف عريق ؟

وهل كانت غرفته لها شرفة فيها زروع صبار ؟ (لم أكن أعرفها .

كانت تسحرنى) وهل كانت هذه الشرفة فى تانى كات مباشرة ، تطل عبر الشارع الرملى الخاوى ، نقى الهواء ، على حديقة لها سور حجرى (أحجاره بيضاء رمادية غير مستوية الحواف) ووراء السور غيطان مزروعة ذرة ، وبقدونس ، وجرجير ، وملوخية ، وأشجار توت ومنجة وكافور ؟

ومع وثاقة القربى لم يكن أحد منا يعرف - أو يستطيع - أن يسأل عن جوانب شخصية من حياة سامى . (وحتى الآن لا أحد يسأل، كأن السؤال اقتحام لا مبرر له ، لمنطقة غير مسموح بالدخول إليها أصلا . هل هذا صحيح ؟)

لم نعرف - مثلاً - أن له أخوات ، وليس له أخوة ، إلا بعد ذلك، وكنا نتناقل همساً وفى غير يقين (هل كان قدّال هو الذى قال لى ؟) ان والده كان ناظر محطة فى سكك حديد السودان ، وأن سامى ولد فى الخرطوم ، وان والدته كانت فرنسية ، وانها ماتت عند ولادته أو فى طفولته الباكرة ، ولم يتزوج أبوه بعدها . فهل هذا صحيح ؟

كان سامى - وربما لا يزال - يحوط على حياته الخاصة ، كأنه ينفينا عنها ، يتحصن وراء سور من التحفظ والسر ، لا أحد يتخطاه إلى الحقول الداخلية ، لا أحد .

جغرافيا الروح لا خريطة لها .

وكان والده - ومازال ، بعد أن بارحنا كل هذه السنين - مهيب الحضور ودمث اللقاء معا ، طويلا ، جسيما فى غير تكتل ولا ترهل ، داكن السمرة ، خطوط وجهه أمينة صارمة الاستقامة . هكذا أذكره ،

بعد كل هذه السنين . كان يلوح لى برجا حانيا وآمنا ولكنه منيع .

أما سامى فقد كان - ومازال - رقيق الجسم ، أشقر ، شفاف الوجه تقريبا ولكنه دقيق التقاطيع ، أنيقا فى غاية الأناقة والبساطة، منذ أن عرفته ، ويبدو كما لو أن كل شىء فيه - قسمات وجهه وخطرات حديثة ، ونسق ملابسه ، سواء - مختار بعناية ، كلها ، بحساب وذوق ، وكلها مأخوذة بأطراف أصابع مرهفة الحس وقوية التملك فى آن. وكان، منذ الصبا، يستطيع أن يكون صاداً، قاطعاً، ويستطيع أن يكون مُرحّباً ، مضياف الروح .

ومنذ الصبا كان يملك أداة عقلية حادة النفاذ وعميقة الوقع ، ترفدها مقدرة تكاد تكون خارقة على متابعة الأمور حتى غايتها ، ودأب فى الدرس ، وصبر على مشقته ، حصافة فى النظر وقدرة على الإحاطة .

لذلك كان يرهبنا قليلا .

وكان يبدو - ولعله مازال - بالفطرة أو بدربة للنفس أوشكت أن تكون سجية ثانية ؟ - مترفعا عن صغارنا اليومى وعبثنا المجانى وتخبطنا الصبيانى - حتى الآن ؟ - بين الحماقة واليأس والصخب .

فأى يأس داخلى أكثر عمقا ، وأنضج لوعة منا جميعا ، كان يسكن روحه ؟

الاسكندرية ٣ أغسطس ١٩٤٢

عزيزى ...

لماذا تأبى أن نلتقى أحرارا كبيرى القلوب فى أفق الفكر الصامت؟

ولماذا ترى الحقيقة من خلال الغضب الانسانى الذى أرجف له ؟
ولم تجعل من ايمانك الانسانى درعا لقلبك ؟

هناك مسئولية تحيا وحيدا معها فلا تجعلها تشعرك بانقصالك ووحدتك .. لأن من تراهم ينبذونك ، أنت تحيا لهم ، فاجعل من آلامك عيداً لكل انسان وهل يتردد الألم فى آفاق كل نفس مالم يكن انسانيا ؟

اننى أريد أن أكشف لكم جميعا عن ذلك الجلال الذى يتردد بين العدم واللانهاية . وأرغب - لو استطعت - أن أجعل من نفسى أرغفة المسيح .

لنرتفع بايماننا اذن فوق الغضب والشهوة ولنشبع فينا هذا النزوع الانسانى الحار كالصلاة الذى يدفعنا إلى وضع عدالة بعد الموت يطمئن إليها النزوع الفانى .

اننى إذ أحدثك أحدّث فيك فضيلة الحرية التى حدثتك عنها .

ومن يدرى ؟ لعل الفناء كامن وراء كل عاطفة كلية ولعل الفناء هو الذى يدفعنى إلى تلمس الجانب الخالد فى كل انسان .

أجل .. كثيرا ما يكون الفناء لنا بصيرة .

أريد - بحبى - كل انسان أن يكون كالمعبد ، نشعر أمامه بجلال الصراع بين الحياة وذاتها ، وبنوع من الالزام الخلقى .

سامى

هل أقول الآن - لماذا ؟ - ان هذه الرسالة، على أكثر من مستوى ، عاشت، ومازالت تعيش فى قلبى، كأنها أتتنى بالأمس. كأنها الآن .

كنا نقرأ فى شرفة بيت شارع أبو المجد ترجمات لشعر بودلير ، هل كان سامى هو الذى ترجمها من الفرنسية ، أم كانت منشورة ، أم كانت من عمل ناصف وصفى ؟

فى تلك الأيام كان ناصف وصفى ، ومصطفى الحجار ، يكادان يشارفان الكائنات الأسطورية ، فى حسّنا ، على تراوح بل وتناقض بينهما . كانا أكبر منا جميعا بسنوات قلائل ، فى تلك السن كانت حاسمة ، وكانا فى أواخر سنى الجامعة ، قسم الفلسفة ، ويتقنان الفرنسية ، ويعرفان الألمانية ، وقد درسا اليونانية واللاتينية على أيدى أساتذة لا يضارعون ، وفى الفلسفة ، يوسف كرم ونجيب بلدى وأبو العلا عفيفى ، وعليهم درس سامى أيضاً ، بعد ذلك ، وكان فى الاسكندرية عندئذ جامعة حقيقية . أما كازانييف الفيلسوف الشاب بطل المقاومة الفرنسية ضد النازى ، وجرينييه أستاذ ألبير كامى ، وليدل ، وانرايت (صاحب «السنة الأكاديمية») فلعلهم جاءوا فيما بعد. أم أننى أخلط بين التواريخ ؟ ما هَمّ . وهو أنا عقلى دفتر . كما لا أنى أقول ؟ ولعلنى أيضاً أخلط بين الأشخاص ، منابعهم ونوازعهم سواء .

وعندما التقيت بمصطفى الحجار ، أول مرة ، راعتنى المقاربة بينه وبين سامى ، صدمنى التشابه ، بل التطابق أحياناً ، بين طرائق كلامهما بل وبعض العبارات المتكررة ولوازم الحركة والاشارة والتلويح بالذراع والصمت عن إكمال الجملة فى موقع حيوى منها والاغراق فجأة فى سهوم «فلسفى» لا يجرؤ أحد على اختراقه ، وهكذا ، مع

تراوح بين حيوية الحجار وامتلائه فيزيقيا وتدفقه وحسيّته الصاخبة وضحكته المجلجلة - كان ابن بلد من بحرى - وبين رهافة سامى وتحفظه وترفعه شيئاً ما .

أما ناصف وصفى فقد كان شيئاً آخر بالمرة ، ولعله كان أفاقاً قليلا أو كثيراً ، ولعله بعد ذلك قد شارك - أو تورط - فى عمليات مريبة، أو على الأقل غريبة ، وعلى مستوى دولى ، هل كانت عمليات تجارة أم تهريب سلاح ؟ أم تدليس أو تسريب وثائق ؟ أو - ربما - مخدرات ؟ وهل تزوج ناصف وصفى يهودية عاش معها فى باريس سنوات طويلة ، أم فقط عاش معها دون زواج ؟ أم أن ذلك كله من محض خيالى والتباس ذكرياتى وتخليط أوهامى ؟ جلست معه مرة على قهوة ريش بعد ذلك بسنين - بصدفة بحتة - وحدثنى طويلا وبحرارة وذلاقة لسان عهدتها من الصبا ، وقوة اقناع لولا أننى أعرفها وأحذرها لرحت ضحية لها ، عن سفره إلى المحيط الهادى لتصوير فيلم عن الحياة البحرية فى الأعماق ، وعن المعدات التكنولوجية التى أعدها لهذه المهمة - كأنها مهمة جاسوسية - وبدا لأول وهلة انه سيطرح علىّ فكرة مشاركته فى «المشروع» لولا أنه حدس أننى أولا غير مقتنع ، بل منكر مع اننى صامت ، وثانيا أننى مفلس أعيش أنا وعائلتى من اليد للفم ، كما يقال .

وربما كان ذلك كله من وهمى .

كان سامى ، ونحن فى الثانوى ، يحب أن يقف على «قمة» المبنى الأول فى المدرسة، على حافة حوض الزهور المخضوضر اليانع، وحده،

شعره الأشقر يتوهج فى الشمس ، مغمورا فى تأمل ينفى عنه كل شىء خارجى .

وكان أبرز رسامى «الجمعية الفنية» وأوضحهم موهبة ومقدرة ، رسومه عندئذ - والآن - مشرقة ، مضيئة من الداخل ولها منطق حساسية خاصة لا شأن له بمنطق الخارج ، بينما كنت فى حصة الرسم أكوم الألوان الكثيفة المضطربة على ورقتى البيضاء ، وأخلط الخطوط، وأضيع نسب المنظور وغير المنظور .

لليوميات بقية .

الثانية عشرة ليلة ٣ أبريل ١٩٤١

كتبت قطعة أخرى .. أو صورة أدبية .. أسميتها «حلم ليلة» .. فإلى أين سوف تسوقنى الأحلام .. إلى أين ؟ .. إن لى حنينا ، طاغيا، إلى .. عينين ساحرتين .. ألا ويح قلبى ، إن بى حنينا .. إننى أحلم ..

الحادية عشرة مساء يوم ٤ أبريل ١٩٤١

قضيت الصباح فى المدرسة متنقلا بين أنحاء المعرض ، وبعد الظهر فى الخارج متنقلا بين أنحاء الشوارع والطرقات ، ولقد أخلف جورج ، لعنه الله ، ميعادا ضربه لى وتركنى أحرق الارم (يعنى إيه ؟) حوالى ساعة على جمر الانتظار العقيم ... ولكنى لست فى قابلية للاكثار من الكتابة فقد كتبت أربع صفحات خطابا لسمير ، تعس أيها القلم.

الحادية عشرة مساء ٥ أبريل ١٩٤١

أذكر بالامس.. فقد ضللت طريقى بين آلاف من المخلوقات البشرية

تنصب انصبابا من أبواب ملعب البلدية .. دارت عيناى بين هذه السيول الانسانية الهادرة المتدفقة .. التى تطن وتصخب .. همسات .. ضحكات .. أحاديث .. كلها تتجمع لكى تتصاعد فى لجة واحدة من الضوضاء التى تترك المرء حيران بل مرتاعا .. ثم عدت إلى المنزل وفى رأسى حطام من شتى الأفكار وفى عينى بقية من نظرة ساهمة محملقة .. وفى قلبى .. ثقل وحزن وشبه انقباض .. هذه هى الحياة .. تلفظ الملايين من أبواب القدر .. لتتركهم فى سحب من الضوضاء والضجيج .. والسخف والحيرة والضلال .. قد نجد هنا أو هناك فى وسط هذا الغمار .. شيئاً يتمثل فيه الجمال .. زهرة .. لمحة .. عبيرا متصاعدا .. ولكن سرعان ما يطغى عليه الموج الهادر .. ثم يتفرق هنا وهناك زبدا متطايرا تذروه الرياح وقطرات متساقطة.. تبتلعها الرمال

قضيت الصباح أيضاً بين رحاب المعرض .. وقد قابلت وفيق .. فمرحنا .. وعبثنا .. وضحكنا .. حقا أننى لأحاول بذلك أن أخفى رغبة فى البكاء ... تماما كما قال وفيق .. وضاع منا جورج .. بعد أن نالته نظرة مسمومة من .. ولكنه اختفى فجأة .. كما يفعل الفلاسفة «اللى بصحيح ... !!»

حقا كم هناك فى الحياة شوائب كدرة تعكر بعض صفوها ، وتلقى ظلها الأسود المعتم المقبض على أشعة نورها .. فى المعرض صورة رسمها سامى تمثل الربيع ، وهى حقا بديعة .. فتاة تتأمل باقة من أزهار .. على وجهها مسحة من «روح الربيع» .. خفة ، سموّ ، جمال نقىّ صاف .. نضارة .. شباب متجدد يكاد يعبق عطره .. أليس هذا

هو الربيع ؟ .. وفى عينها نُضْرة عميقة عمق الحياة ، متأملة ، راضية، ساهمة، فيها عجب وفيها طرافة، وفيها سحر آخذ بالألباب .

لست أدرى .. من وضع أمام هذه الصورة .. مخلوقا لا يستحق هذا اللقب .. يدعى انه فنان .. ولست أدرى أيضا بأى حق تحت السماوات كان يشرح فكرة الصور المعروضة .. أقسم لو أن راسميها سمعوه لمزقوا شعورهم وملابسهم .. بعد أن يمزقوا صورهم .. !! وهكذا .. عكر هذا السمج تلك الهالة القدسيّة التى تنبعث من الفن ..

ان بى ظمأ شديدا .. يلهب شفتى .. ويرمى بالجمر فى عينى . ظمأ قاتل .. إلى كل شىء .. إلى الجمال .. إلى العلم .. إلى المعرفة .. إلى .. إلى .. إلى كل شىء .. اننى أريد أن ألتهم .. اننى كالنار .. أريد وقودا دائماً .. وإلا احترقت .. وهأنذا أحترق شيئاً فشيئاً .. اننى أستمد من أعماق نفسى صورا وأحلاماً وأخيلة .. أستخرج من ظلامها .. ووحشتها .. أنسا .. وأستعيض بما أخلقه عما حولى .. اننى أخلو إلى نفسى .. وفيها عوالم بأكملها .. مليئة بالأنوار والظلال .. والعطور والأغنيات .. واللمسات والصيحات .. والكائنات الحية العجيبة .. والأشياء الخفية الرائعة .. والأشباح .. والشياطين .. والملائكة .. والأشواك والزهور .. اننى أحب الصمت دائماً .. لأخلو إلى هذه العوالم الخفية .. بعيدا .. بعيدا ... عن الناس .. ولكن عندما أضيق بها .. على سعتها أنصرف إلى العبث وإلى الجنون .. ان الله وضع فى كل نفس جنانا وفراديس غناء .. ووضع بجانبها جحيما وجهنما حمراء !! .. وهأنذا أتخبط بينهما ..

حائراً ضالا .. أريد أن أنطلق إلى الوجود الأكبر الفسيح .. وفى نفسى وجود آخر واسع غريب مظلم .. من لى بيد رحيمة منيرة .. تقودنى فى غمار ظلامه .

الحادية عشرة مساء ٦ أبريل ١٩٤١

قرأت اليوم «جان دارك» لجورج برناردشو، مسرحية من الأسس التى وطدت عليها شهرته ودعم خلوده .. فهو من غير شك فى صف العباقرة الذين يفرضون على الزمان وجودهم فرضا .. وما أظنه كان يغلو حين قال متهكما، أو جادا، حينما دعى إلى الاذاعة عن شكسبير إنه وحده الثانى بعد شكسبير ..

قرأت كتابا.. وشممت وردة.. ورأيت أناسا.. وأكلت جبنا!!! ها ها ها!!

(وللرسائل، فيما أظن، دور فى هذه الكتابة أيضاً)

«حضرة الفاضل .. افندى ...

منزل الحاج بدوى أبو الخير ، الرحباية ، شبرا ، دمنهور

والظرف عليه طابع فاروق شابا مونقا بالطربوش ، باللون الأخضر الفاتح ، ستة مليمات

عزيزى

انقطعت أخبارك عنى مدة طويلة فترانى لا أعرف لك مستقرا بالذات ولكنى أرجو ألا أكون قد حدت عن الصواب وأنا أكتب لك الآن .

لقد كان بالأمس (السبت) الكشف الطبى لطلبة كليتك وطلبة الطب، ولم يشاهدك أحد هناك ، فقلقت للأمر وخشيت جهلك للأمر .

باكر (الاثنين) يأتى دورنا فى الكشف الطبى فأرجو أن أعرف منك ما أنت فاعل وعسى أن تحضر بنفسك حتى تتمكن من دخول ملحق الكشف الطبى .

أرجو أن تهتم بالمسألة جدا وانى لمنتظرك .

سامى

٤- حارة أبو المجد - محرم بك

(من غير تأريخ ولكنه فى ١٩٤٢ بالتأكيد)

(فهل كان هذا الخطاب قبل ، أم بعد خطاب والده)

الاسكندرية - حارة أبو المجد ٤ (الرصافة)

محرم بك

١٩٤٢/٧/٢٣

ولدى العزيز

بعد التحية والاحترام رجانى ولدى سامى أن أكتب إليك هذا ردا على كتابك اليه - وبالطبع يسوءك معنا أن تعلم بمرضه فقد أصيب بالتفويد من أوائل الشهر الحالى فعولج بالبيت نحو عشرة أيام وعندما بدأ دور النقاهة وهو أخطر الأدوار أرسلته إلى هناك وهو الآن نزيل مستشفى الأمراض المعدية من نحو عشرين يوما على أن هذا الدور الأخير قد مر على ما نحب جميعا وهو الآن تحت الرقابة الشديدة خوفا من المضاعفات وهى خطيرة - على أن العاديين يظنوا أنه شفى وقد يكون ذلك حقا من بعض النواحى .

هذا مجمل الحالة شرحتها لك كأخ يهمه الاستفسار عن حال أخيه

وأرجو أن أكون بهذا قد قمت بالواجب .

انى يا ولدى ختاما أقدم لك تحياتنا وشكرنا ودمت لوالدك

محمود محمد على

والظرف ، هذه المرة ، لحضرة الشاب الأديب .. افندى .. المحترم ، وعليه طابعان لونهما الآن وردى باهت ، كل منهما بثلاثة مليمات وبنفس صورة فاروق الفتى ، وأختام البريد المستديرة الكبيرة واضحة التاريخ ، بالحروف الانجليزية P 730 42 JL 23 أما خطابى إلى وفيق فقد كان مؤرخا ، من الداخل ، ١٩٤٢/٧/١٦ .

عزيزى وفيق

كنت قد وعدت سامى أن أقابله فى يوم الخميس الذى يتلو الخميس الذى يتلو «خميس العهد» (وخميس العهد هنا هو الخميس الأخير الذى قضيته معك) .

ولعلك تذكر أنك قلت لى «حتى ميعاده ميعاد فلسفى» .

وأخيراً جاء الخميس الموعود .. وعلى رغم أنه لم يكن لدى ما يشغلنى فاننى لم أرد أو لم أستطع أن أذهب .. لماذا ؟ .. لست أدرى .. كل ما أعرف أننى لم أستطع أن أجعل قدمى تطيعاننى فأذهب إليه .. وهكذا أخلفت الميعاد .. وأشعر بشىء من الحزن .. والكآبة ..

وفى يوم السبت التالى .. ذهبت أروح عن نفسى بالمشى على الكورنيش .. تعرف المثل القديم «اللى يخاف من عفريت يطلع له» وهكذا «طلع لى» .. مع الفرق طبعا ، فليس سامى عفريتا ولست خائفا منه بل كما تعرف أحبه ..

ووجدته يمشى مع عبده افندى ميخائيل حوالى الساعة السابعة والنصف .. وقد قضينا ساعة فى حديث عادى .. واعتذرت له اعتذاراً له نصيب من الصحة قلت اننى كنت مشغولا باعداد المعدات للسفر إلى دمنهور ..

وبعد نصف ساعة .. اعتذر عبده افندى بالتعب .. ثم انسحب . ومن الساعة الثامنة .. إلى الساعة الحادية عشرة والنصف .. كنا نتكلم .. أو على الأصح كان هو يتكلم .. وكنت أصغى .. لم أدر ماذا حدث له ولى .. فقط كان يتكلم بحماس واخلاص وبراعة وروعة .. والواقع اننى كنت أصغى إلى حديث رائع نادر مشوق .. وأخذنا نسير تحت ضوء القمر الطاغى .. وجلسنا على العشب الأخضر أمام بناء محطة مصر .. وصمتنا قليلا ..

وفى السكون .. سكون الساعة الحادية عشرة ، جاء صوت كروان ساحر.. وانطلق سامى بعد ذلك يتكلم، ويتكلم، فى انشودة ساحرة ..

فيم كنا نتكلم ؟ انت تعرف .. فلسفة وأدب .. وفن .. الخ . كان يتكلم عن الفن .. والفنان .. بالنسبة للحياة .. وعن «الفكرة الإنسانية» وعن «السبب الكافى» وعن فكرة اللامتناهى ، وعن غائية الفن ، وتصوف الفلسفة ، والانتشاء الصوفى ، والصمت الروحى ، وعن اعتدال أرسطو .. والأدب الروسى ، والسيريالزم والاجتماع ، وعن إدراك الغاية ، وعن فلسفة الحقيقة .

وقد أجد الوقت الكافى للكلام عن كل ذلك فى خطاب قادم لك .

إلى هنا كان الأمر عاديا، فكثيرا ما كان يكلمنى عن مثل ذاك ..

اما أن يتركنى فى الساعة الثانية عشرة ، لكى يعدنى باللقاء فى الساعة الثامنة صباحا .. ففى ذلك بعض الغرابة ، أليس كذلك ؟

قابلته فعلا فى الساعة التاسعة صباح الأحد ، وكنت معتزما السفر إلى دمنهور فى الساعة الواحدة ..

وبين التاسعة والثانية عشرة ، حدث الشىء الغريب .

أخذ يتم بعض حديث الليلة الماضية ، فتكلم عن خصائص الفن .. وعن مزيفى الفن، وعن فن طاغور، وعن فكرة أرسطو عن المقولات، وعن كتاب لاسماعيل أدهم «لماذا أنا ملحد؟» .

ثم أخذ يتكلم عن الأدب المصرى ، وعن التعبير عن الروح المصرى .. وأخذت بعض الكلمات تتجمع وتنير فى ذهنى .

شرع يتحدث عن أمانيه فى الأدب المصرى ، ورجائه أن يظهر أدب مصرى حق ، يعبر ببساطة وصراحة وصدق عن الروح المصرى الذى لم يجد أديبا واحدا يعبر عنه ، كما عبر طاغورعن الروح الهندى، وكما عبر أدب الفراعنة عن روح الفراعنة ..

قال أنه يأمل أن أكتب شيئاً عن الروح المصرى .. أدبا انسانيا وعالميا .

وقال لى «هل تعرف أننى أتصور أن فيك كل العناصر ، وكل الخصائص التى تتيح لك ذلك ؟ لك أيضاً تذوق عظيم لنشيد الانشاد، وهو الأدب البسيط الصريح» .

هكذا قال .

كنت أتصور أننى لم أجد فى حياتى كلها إلا صفير الرياح بين السحب

السُحُب المتجهمة ثم هاهوذا صديقى يقارننى بطاغور ، ولو على سبيل التمنى .

الانسان الوحيد الذى قال لى هذا ، هو الانسان الوحيد الذى لم أكن أنتظر منه شيئاً من مثل هذا ، على الإطلاق .

بهت بالطبع .. ودهشت .. بل - بكل بساطة - صعقت ..وصمت صمت القبور .. بينما أخذ هو يشرح ويتكلم ، ويتكلم ويشرح .

وأنا صامت ساكن ، أمشى بجواره ، مشيا آلياً .

ضاق صدره أخيراً فصاح بى : ايه .. ما رأيك ؟

قلت : بديع .

قلتها مكورة مختلطة متحشرجة .. اختلطت فيها الباء بالعين .. ولم يستغرق نطقها ربع ثانية .. ولم أثن بكلمة واحدة بعد ذلك ، لكنه قال ، كأنه لم يلحظ شيئاً : «أليس كذلك بديع جدا» .. قالها بحرارة وإخلاص ، دهشت لهما ، وعاد يتكلم ويشرح ، ويتكلم ، وعدت أصمت .

لم يكتف .. بل قال لى إنه يهمه أن أكتب له ، وأعطانى عنوانه. وأعطانى كتاب «جمهورية افلاطون» .

وفعلا سافرت .. مثقل القلب ، لست أدرى لماذا .. وكتبت له منذ أيام .. ولم يرد على بعد ..

الآن ما رأيك فى هذا .. ألست تجدها صدمة ؟ .. حسنا ، هكذا حدث ، وان كنت لا أعرف لماذا حدث .. أحقا يجد فىّ ، فىّ أنا ، بعض أو كل الخصائص التى تكفى لكتابة أدب مصرى حقا ، انساني حقا ، أيجد فىّ مثل هذا الجوهر ؟

لست أدرى .. لقد كنت معتزما قبل أن يحدث هذا ، أن أكتب رواية «ضخمة» أجعل الريف مسرحها ، ولست أدرى كيف علم بهذا ، على رغم أننى لم أحدثه بحرف عنها ، ولم أحدث أحدا بحرف ، عنها . لكنه لم يتكلم إلا على الريف المصرى ، وعن «نفسية» الريف المصرى، فهو يعتبر أدب تيمور ، أدبا صناعيا ، وأدب محمود كامل أدبا بورجوازيا أى أنه أدب العامة أو الطبقات الوسطى العادية ، وتوفيق الحكيم له أدب لا شخصية له .. أدب لا نكهة له .. أدب يستطيع أن يغير من أسماء أبطاله فيصبح أدبا فرنسيا مثلا أو انجليزيا أو ألمانيا ، لأنه ليس هناك الروح المصرى .. ومذكرات نائب «رواية مائعة» .. أما عودة الروح فهو لم يقرأها ..

ولكن أنا - أنا - فىّ كل العناصر الكافية لانتاج أدب مصرى إنسانى ..يا للسخرية ...!!

لست أدرى - ولا أهتم - إن كانت الأيام ستحقق أمنية الفيلسوف .. إلا أننى سأقضى حياتى عنكبوتا ينسج فى الظلام ، نعم لست أدرى ولا أهتم ، لأننى سأحيا .. وسأموت ، ثم أذهب زبدا باطلا ... قبض الريح ولن يهمنى إذ ذاك ما صنعت .. وما نسجت ..

(وبعد خمسين عاماً - أكثر - كتبت «حجارة بوبيللو»، هل حدث ما تمناه سامى ؟)

عزيزى المحبوب

لقد طال حديثى وطال جدا .. كما طال تأخرى.. فأرجو المعذرة عن الحالين ...

نحن الأدباء المساكين مسرفون فى كل شىء.. متطرفون فى كل شىء..

فقط أرجو أن تتطرف وتتطرف .. فى الإسراع بخطابك .. وفى اطالة الخطاب إلى الحد الأقصى .. وما وراء الحد الأقصى .. نعم أنا فى حاجة شديدة ملحة إلى مثل هذا الخطاب .. لأننى منذ أن نزلت دمنهور يوم الأحد الماضى إلى الآن .. لم أجد إنسانا واحدا أكلمه .. بل قل .. لم أتكلم على الإطلاق .. اللهم إلا الألفاظ الباردة العادية التى تسقط من الفم سقوطا كلما جاءت الظروف ..

فقط .. قرأت .. وقرأت .. حتى سئمت حتى القراءة ...

عزيزى وفيق

أرجو أن تكون فى خير حال يمكن أن تكون فيه .. وأرجو أن تكون قد رجعت إلى صوابك .. وأن تتكلم كما يتكلم العقلاء إذا شاء «الرب القدير» .. وهأنذا منتظر من الآن ردك الحافل الطويل السريع .. وأرجو فقط أن تنتقم منى لهذا الخطاب الذى طال ، وطال جدا .

والعجيب أنه لدى الكثير جدا مما أود أن أفضى لك به .. ولكن اطمئن فاننى لست مستغنيا عنك ... أو مفرطا فيك حتى أفعل شيئا من هذا القبيل .

وأخيراً .. تحيات وأشواق المخلص .

١٩٤٢/٧/١٦

«العنوان كما هو .. واحترس من علامة التعجب اياها ...»

تجىء الرسائل تترى ، تنهمر على من الزمن ، ألها زمن ؟

بعد ثلاثة أيام فقط ، كان هذا الخطاب يكتب إلىّ :

عزيزى .. أفندى تحية وبعد ،

يؤسفنى وقد كلفت الرد على خطابك ، أن أتأخر كل هذا الزمن ، الأمر الذى لم أكن أريد ، ولكن أرادنى عليه الكسل ، أما لماذا تتسلم خطاباً من قدال وقد كنت تنتظره من سامى ، فهذه مفاجأة ، أتركها لأخر الخطاب ، والآن وقد كلفنى سامى الرد عليك فاننى أجد من حقى القانونى أن أرد بما يعن لى ، لابما قد يعن له ، ولكما أن تعتقدا ما تريدان اعتقاده ، بل وأن تفعلا بعد ذلك ما تريدان فعله .

عزيزى ...

كلمتان على خطابك ، لك أن تقرأهما أولا ، ولكنى متيقن أنك لابد ستقرؤهما ، وان كنت قد زعمت نفسك صموتا صموتا فلست يا عزيزى عييّ اللسان ، ولعله خطأ أو صواب ، لست أدرى ، من المقادير ، أن توقع خطابك بين يدى ، بل وأن تمنحنى حق الرد عليك ، أنا الذى عرفتنى مجادلا منافحا طويل اللسان كثير الصياح محبا للكلام والجدال ، أنا الذى عرفتنى معارضا أينما كنت ، وحيثما اتجهت ، ولأى فرد أردت ، وأن تضعنى أمامك يا من تصف نفسك بالصمت والعى والبعد عن الكلام ، وتزعم نفسك مريضا بشلل اللسان ، فيا لها من فرصة أتيحت لبرجين مختلفين مفترقين متباعدين فى السماء، كى يضيئا كل بطريقته فتتقابل الأشعة ، فينطمس كلاهما أو يقوى أحدهما فيأسر الآخر أو يتعاونا معا فيضيئا العالمين .

ولعل أول ما يلاحظ طول خطابك المملّ ، لا إلى فرد عرف بالنضال كشخصى الضعيف بل إلى فرد كسامى، وأن تلجأ، وهذه زلة أخرى، إلى سعة صدره ، بعد أن أوسعته حديثا ، وكلّت كلاما طويلا غثا ،

فسامى كما قد فاتك أن تدرك لم نعرفه فى أية لحظة من لحظات الحياة التى عشناها معا ، واسع الصدر رحبه بل ضيقه متبرما ، ولم نعرفه صبورا ضابطا لنفسه بل عرفناه ثائرا ضجرا ، هذا إلى أن جل حديثك كان عن آلامك الشخصية ، والمحن التى تمر بها فى قبرك بدمنهور، ذلك الذى يؤكد أنانيتك التى اعترفت ببعضها فى الخطاب. إن الفرد منا ، ليطوى جناحيه على ما هو فيه ، وليتحمل آلامه ومشاقه ، وليظهر البسمة والسرور اللذين خلا منهما قلبه ، إذا ما قابل فردا مثله وصديقا له ، حتى لا ينتقل الألم اليه ، ولعل الألم ليس شقاء وظلاما ، ولعله محك النفس واختبارها ، ولعله يا صديقى سعادة عابرة ، انحدرت إليك من روح قدسية ، فطوبى لذلك القلب الذى يتألم، وطوبى له فقد حلت به قبسة من الطهر والنبل والقداسة، فان كنت الذى يتألم يا صديقى ولا أظنك ، فعض على الألم بناجذيك. انه سعادة مشرقة ، لا تمر بكل من حولك إلا فى لحظات طاهرة نبيلة معطرة .

نقطة أخرى ، يا صديقى ، فان تلك الجثث الحية الملطوعة على مقاهى قبر دمنهور ، تريد منا أن نفرد لها عجالة من خطابنا ، فانها لفردية أو بالأحرى أنانية منك ، لا يرضاها لك صديق مثلى ، فانهم عبيد ظروف جعلتهم كذلك ، تماما كظروفك التى جعلتك عييّ اللسان صموتاً كما تزعم ، فدع عنك هذه النظرة الفردية ، والفكرة الذاتية ، وكن انسانا يبحث عن مشقات الغير فيواسيها ، وعن أمراضهم فيداويها ، وكن انسانا من الأناسيّ قبل أن تكون نفسك ، ولا تُحدث مثل سامى بمثل حديثك ، فمثلى يتغاضى عن كلامك ، ولكن سامى

صاحب النظرة الكلية الإنسانية ، لا يغفر لك ذلك ، واعمل على سعادة الانسانية ، فان ذلك طريق الكمال الوجودى ، وسبيل تحقيق انسانيتك، ولن تكون إذا لم تعمل كذلك كاملا .

ولـــم أر فـــى عـــيوب النـــاس عيـــباً

كنقـــص القادريـــن علـــى التمـــام

عزيزى ..

لقد طلبت من سامى أن يتفنن فى املالك ، وهل هو قد اتبع أحسن طريق لذلك ، فرزقك بى ، لكى أملك مللا لا هروب منه ، وأن أفتح دماغك لا أن أغلقه كما تقول .

ولعله من الذوق أن أتمنى لك الخير والعافية فى آخر خطابى ، قبل أن أفاجئك بالمفاجأة التى حدثتك عنها ، فقد ذكرت ألمك لمرض أختك شفاها الله ، فما بالك إذا كنت أنت مريضا ، أو إذا كان من تطلب مواساته من أصدقائك مريضا ، فان سامى يا صديقى مريض ، ولهذا كلفنى بالرد عليك ، وأنا آسف جد الأسف لذلك ، ولأن خطابى جاء شديد اللهجة فظيعا ، ولكن افرض انك تقرأ خطابا من زكى عبد السلام مبارك ، وليس من صديقك المخلص ،

محمـــد عبـد المتعـــال قـــدال

٥٠ شارع القنطرة المتفرع من شارع مسجد حجاج بالاسكندرية

١٩٤٢/٧/١٩

زُرت قدال ، مرات قليلة ، فى شقتهم تلك ، بشارع القنطرة ، على بعد خطوات من المدرسة بالقرب من كنيسة العذراء . هل كنا فى

الثانوى ؟ نعم ، بالتأكيد ، يعنى ، على الأرجح .

هل كانت غرفته - مثلنا جميعا - ضيقة ورثة ، يتزاحم فيها السرير المغطى بغطاء كثيف من الصوف بألوان زرقاء وحمراء وبنية ، ألوان نوبية مأثورة ، ومائدة خشنة ، من قبيل المكتب ، ودولاب الملابس الخشبى بضُلَفه الرمادية تقريبا من القدم والاستعمال ؟ وهل كنت تدخل إلى غرفته من طرقة مبلطة ، طويلة ومعتمة قليلا ، فيها نفثات متلبثة كسول من رائحة طبيخ خاص (هل هو الأكل النوبى الخاص ؟ حريف ، عطن قليلاً علىّ ، وراكد ؟) .

وهل كانت غرفته تطل على منور مربع يعطيها ، من النافذة ، قليلا من الاتساع ، ونوافذ الجيران الداخلية المطلة على المنور نفسه منافذ على عوالم مجهولة لى - هل كان هو على معرفة بها ؟ - ومشوقة ، لأنها خفية ؟ وهل كانت ، فيما أتصور ، لا تختلف كثيراً عن بيوتنا ، متراكبة ، متشابكة ، ناصلة النسيج وكثيفة الحشو معا؟

كان قدال أحياناً يصمت فجأة ، يقطع سيل حديثه المنهمر الفصيح (بالعامية المصرية المثقفة طبعاً) ويرفع رأسه ، بشعره القصير ، الأجعد ، المفلفل ، القوى اللفلفة ، وصفحة وجهه الداكنة ، وعليها الندبات العرضية المتوازية - علامات قبيلته - لون الجلد فيها أفتح قليلا ، وفكه المصمم العنيد .

عمود الأخلاق المكين . كما كنت أقول عنه ، بحب ، وقليل من الغيرة .

وينصت .

الصوت النسائى ، صوت بنت بلد مجربة ومحنكة النبرات ، صوت ملىء بجسمانية تامة ، يسقط من المنور :

- يا عزيزة .. يا عزيـ يـ ... زة .. ! يا بت يا عزيزة إنتِ فين يا بت ؟ ما تِقبىّ بره بقى .. ادى حنا نازلين أهوه ... !

الصوت يحمل الينا كل نسوية الجسم الفتى المغوى .

يقول لى قدال، بسرعة: يا لله بينا. ننزلوا. نشموا الهواء شوية ...

وفى لحظة نحن فى الشارع ، والملاية اللف المطوية بلا عناية حول جسمها تحكم ضمة ردفيها فقط وهما يهتزان بموسيقية على الشكربينة المفتوحة واطئة الكعب تدق أرض الشارع النظيف ، شبه الخاوى ، فى آخر نور العصر . وربوة العباسية الثانوية بنباتها الأخضر «العسول» شامخة وأنيسة .

كنت أحسده قليلا على هذا النوع من الغزل المتستر المفضوح معا . لأننى لم أكن أعرف - عندئذ ، وربما حتى الآن - كيف تكون مثل هذه المراودة الملاغاة التشابك المفتوح دون ارتطام .

وانقطعت بيننا الوسائل بعد ذلك سنين عددا ، حتى عرفت بموته الفاجع اذ صدمه ترام الرمل وهو يعبر الشريط ، كان قد أصيب بالصمم ، ولم يكن يضع سماعة ولم يعرف - فيما أظن - كيف أتاه الموت .

كان الظرف الذى جاءنى ، بعدها بأيام ، مختوما بالانجليزية 24 JL 42 830A ياه .. ! هل أرسله هكذا فى الصباح الباكر ، لحضرة الأخ الأديب ... افندى ...

عزيزى ...

تحية وبعد ،،

إن كان خطابى صدمة بشعة لك فان خطابك كان لى صدمة مشلة مضحكة ، فانه لم يكن منك إلى قدال بل من توفيق الحكيم إلى العقاد (وأظنك قرأت مهاترات الاثنين) .

فقد أتيت بملخص فنى جميل لخطابى ، ثم بدأت ردك «بعزيزى» ، ولم يفتك أن تعرض بى ، فأنا أبلغ درجات الظلام ، سعيت فيه يا عزيزى ، وأرجو أن تظل على اعتقادك هذا «بأنك شخص ضال ينتظر الفجر بعد ليلة طويلة مروعة ، وإذا به يفاجأ بأن يجد نفسه فى منتصف الليل» وانى لأوافقك على أن أكون ليلك المروع الطويل ، وكابوسك المريع ، الذي يأخذ بخناقك حتى يأتيك الفجر ، ان أذن به «من خلق الدنيا فى ستة أيام ثم استراح على العرش» .

يا صديقى .. ان البرجين بدآ يتناطحان ويتلاكمان ، فان تخيلك أننى «أهدر بهذرى الطويل على منبر المدرسة» قد أعاد إلى مخيلتى حقبة جميلة ، مليئة بالنضال ، فاننى يا سيدى لم أكن أعمل لنفسى ، فبعض زملائك وأظنك تعرف من أعنى ، كان فى طريق أقل ما يقال فيها أنها طريق خاطئة ضارة ، أراد أن يقضى على نظام مدرسة ، وأن يملأ بالأفكار الثورية الشريرة عقولا فتية ، وقلوبا طاهرة ، وأظنكم جميعا ، وأنت يا صديقى الأول المبرز ، كنتم تعادونه ولكن لا يجرؤ على مقابلته بالعدوان أحد إلاّ قدال ، كبش الفداء ، بهذره الطويل ، ومهاترته السمجة فى رأيك ، وأظنك سمعت المدرسة تمتلىء بصيحات

السخرية ، ومسرحها يطفح بهتافات الهزء ، إذا ما تقدم للخطابة قدال ، وأظنك - واسأل قلبك لا ذكاءك إلابليسىّ كما قال المغفور له الشيخ عبد الرؤوف - أظنك توافقنى على أن من اجتمعت تلك القلوب الشريرة الثائرة على السخرية به لابد أن يكون خيرا ، وأن من يقف أمام ذلك التيار الفظيع لابد أن يكون شجاعا ، وأظننى تحملت ، حتى فى الفصل ، عداء الطلبة دونك ودون زمرتك ، وماذلك إلا لأنك وهم تخفون الغضب وتحرقون أنفسكم دون ما احساس من أحد ، ولكننى أبِىٌّ «شُكَلَىّ» لا أرضَى بذلك . لست أرضَى بالتواضع ، مادام الحق فيما أقول ، ولست أرضى بوصف ما كنت أقول بالهذر الآن ، وقد كنت توافقنى عليه إذا ما أطل عليك وجه «مجدى نبيل» ، وليس الذنب ذنبى فيما قلت ولكنك ألجأتنى لذلك فأسفا إن أردت على ما قلتَ وقلتُ.

يا صديقى .. من أقوال علماء البلاغة ، ان لكل مقام مقالا ، لذلك كنت أهدر على منبر المدرسة ، ولهذا كتبت لك ذلك الخطاب ، لأنكم جميعا لا تفهمون سوى الشدة ، ولهذا أيضا عارضتك يا صديقى فى خطابك الأول ، فانك كتبت تقص على سامى آلامك ، فما كان قوله ؟ أميط عنه اللثام ، مضطرا ، اضطرنى إلى ذلك لجاجك فلا علىّ .

قال «هذه مقالة صحفية ، ليس لديهم أبدا ناحية انسانية» .

هذا رأيه فى خطابك ، فلا تحدثنى يا صديقى مرة أخرى عن الفرق بين صداقة الاجتماع ، صداقة الضرورة ، وأحس أنك تلوح إلى بها ،

وبين النوع الآخر من الصداقة الروحية ، وبين أن تبوح بآلامك لشخص معين من أصدقاء المجتمع .. أو لشخص آخر ، إذ يجب عليك أن ترى ميول ذلك الصديق الروحى ، فليس لمجرد أنك قد أحسست بصداقة خالصة نحوه ، تغمره بآلامك ، وتصب عليه كل شجونك ، لربما كانت طبيعته مغايرة لهذا ، ولربما كان مسعاك يسىء إليه ، أفتقدم على ذلك ، وقد عرفت ، أم تظل على جدالك يا صديقى ؟

تظن يا صديقى أن المشاركة فى الألم تنطوى على نوع رفيع من السعادة ، أوافقك مبدئياً ، ولذلك حثثتك على أن تغير أفكارك من ناحية الجثث الدمنهورية ، على أن لى اعتراضا يسيرا على ذلك ، وهو .. هل ظنك .. أو ظنى يحتم على غيرنا أن يوافقنا على رأينا ؟ أو هل لإعتقادنا بذلك نصدم بآلامنا كل من يقابلنا حتى نشركه فى ذلك النوع الرفيع من السعادة الذى لا يؤمن به ؟ ثم إذا عرفت أن رأيه مغاير لرأينا أفنظل على اعتقادنا ونتحفه رغم ذلك بالسعادة التى لا يعتقدها ؟ ان كنت مجيبا بنعم فأنا مجيب بلا . ولقد أعجبنى تهربك البديع «ان كل أديب انما يرى الانسانية مركزة أو ممثلة فى شخصه يا صديقى .. لذلك فهو إنما يؤدى وظيفته الانسانية ، تامة كاملة .. حين يتكلم عن نفسه .. وأقصد الكلام الجدير بالأدب» .

ذلك حسن ، ولكن هل تظن خطابك الأول قطعة أدبية ، صدرت عن قلب أديب ؟ إن كنت فأنت واهم . ان خطابك مقالة صحفية ، كما يقول سامى ، وقطعة من اللغو فارغة يكتبها جاهل لا يدرى مناحى نفسه ، كما أقول .

وليس هذا الكلام موجها إليك كما عرفتك ، فأنت أديب ، ولكن إلى كاتب ذلك الخطاب ، محكوماً عليه بما كتب فى ذلك الخطاب .

«أتعتبرنى اذن مخلوقا لا يمت إلى الإنسانية بصلة .. ألست إنسانا ؟ ألست أتألم - إذا فرض حقا - كما يتألم الإنسان ؟ ألست أفكر كما يفكر البشر ؟ ألست أعبر - ولو بضعف - عما يحس به البشر؟» لم أقل أبدا أنك لست بإنسان ، وأظننى فى هذا الخطاب نفسه ، اعترفت بأننى أعتقد من زمن طويل بأنك أديب ، ولكن اسمح لى أن أطبق اسئلتك على قوم قد حكمت أنت عليهم بأنهم جثث حية ، أليسوا مخلوقات تمت إلى الإنسانية بصلة ؟ أليسوا أناساً ؟ أليسوا يتألمون ويفكرون ويعبرون - ولو بضعف - كما يفعل البشر ؟

عزيزى ...

أراك تتخيل الألم قطعة من اللحم الشائخ .. ولست أدرى ، أهو أدب البطون امتد أثره إلى خيالك ، أم هو غلاء الحاجات اليوم له أثره فى ذلك ؟ أم أنك تسخر من قولى «فعض على الألم بناجذيك» فان كنت تسخر كما أظن، فدع عنك هذا، ان خطابك الأول فى يد سامى، اقرؤه عندما أريد ، وقد لاحظت عليه غلطات لغوية ، ولكن لم أحدثك عنها ، لكى لا ينصرف اهتمامنا عن الفكرة والمعنى إلى اللفظ والوسيلة ، فدع عنك هذا وإلا ...

ولعل من مظاهر سخريتك الكامنة فى «أعاميق» فؤادك ، تساؤلك عن كيف تكون انسانيا «فى عرفى» .

إذا كنت لا تريد أن تكون طبيبا يربت على الأكتاف فى الطرق، فكن

اذن كدون كيشوت تهاجم كل من تقابل فى الطرق .

أما سامى فقد شفى تماما وعاد إلى حالته الطبيعية ، ولو أنه لازال فى المستشفى ، طبقا لقوانين المستشفى التى تقضى عليه بأن يظل فيه بعد الشفاء مدة طويلة تحت المراقبة . وهو يتحرق شوقا إلى الخروج ، فاطمئن يا صديقى ، واكتب إليه إذا أردت ، على أن يكون خطابا انسانيا يستدعى رده ، وإلا ، وهذا تحذيرى ، أهمله. والذنب حينئذ ذنبك .

وأسفى على تأخير الرد ، فقد عرفت كسلى ، وعرفت أيضاً أننى لم أتغير من عهد أن عرفتنى صديقك المخلص الوفى .

محمد عبد المتعال قدال

فى حدة انفعالى الصبيانى بتلقى الخطاب ، أجد عليه تعليقات ، لماذا كتبتها بالانجليزية .. Really ? You'd better go to hell

دخلت ملحق الكشف الطبى، بهت طبيب العيون وهو يكشف علىّ، كما بهت الممارس العام . قال لى طبيب العيون بعد الكشف : يا بنى كيف كنت تسير ، وتقرأ وتكتب ؟

عندما وضعت النظارة على عينى ، وخرجت للشارع ، ومشيت على البحر ، تغير وجه العالم الغائم ، واكتسب حدة وسطوعا لم أكن أعرفها ، أم لعلنى كنت نسيتها تماما .

(الآن يغيم وجه العالم من جديد) .

أما الممارس العام فقد التفت لزميله - كان القوميسيون الطبى شيئاً جاداً عندئذ - وقال له :

- لا ، ليس عنده شيء ، نكتب خطاباً لأهله نطمئنهم ، هذا النحول والقلة ، ليست عن مرض . ربما يحتاج إلى تغذية أحسن . (لم تكن صناعة - وتجارة - الفيتامينات قد راجت ، لم نكن نعرفها) .

كنت قد غامرت - وحدى ، وبحمق كامل ، واندفاع ، ودون أدنى استعداد أو دراسة - بأن أصبح «نباتيا» خالصا ، عن استبشاع (رومانسى بلاشك) للقتل وأكل الذبائح ، ولمدة سنة تقريبا أوشكت أن أهلك، لم يكن عندى أى نوع من التوازن أو التكامل فى نظام الأكل، والمحنة فى البيت كانت ضاربة ، كان أبى وأمى (وبقية الأهل ، على الهامش) على وشك اليأس والجنون ، منى . كنت عنيداً حتى الآخر ، ركبت رأسى حتى الآخر ، وما نفعت عندى ضراعتهم واغراءاتهم وحنانهم أو قسوتهم . عدلت فجأة ، فى عيد القيامة ، عدولا تدريجيا ، حتى نسيت الحكاية كلها .

عندما تخرج سامى فى١٩٤٦ ، وكان الأول فى دفعته ، ورشح لبعثة فى الخارج ، وذهب للقوميسيون الطبى للكشف الروتينى ، اتضح أن عنده درنا فى الرئة . وكان الدرن عندئذ شيئاً مرهوباً .

نشرت «الأهرام» ، فى ٢٩ منه، الاسكندرية لمراسل «الأهرام الخاص:

«أذاعت ادارة كلية الحقوق فى جامعة فاروق الأول نتيجة امتحان الليسانس فى الحقوق ، وهى تلخص فى أن الطلاب الذين تقدموا لهذا الامتحان كانوا ١٠٢ وقد تغيب ستة منهم لأسباب خاصة ، ونجح ستون طالبا فكانت نسبة النجاح ٦٥ فى المائة .

وقد فاز الطالب حسن حسن كيره افندى بمرتبة ممتاز ولذلك نال الجائزة السنوية المقدمة من النائب المحترم محمد محمود جلال للفائز الأول فى امتحان الدور الأول لليسانس وقدرها ١٠ جنيهات .وفاز كل من الطلاب الثلاثة أحمد عبد الله الديب، وابراهيم عوض الله أحمد، وأنور أحمد عبد الرحيم فراج بمرتبة جيد جدا . ونجح ١٨ طالبا بدرجة جيد و ٢٨ طالبا بدرجة مقبول .»

وكان كامل الصاوى ممن تخرجوا بتلك الدرجة فى تلك السنة، معى .

وفى تلك السنة ، وفى ذلك اليوم ، نشرت «الأهرام» أن الطالب النجيب محمد سيد أحمد حصل على البكالوريا القسم الفرنساوى وكان الأول على دفعته بالقطر ، وتلقى والده سعادة سيد أحمد باشا كثيرا من التهانى .

« إجتمعت اللجنة الاستشارية لبعثات الحكومة صباح أمس ، برياسة معالى وزير المعارف ، وقررت ترشيح الأساتذة الآتية اسماؤهم للبعثات التالية :

جامعة فاروق الأول

كلية الآداب : (الجغرافيا البشرية): محمد فاتح عقيل (أصلى) محمد إبراهيم حسن (إحتياطى) ، الفلسفة: مصطفى صفوان أبو الفتح (أصلى) محمد فتحى الشنيطى وزكريا ابراهيم بقطر (احتياطى) ، الاجتماع : مصطفى محمد أحمد حسن الخشاب وعلى أحمد عيسى (أصلى)، التاريخ القديم : لطفى محمود عبد الوهاب .

اللغات السامية : حسين محمدتوفيق ظاظا (أصلى) السيد يعقوب بكر (احتياطى)

علم النفس التجريبى : مصطفى زيور.

هذا وستستأنف اللجنة عملها فى جلستين فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم وفى الساعة السابعة مساء للانتهاء من نظر باقى بعثات جامعة فاروق ومن الترشيح لبعثات جامعة فؤاد الأول .

وتأجلت بعثة سامى سنتين ، قضاها فى العلاج والاستشفاء ، فى حلوان ، والاسكندرية ، وبدلا من أن يذهب إلى إنجلترا لدراسة تاريخ العلوم (سافر الاحتياطى صديقنا عبد الحميد صبره الذى أصبح اليوم علما وثقة لا يضارع فى تاريخ العلوم عند العرب) سافر سامى فى ١٩٤٨ إلى فرنسا ، لدراسة الفلسفة فى «الايكول نورمال» ، ومنها إلى علم النفس التحليلى .

هل بذلك تغير مصير رحلته العقلية والروحية ؟ أم أنها فى الجوهر لم يكن يمكن أن تتغير ..

٥ شارع أحمد دقله - محرم بك

الاسكندرية فى ٣٠ أكتوبر ١٩٤٧

عزيزى ..

غادرت لتوى المستشفى ، وكنت آمل فى لقياك أثناء اقامتى بها ولعل لاتعرف انى فى حاجة إلى كتب أترجمها كما اتفقنا من قبل . وأحب أن أعرف ما قمت به فى هذا الصدد. ولست ألح عليك، ولكنى

أحب أن أراك على أية حال . وصحتى لا تسمح لى بمغادرة المنزل، لذلك تجدنى فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل (أو ما بعد الليل !) . وبهذه المناسبة أنبهك إلى أنى غيرت منزلى وأنا الآن أسكن عند أختى وليس يصعب عيك أن تجد المنزل إذا عرفت أن الشارع فى مقابل مخزن الترام فى بداية (أو نهاية) محرم بك .

وانى أتوقع أن أراك قريبا .. فالى اللقاء .

سامـــى

لماذا فى ذاكرتى، مع ذلك، اننى زرت سامى فى مستشفاه بحلوان؟ وأنا أعرف أن ذلك لم يحدث ؟ أننى رأيته فى حديقة المصحة - رملية ، فيها مساحات خضرة قليلة - جفاف هواء حلوان عندئذ ونقاؤه يملأ الروح ، وهو مستلق على كرسى من القش فى الشمس ، شمس الربيع ، ملتف بروب دى شامبر خفيف ، النور يتخلل شعره ، وعيناه العميقتان قد غاصتا قليلا فى محجريه ، وأنه كان قليل الكلام ، على غير عادته ، الكلام مجهد فى مثل حالته ، وكان الآخرون متناثرين فى الحديقة . كان مبنى المصحة على الطراز الكلاسيكى الجديد ، بأحجاره الكبيرة المتينة ، نوافذه طويلة باهتة الزرقة قوية ، وأبوابه الخارجية لها عقود نصف دائرية ؟

مازالت فى داخلى أثارة حس بالاثم لاننى لم أستطع - أو لم أقرر - أن أزوره فى المستشفى فى حلوان . هل كان فى مصحة ، حقا ، أم كان فى بيت ؟ بيت من ؟

لكننا كنا قد تخرجنا وكنت عاطلا لم أجد عملا وكنت غارقا إلى

أنفى فى خضم الحركة الثورية ، لا أكاد أفرغ إلى شىء آخر .
وكلها تعلات ، طبعا .
١٣ شارع نوبار باشا - شقة رقم ٢٢
حلوان فى ١٩ يناير ١٩٤٨
عزيزى ...

علمت أن جريدة الاساس محتاجة إلى من يترجم لها الأنباء الخارجية ففكرت فيك وفاتحت شرف فى الموضوع فأبدى استعداده لتقديمك إلى رئيس التحرير . لذلك سامنى ألا أجدك فى الساعة والمكان اللذين حددناهما من قبل . فلعلنا كنا فرغنا من هذه المهمة أمس. ولكن ما علينا! فلعل أمرا عاقك عن المجىء أم تراك نسيت؟ يحسن أن تفكر فى الحضور فى أقرب فرصة تعرض لك وأحطنى علما بما يستقر عليه رأيك وكيف نلتقى . ولست أقول أن المسألة مضمونة (ومن يستطيع قولها ؟) ولكن لا مفر من المحاولة والمركز يفتح أمامك طرقا طالما فكرت فى طرقها . والمرتب ١٥ جنيها وهو كما ترى ليس فخما . ثم هناك صعوبة اقامتك بالقاهرة . ولكنى أعتقد أنها كلها صعوبات سرعان ما تزول. فأرجو أن تتدبر الأمر وتكتب إلى بما تعتزم.

أما أنا فأقضى النهار مغمورا فى شمس الربيع . غير أن الربيع قد زال على الأرجح وها نحن نصطلى بلهيب الصيف . وأذرع النهار الضيق وأنا أقرأ أو أرسم . ومن حين لآخر أتحدث إلى صديق . وصحتى أحسن حالا ، غير أنى أرجىء التفكير فى المستقبل إلى حينه.ولك منى خالص تحيتى وودى

سامـــى

أما منزل شارع أحمد دقله فى آخر محرم بك فقد كنت - على رغم الحركة الثورية وما فيها من غمار الاضطرابات - أتردد عليه ، وخاصة بالليل ، أذكر الأباجورة ذات الضوء الرقيق ،ودفء الغرفة وحميميتها ، وهدوءها الليلى ، سامى هنا على فوتيى منجد ، والروب دى شامبر فى الشتاء ليس من النوع الخفيف ، والحديث متصل وصافٍ عن الأدب المصرى - والعالمى - وعن محنة أهل الريف وعن الروح المصرى الذى لا يُسحق ولا يموت ، وتفصيلات طويلة وحماسية منى عن دقائق تاريخ الثورة البلشفية ، والخلافات بين ستالين وبخارين وتروتسكى وانتحار مایاكوفسكى ومحاكمات موسكو ١٩٣٦ ، وكان يصغى إلى بذوق ، وأدب ، وصداقة ، ومن غير أدنى اقتناع أو تورط .

ها قد طوفت فى الأرض وفى الزمن ، وكتبت قليلا ، ولم أضع قط روايتى «الضخمة» عن الريف المصرى ، وان كنت قد تلمست أحجار أپوللو ، ولم ينطفىء ظمأى قط إلى تلك البلدة - ذلك الموقع كأنه فى داخلى - وليس فى الزمن ، هل هو جرن من الطين نشعت فيه البركة أيام الفيضان وترقرقت مياهه الخصيبة، منبثقة من الأرض، وحولها بيوت الفلاحين ، بالليل لا ينيرها إلا القمر وأنوار مهتزة مخايلة من مصابيح الجاز التى كنا نسميها «الشيخ على» ، والجامع غير بعيد ، والكنيسة العتيقة غير بعيد ، وجسر النيل عال والجنية لم تطلع لى قط على الرأس الحجرىّ الداخل فى المياه ؟ أم هو ميدان دائرى - أمام كركون غيط العنب ؟ - محطة ترام ملونة مرسومة على

علبة الخياطة القديمة التى كانت عند أمى ؟ البيوت تطاولها وتظللها أشجار التوت والكافور والجميز الوارفة مبسوطة الأكتان وكثيفة الورق، أو هى بوابير الطحين ، ومخازن القطن ، مكسوّة سقوفها بالقرميد الأحمر ، وكأن البحر يضرب سور الكورنيش بأمواجه الشتوية ، ويغمر أحجاره البيضاء ، يطس أرض الرصيف على المينا الشرقية ؟ أم هى بوابات ضخمة فى حيطان سامقة فى الصعيد ، عالية ومبنية بالطوب النىء الرمادى المتين ، كأنها قائمة من غير زمن ، ليس فيها نوافذ ، العيش «الشمشى» يصوح تحت الشمس الموقدة على السطوح ، ولكن فى المنضرة ، تحت ، طراوة منعشة ، وأصداء ترانيم خفية ، وعبق بخور قديم ؟

فى هذا الموقع مازال حيّاً أوزيرسيدنا الحسين حتحور مار جرجس والسيدة زينب ستنا دميانة ، لم يمسهم عنف الظلام ولا دوى قنابل الديناميت والكلام ، ليسوا أطيافاً بل هم معى ، الآن ، هنا ، أهل البيت ، ما أبعدهم فيما يبدو ، أيضاً . لا ، ليسوا بعيدين .

فى ذلك الموقع الذى لا نوافذ له سعة لا حدود لها .

كيف أصل إليه ؟

لا أعرف .

فكيف لى أن أعرف ؟

لماذا ينبغى لى - ينبغى بحرقة - أن يكون فىّ ملء المعرفة ؟

٣- مراسى الأوهام

السلالم معتمة فى الشتاء
والمعنى اللا محدود إبريقٌ زجاجه مشروخ .
هل هو مملوء بالماء أم ينز بدمى ؟
ايروس انظر إلىّ .
هل ضربنى الفساد ؟
العناقيد الحجرية مدلاة من حديد الشرفة ،
والرخام دفىء .
الساقية الخشبية مغروزة فى الطين ،
لا أستطيع تسلقها .
البنت التى أحبها لا تساعدنى .
ثديها ساقط فى حِجْرى ، نهمة .
ولم تقل لى : أحبك .
أسقطُ فى منتصف الطريق ،
فخورا .
شارع الإسكندرانى موحش وخاوٍ بالليل .
مجنون مجنون مجنون ، هكذا قال .
ودوت طلقة رصاص واحدة .
رسَم شبكة عنكبوت مقطوعة .
هل صدقَتْ النبوءة ؟

عزيزى ..

لعلك قد عرفت أين أنا الآن .. وان لم تكن قد عرفت بعد .. فاعلم أننى فى مكان قد لا يخطر لك على بال .. مرسى مطروح .. ذلك المكان الذى اكتسب فى الحرب الأخيرة شهرة تكاد تكون خرافية .. أجل ... اننى فى مرسى مطروح حيث لم أكن أحلم يوما بأننى سأذهب .. وأرى .. وألمس مكانا وآثارا تاريخية .. يتمنى عدد كبير من الناس لو رأى ولمس ...

والواقع أننى أنعم فى هذا المكان بما لم أنعم به مطلقا .. من سعادة ومتعة .. البلاج هنا رائع ... والبحر فريد .. والبلدة من أصلح أمكنة العالم لأن تكون مصيفا .. ومصيفا وحيدا فى نوعه .. الهدوء شامل .. والهواء لا مثيل له .. والبلد على حال لم أكن أتصوره من قبل رغم كل ما سمعت وقرأت عنها .. كنت أتصور أننى سأرى صحراء واسعة .. وبعض الخيام المبعثرة بها .. وشاطئا صخريا أشبه بما نرى فى السينما من الصخور التى تدور عندها رحى الحرب ..

أجل كنت أتصور أننى لن أرى سوى بعض الوجوه العربية .. وبمعنى آخر كنت أتصورها واحة .. وإذا بى أرى مدينة .. ولو أن ثلاثة أرباع مبانيها أنقاض وخرائب من أثر الحرب اللعينة إلا أن الربع الباقى لا يقل عن عدد كبير من المدن الصغيرة التى نراها فى الوجه البحرى .. مبانٍ .. وبعض المقاهى، وسينمات أى والله سينمات، إلا أن أفلامها عربية وقديمة تكاد لا ترى ولا تسمع فيها شيئا .. ولكنها على كل حال أكثر مما كنت أتوقع .. والبلاج .. سأدع ذكره حتى ألقاك .. فما

هناك من وسيلة تكفى للتعبير عما يبعثه فىّ من المتعة ..

ولعل أبدع وسائل التسلية هنا هو التجديف .. والملاحة .. فالأمسيات جميعها أقضيها على سطح الماء .. فى قارب شراعى لثلاثة أفراد .. طلب منى صاحبه أن أدشنه .. فأسميته « Red Shadow » (الطيف الأحمر) أو فى قارب ذى مجدافين لشخصين .. اسمه « هدى » والحق أنى أصبحت ملاحا بارعا .. فى كلا الفنين .. فن الشراع .. وفن التجديف .. أما الصباح فغالبا ما أقضيه فى التحدث مع بعض الأسرى الألمان .. الذين يملأون البلدة .. متمتعين بكامل حريتهم .. وقد حصلت من كثير منهم على معلومات لها قيمتها عن أمور كثيرة كنت أود معرفتها .. وهم على العموم شباب ظرفاء مثقفون ثقافة عالية .. يشتركون جميعا فى السخط على هتلر .. ويكادون يرددون عبارة واحدة هى : I Wish he is dead ..

اقرأ هنا بعض الشىء .. ولكن ليس كثيرا ... فانى أخشى أن آخذ من وقتى هنا ما قد أحتاج إليه فى هذا الظرف غير العادى بالنسبة إلى .. ولعل للقراءة متسعا من الوقت فى الأحوال العادية ..وكذلك الكتابة .. حاولت أن أكتب ما يشبه اليوميات .. أو المذكرات عن هذه الرحلة .. ولكنى أجلت ذلك لحين أجد فراغا من الوقت يكفى لذلك .. أما عن الطبيعة .. فلعل هذه البلدة تتمتع ببعض المناظر Landscapes التى لا توجد فى مكان آخر .

ونسيت أن أحدثك عن الرحلة نفسها .. تسع ساعات كاملة قضيتها فى الطريق .. ولكنها مرت سريعا فيما عدا الساعة الأخيرة

التى تكون فى العادة ساعة الترقب والانتظار .. يسير بك القطار فى صحراء واسعة .. هضبة عن يمينك .. وغيرها عن يسارك .. وفى كل مكان آثار معركة .. وفى كل مكان آثار انسحاب .. وتراجع .. وفى كل مكان أنقاض وخرائب .. وحطامات ..

وعلى العموم المكان يستحق المشاهدة ويستحق الزيارة .. وأنا أعتقد أننى قد اكتسبت الشىء الكثير من هذه الزيارة .. ولعلك تعجب حين تعلم .. اننى استيقظت فى العاشرة صباحا .. وفكرت فى السفر .. ثم رجعت عن الفكرة .. وعدت إليها .. وترددت .. ولبثت حوالى ساعة فى ترددى .. ثم عزمت .. واستعددت للسفر وسافرت فى الساعة الثانية عشرة إلا الثلث من نفس الصباح .. وقد كان لهذه الرحلة .. وهذه المفاجأة طرافتها ..

لعل الاسكندرية بخير .. ولعل الصحاب فى نشاط .. ولى كلمة هى أننى أشعر بشىء من الحرج لموقفى هذا .. ولمغادرتى الاسكندرية وحالنا كذلك .. ولكنها كانت فرصة وكنت أعلم أنها لن تعوض فانتهزتها ..

والســـــلام

حســـــن

طبق الأصل ، بدون تاريخ .

وهل يهم التاريخ ، حقا ؟

هل كان ذلك قبل قصة غرامه بسُمَيّة ، وقبل أن يهيم حسن فى طرقات حبه وطرقات اسكندرية ، وقبل تعلُّق سُمية بصبحى غريمه ،

وقبل أن يقتل منير نفسه ، وتدخل الفاجعة حياتنا ؟ .

اسكندرية . اسكندرية التى أوشكت أن تصبح وهما قد ولى . لكنه وهم راسٍ راسخ ، وصخرى، فى قلب أمواج السنين قائمة الزرقة ، ها نحن نتركك . وهل نستطيع حقا أن نتركك ؟

نقترب من المرسَى . ولكن لا رُسُوَّ هناك ولا قرار .

المراسى هفهافة تلعب بها رياح الخماسين تارة ، ونوات الشتاء المعتم أحياناً .

على هضبة قلوبنا قليلة الارتفاع تخفت دقات الأتوبيس المكتظ المنهك السعيد بالوصول ، وتصمت . نبضات داخلية لها طريق آخر . أما هذا الطريق فيتحدر إلى لا نهائية غير مرئية ولكنها فى متناول أيدينا ، كأنها أعمدة النور والتلغراف الخشبية متعاقبة بلا نهاية وأسلاك تربط بينها ، تتراخى وتتوتر ، فى وحشة . تراكمات استغاثة من رعب جمالٍ لا يحُتمل .

قطعان مفككة من البقر المقدس تجوس بين رمال السماء القاحلة وخضرة ذابلة ، تجتر ، ببطء ، خطايانا .

وبعد سنين ، ستنوح هنا وردة الجزائرية ، مرثية حب مهدر على طعم الكركديه البارد ودقات زهر الطاولة وخشونة كلمات بدوية. معلهش يازهر .

بيوت بدائية غيامات حجرية جحور أظنها دفيئة ، قليلة ومتناثرة بين فجوات الوحشة ، على جانبى هذا الطريق .

حتى تتفتح (كزهرةٍ نائمة) زرقة لا زوردية صامتة الموج ، زبدها الأبيض ناعم.

ورَوْحُ نسمات نقية نقاء فقدان كامل .

على طرف الخليج البعيد تهاويم صخور متوهِّمة لها قوام غير متحقق.

مئذنة الجامع وحيدة ، سامقة وواثقة ، شيء لله يا سيدى العوام .

وبعد سنين ، ستأتى هنا أفواج التتار فى أتوبيساتهم المكيفة ، وسيأوون ، على نفقة نقاباتهم وجمعياتهم ومؤسساتهم ، إلى فنادقهم الجديدة الرثة المتفشية كأورام مهندَسة مستقيمة الحيطان .

محجبات ، من سن الخامسة فصاعدا ، ملففات فى ثياب ضافية ، لأن الوجه عورة والجسم عورة والحياة عورة . وباعة الكوكاكولا والذرة المشوية على الفحم تطقطق وحباتها تتفجر بفرقعات خافتة ، وقفف الجريد وقبعات الخوص العريضة التى لا تباع ، والآيس كريم الملفوف فى ورق لامع ملون ، وملتحون بكروش ناتئة وجلاليب بيضاء قصيرة ، وواجهات المحال المضاءة بقوة تضج بموسيقى مملة الايقاع مرتفعة جدا ، وسوف تعتم الزرقة ويغيم صفاء الحلم اللازوردى ، وطيور المراكب المجنحة - على الرغم - مازالت تحلق وتسف على شطوط الروح المختلجة بالغضب والرغبة .

البحر يغمر غرفة الفندق ويغرق شكواها الخافتة ولا يطامن سقم المعدة ولا تطلعات عقيمة إلى المستحيل المستحيل . تدخل المياه من على النافذة بين ملاءات السرير (غير النظيفة تماما) وتتموج فوق المصباح الصغير المشتعل . أشباح قديمة غير مستريحة ، قتيلات لم يذهبن بعد ، ترود الغرفة المطمورة بالبحر والكوابيس ، وتئن بالليل .

قرص الشمس قرص العجين الحار جاكلين متموجة وشامخة قلعة منسابة الأبراج مرتجة ومتناسقة التلاطم ، عارية الصدر تلقى بالجيشان فى جسومنا وأرواحنا ، باهرة .

دون جوان الشلة الأربعينى ، فتى المظهر ، أنيق حتى أطراف الأنامل ومحكم اللبس على وسط صانه لعب التنس بانتظام من التضخم أو الترهل ، حذاؤه لامع ضيق البوز عالى الكعب قليلا عن حصى الشارع العريض غير المسفلت الذى يفضى إلى البحر ، يتحدث إلى جاكلين بما يبدو أنه همس حار يقرب وجهه الذى بدأت تغزوه تجاعيد خفيفة تظهر الآن فى شمس فاضحة ، دون حاجز ، وليس هناك إلا صخب الوصول ونداءات البنات على احداهن الأخرى والبحث عن الحقائب ومساومة العربجية الصغار على متن الكاريتات التى تجرها حمير فارهة حينا وقميئة مقروحة أحياناً .

لكن ماريز ، كلها حيوية فى هذا الظهر اللاسع الذى تهدىء من حرقته نسمات البحر القريب ، تغنى ، ممشوقة تبدو نحيلة ، ولكنه نحول خداع ، فاللدونة تنعم كل حنايا الجسم القليل ، والصوت الخفيض - إذا ارتفع - فيه بحة فتاة توشك أن تكون امرأة ، أو لعلها خجلة من معرفة حديثة العهد بالجنس وشطح نشواته لكنها تأخذ هذه المعرفة فى طيات حضن مستسر خفى .

روبير يصاحبها فى الغناء ، ويرتجل موسيقاه ، مرح دائما ، ضحوك ، عنده النكتة جاهزة والقفشة جاهزة ، أصله ابن بلد من كرموز وتعلم فى دون بوسكو ، جائع دائما نهم إلى السندويتشات

والمشويات والمخللات والأكل المسبك بلا تفريق ، ونهم أيضا إلى الحمام بالأرز فى الطواجن ، معمول فى الفرن ، وإلى الدجاجات الرشيقات المتخطرات الآن فى الشورت الملون القافز إلى أعلى الفخذين ، غلمته إلى الأكل والشرب والنسوان لا رى لها ، مع أنه يبدو ضامر العود ، هل لأنه محترق من الداخل ؟

كان فيليب ، وعلى رأسه كاسكتة سوداء صغيرة تعطى عظام وجهه المحددة فى الشمس نتوءا وحدةً ، يحمل حقيبة جانين ، يرفع ثقلها بالكاد إلى الكاريتة بينما كانت قد جلست - وهى تضم فستانها الحريرى الواسع إلى ساقيها - على الدكة الصغيرة المنجدة المكسوة بقماش صوف غير مريح الشكل ، كانت جانين يوغسلافية الأصل ، وسلوكها فيه نفحة ريفية محافظة ، أما نادية السمراء الصغيرة فقد وثبت إلى الكاريته بحرية ، دون حرج ، فى بنطلونها الضيق الأحمر الصارخ بلونه وبما يحويه من تدويرات جسمها مضبوط النسب .

وشلبى ، ساكن الطير ، واسع العينين ، داكن البشرة ، يراقب عملية الوصول ، باعتباره مسئولا ، يتحقق من وصول الحقائب كلها ، ويوجه العربجية الصغار إلى الفندق ، وراء مبنى التليفون ، فى الشارع الذى بعد الجامع مباشرة ، على اليمين ، والبنات يزقزقن ويضحكن ويتصايحن بأصواتهن الثاقبة أو الناعمة فى فرحة الوصول وبدء الرحلة ، وإحساسهن بعناية الرجال الكبار فى المجموعة ، ومداعبات الشباب الصغار ، وتحرر الأجسام من حبسة الأوتوبيس الطويلة ومقدرتها على الحركة وتشوقها للانطلاق .

الفندق بالليل - كأنما جوهر الحياة لا يصفو ولا يستقر إلا فى الفنادق وفى الليالى - والشرفة العريضة الواسعة التى لا ترتفع كثيرا عن أرض الحديقة مبلطة ببلاط أسود وأبيض متناوب عليه رمل خفيف. لها سور منخفض ، وقد تناثرنا ، بعد العشاء ، على كراسى القش وعلى حجر السور وعلى مخدات أحضرناها من الغرف وجلسنا عليها، والكوكاكولا والسينالكو على حساب الرحلة . كل واحد أخذ واحدة ؟ فتحى يسأل بالعربية والفرنسية ، وشجر الكازورينا الفارع يصد رياح البحر المتقلب ، غير بعيد ، ولكن الفراغ الرملى الفسيح بينه وبين الفندق ، من غير عوائق ، عبر شارعين غير مخططين وعبر مساحات مسورة غير مبنية ، يؤكد حضورا قويا غير مرئى للبحرالذى يأخذ من النفس حسا بالرهبة .

الحديقة الواسعة أرضها مكسوة بأوراق إبرية دقيقة ملتفة على بعضها بعضا ، جافة ، لها خشخشة تحت أقدامنا ، لماذا نتحدث الآن بصوت خفيض ، وهبات هواء البحر المالح تفاجئنا ثم تنحسر ؟

عتمة الليل مشعة بضوء النجوم وحده ، فتات متسرب من نور مصابيح الشارع التى تغلفها كثافة الشجر

حلمى العنيد لم يتفتح ، راقداً بين ذراعيها ، لا تعرف ، هى ، أنه فى حضنها .

ظلال الشجر ، بعد كم سنة ، تلعب على السور الأصفر فى ليلة صيفية أخرى، ونحن نأكل الزبادى بالعسل الأبيض فى الهواء الطلق، وموسيقى رخو متهالكة تأتينا من القهوة الأخرى المضيئة بلعلعة بذيئة

من الكريات الكهربائية .

التشوقات ، اللهفات ، أطياف النشوة تطؤها حوافر حتحور البقرة الذهبية الصدئة المتسكعة على مهل أمام القهوة ، تخلت من زمان عن عرش ألوهتها .

عندما سقط الكوب الطويل الذى أشرب منه ، تكسر على الرصيف ، لم أجمع شظاياه ، لأننى وجدتها منذورة ، كانت تلمع فى النور المهتز ، زجاج الجسد المصلوب المزق غير ملتئم وإن بدا محكم التعشيق ، لحم حاد الحواف ولكنه محطم السِنان .

الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٥٥ :

« اليوم بعد الظهر لم تُحيِّنى . نظرت إلى نظرة غريبة ، بعيدة ، وللمرة الأولى لم تُحيِّنى ، لا بابتسامة ، ولا بهزة رأس ، كأننى لست هناك .

ها هى ذى بداية النهاية اذن .

ما كنت أنتظره منذ أبد طويل ؟

القطيعة النهائية ؟

لا أعرف .

بل لا أعرف ما إذا كنت أحبها حقا . أعرف فقط أنها وثيقة الارتباط بى ، بحياتى نفسها ، هذا أعرفه ، قريبة بشكل ليس بعده حميمية ولا قربى ، بلا انتزاع ، بلا فرقة .

كم أحبك . بيأس ...

وبعد كل هذه السنين ، أما زال اليأس قائما ؟

هل عرفنا أحدنا الآخر حقا ، بينما كان جسمانا واحداً ، وروحانا غائبين ؟

أهى غيبة النشوة ، أم غيبة التوحد ، أم هى ، فقط ، مجرد غياب ؟

فى «القبر الجميل» فى شهر الحصاد ، فى شارع العاشقة ، بين جسمينا آباد ، بينهما ميادين مكتظة بالناس والسيارات ، مسدودة باختناقات المرور . صحارى خاوية لا عبور لها . فهل روحانا متآلفان ، أو - حتى - متعارفان ؟

كنت أطل ، عند اكتمال العقد ، على منور فيه براميل القمامة الحديدية السوداء .

زجاج النافذة مغبش ، والستارة لا تغطيه تماما . وكان التليفون صامتا لا يجيب، ودموعها قريبة . وعندما جرحت ذقنى أثناء الحلاقة، قالت لى : « ياعينى» .

جسمى كله صرخة شوق إليك . لا تجد - بالطبع - رداً . لأن الصراخ ، كما هو معروف ، لا يجدى ولا معنى له .

فما معنى هذه الدموع الآن ؟ أليست متأخرة قليلا ؟

الأسكندرية فى ٢٣ يوليو ١٩٤٢

عزيزى وفيـــق

اننا نجرى وراء الأوهام، نجرى حتى تنقطع أنفاسنا، وندمى أقدامنا ثم نسقط فى النهاية ، وعلى شفاهنا بسمة ، وفى عيوننا دمعة .

اننا نرمى المتع الرخيصة ، وننفر من الحياة التافهة .. المتع التى يعتبرها كل شخص هى الحقائق .. نرمى كل ذاك .. لنجرى وراء الأوهام ...

ولكن .. من يدرينا أن هذه الأوهام ما هى إلا جوهر الحقائق الثابتة الخالدة .. ألم يقل الكثيرون إن الحياة حلم ؟

والإنسانية نفسها ألا تنقاد لأوهام غريبة مغرقة فى الغرابة .. ألم يعش الاغريق خمسة قرون .. وهم يتغنون بالأولمب وآلهته وصراعاتها وغرامياتها على أنها حقائق ثابتة لا تتزعزع .

ألم يَنْقَد البشر آلاف السنين للأساطير الجميلة أو الرهيبة عن الآلهة والمسوخ والشياطين والنيمفيات والهولات والايرينيات ، وتجسداتهم واستحالاتهم ومؤامراتهم ومكايدهم ، ذكورا واناثا وأنصاف ذكور وإناث و وكيف ساروا فى الأرض وسيروا الصواعق وعذبوا وضربت النسور أكبادهم وطعن الجنود جنوبهم بالرماح وسُقوا السمّ والخلّ والعسل ...

أتلك أوهام أم حقائق ؟ أم أنها شىء فوق الوهم وفوق الحقيقة ؟ شىء لا أعرف كيف أصفه ولا أعرف له كنها ؟ تلك التى يصدقها ملايين البشر ؟

وهذه أحقائق أم أوهام . تلك التى لا يدين بها إلا النفر الغريب ، أوهامنا نحن الذين نقول عن أنفسنا اننا نذرنا أنفسنا للفن ؟

من يدرى ؟ .. ولماذا ندرى ؟ .. أو نحاول أن ندرى ؟ .. ليت شعرى لماذا لا نضرب بكل ذلك عرض الحائط .. وننثنى لنعيش كما

ينبغى .. أصحاء . نأكل ونشرب ونستمتع بالحياة الموفورة ؟

لأننا خلقنا زبدا ، زبدا فى موج البشرية ، زبدا سوف يذهب جفاء، لأن كل شىء باطل ، وقبض الريح ...

فى «المقتطف» أنهم صنعوا منظارا عاكسا من مرآة لست أدرى على التحقيق مدى قطرها .. وأن هذا المنظار الهائل الرائع وسوف يتيح لأعيننا البشرية أن ترى من الكون إلى مدى ٩٠٠ مليون سنة ضوئية (والسنة الضوئية كما لا أحتاج أن أذكرك هى السنة التى يقضيها النور سائرا بسرعة ألف ميل فى الثانية الواحدة) .

هل لك أن تتصور هذا المقدار الذى نراه من الكون ، ليجمد عقلك أو ليتحطم ولتضرب رأسك فى الجدار ماشئت ، لكى تتصور هذا القدر الضئيل الذى يمكن لعيوننا الضئيلة أن تراه من الكون . حكيت هذه القصة لأحد أقربائى ، شخص «عادى» اسمه بقطر ، أنت تعرف طبعا هذا النوع ، ولما انتهيت من روايتى ، حدق فىّ بعيون واسعة فيها بريق شك وعجب ، ثم قال بلهجة مضحكة قليلا : «إيه ؟ ... هم عايزين يشوفوا ربنا ؟ » .

صديقى .. ألسنا بعد كل شىء .. نصنع ضجة كبيرة لا مبرر لها .. ماذا نكون ؟ وماذا تكون البشرية كلها ؟ .. وعلى الأكثر ماذا يكون شخص مثل وفيق بسطوروس أو مثلى فى كون نرى نحن منه فقط ٩٠٠ مليون سنة ضوئية ؟ .. ولا نعرف كم من ملايين أو مليارات السنوات الضوئية لا نراه .

هل تعرف رأى أينشتين : أن الكون ، الكون كله ، أشبه شىء بكرة

محدبة ، يقع فيها مالا عداد له من الأجرام ، من الداخل . أما فى خارجها فلا شىء إلا الفراغ ، بل الفراغ كلمة لا تفى بوصف ما يقع خارج هذه الكرة المحدبة ، والكون دائما يتسع ، يتسع ويكبر. كيف ؟ لا أحد يدرىء أنت لا تستطيع أن تنفخ كرة مثلا إلا إذا كان خارج الكرة حيز فارغ لا جسم فيه ، فكيف اذن يتسع الكون ، دون أن يكون فى الخارج لا فراغ ولا شىء ، لا أثير ، ولا فراغ ، ولا عدم مطلق ؟ .. يقول أينشتين اذ ذاك أن الكون أشبه بقوة عقلية ذهنية .. فهل للقوى العقلية حدود ؟ .. هل يمكن أن تتسع ، وتتسع ، على حساب ماذا ؟ لاشىء .. فليس هناك بالطبع شىء خارج القوى العقلية، لا فراغ ولا عدم .. وهذا لا يمنع اتساعها وتمددها . هكذا الكون كله .. يتسع دائماً وباستمرار..

هذا ما يقول عقل فذ أنتجته البشرية وروجت له الصحف السيارة .. ويؤيده العلماء ، والفلكيون .. فهل لك أن تستنجد يا صديقى بالأبالسة ، وبالجحيم ، لكى تدرك تماماً ما معنى هذه الحروف التى كتبتها لك ، معنى «الكون» الذى هو يشبه قوة عقلية والذي يشبه كرة محدبة ، الكون الذى يتسع على حساب لا شىء ، ذلك الذى له حدود ، وليس له حدود ! هل تذكر الخيام .. انه يقول :

« أتــراهم وقــد تولــت قــرون
أعجزتهــم كــاف وواو ونــون »

أتذكر يا صديقى نوبة عميقة مريرة من نوبات الشك عصفت بى ؟ .. أفضيت إليك بخبرها فى نزهة لنا على رمال الساحل .. بالطبع لا

تذكر ، فهذه الأشياء التافهة كثيرة . يهمنى أن أذكرك بأن سببها كان هذه المسألة : الكاف والواو والنون .

خفت أن أذكر لك ذلك .. لئلا تعتقد اننى أصبت أخيراً بالجنون الحقيقى .. وبالأكثر لأننى لم أكن هضمت المسألة تماما ! ... (وهل يعنى أنا هضمتها الآن ؟)

ما جدوى كل هذا الهراء ؟ لاشك انك تشعر بالصداع ولكن هذا انما هو من بعض مصائب الصداقة وخاصة مع شخص مثلى ..

على أى الأحوال ، معذرة ، فكل شىء باطل .. وقبض الـ ... الخ الخ .

مـع تحيـــات ،

المخلـص

(.....)

(١٩٤٧)

عزيزى ...

بعد التحيات والسلامات ..

حضرت اليوم ولم أسعد برؤيتك .. وقد أسفت جدا لهذا لأنى كنت أريد أن آحدثك في هذا الموضوع بنفسى . ولعله من الأفضل أن تتكرم بالحضور إلى الكلية غدا فى الساعة الثانية عشرة ١٢ إذالم يكن عندك مانع لكى أزيدك ايضاحا .

والمسألة وما فيها أن فى مخازن وزارة المعارف مركز خال وهو سكرتير على ما أظن لإلهام مردلى الرسام أخُ إحسان مردلى وصديق

أحمد صبرى . وهو يعمل مديرا لأحد أقسام هذه المخازن وقبولك فى هذه الوظيفة يتوقف على موافقة اسكندر بك عيسى - أبو مجيدة عيسى .

فأرجو أن تذهب إلى المنطقة (إدارة المنطقة يعنى) وتستطيع أن تجد عنوانها فى دفتر التليفون وتطلب مقابلته - ويجب أن تقابله بأية وسيلة. لأنه لن يردك . خصوصا وأن الهام مردلى سيوافق على قبولك فورا. فأرجو أن تضع بعضاً من الأمل والحمية فى صدرك هذه المرة ، وتذهب لمقابلة أبو اسكندر وستكون النتيجة خيرا كما سترى .

وإذا أردت زيادة فى التأكيد أمكنك رؤية وجهى الصبوح فى الكلية غدا الساعة ١٢ بالتمام والكمال (انظر خلفه)

أنا محتاج لكتاب فرچينيا ولف The 2nd Common Reader فى دراستى فهل يمكن استعارته ؟

وألـــف شكـــر ...

وفيـــق

فهل كانت هذه آخر الرسائل الوفيقية ، فى تلك الأيام ؟

ذهبت حُمَيَّا الرومانتيكية، وخُمَّى البوح الحميم، وهَوَس التأملات، إنثيال العاطفية . ولكن بقى الهمّ - أو الاهتمام - فهل ذهب هذا بضا ؟

ستكون كل خطاباته القليلة ، فيما بعد ذلك من السنين ، مشغولة أمورٍ عملية ، محددة ، كأننا قد استنفدنا رومانتيكية سنوات لأربعينات المبكرة .

ما كنت أظن أننى سأعيش حتى أبلغ العشرين من العمر . هكذا كان الوهم المستحوذ على صباى ، كأنما كان فى هذا التوهم المتملك نوع من التوحد بأبطال رومانتيكيتى الأولى :

شيلى ، كيتس ، بيرون ، وأولئك «الرعاة» الذين يموتون حبا وهم يعزفون على قيثاراتهم على هضاب جبال خيالية وتحت أنظار آلهة خيالية .

ما أن بلغنا العشرين من العمر ، فعلا ، حتى ضربت هذه الرومانتيكية ، على الأقل فى تجليها المراهق الأول، كما هو المعتاد، والمتوقع ، ونضبت الرسائل الحارة بين صبيين تغذوهما وتعذبهما أشباح الموت والحب والفقد والفن .

وضعت فى صدرى شيئا من الحمية ، والعزم ، وذهبت ، وقابلت الهام مردلى ، بالفعل .

أتخوننى الذاكرة أم تصور لى خيالاتى شيئاً أكثر واقعية من أى «واقع» فعلى ، أم أن هذا «ماحدث» فعلا ؟ (ما شأن ما أكتب هنا بما «حدث» فعلا ؟ هل «ماحدث» أكتبه ؟ وما أكتبه «حدث» ؟ ثم ماذا يمكن أن يكون قد «حدث» ؟)

ذهبت اذن إلى «المنطقة» (إدارة منطقة وزارة المعارف العمومية ، أليس كذلك ؟) ولقيت إلهام مَرْدُلى .

لم أكن قد رأيت شيئاً من لوحاته ، وإذا كنت مررت بها فلعلنى لم ألق إليها كبير بال . لم أكن أظن أنه رسام كبير ، أو حتى مهم .

صعدت سلالم رخامية متهدمة فى بيت من البيوت التى تشغلها

الادارات الحكومية بعد أن كانت سكن عز قديم ، حميمة . أخذت حيطانها يتساقط طلاؤها الجميل ، وأخذت أشجارها القليلة تذبل وتجف قليلا ، وخشب الشبابيك الطويل قد بهت لونه ، وفى البيت أطياف ساكنيه القدامى ، أشباح لم تركن إلى راحة بعد . كأن منهم فتاة الروب الأزرق التى لم أعرف اسمها قط ، وكانت تسكن أمام بيتنا فى محرم بيه . وكنت أحبها على البعد - عبر شارع لا عبور منه - (شارع بنى مروان المتفرع من شارع عرفان) - من شرفتنا التى تقابل شرفة بيتهم . لم تكن تخرج إلا خطفا ، تسطع ، جسمها ملفوف فى الزرقة الناعمة الحريرية ، للحظات . أظل أترقبها طويلا ، بالساعات ، وما تكاد تشرق ويمتلىء العالم بها وهجا ، حتى تؤوب إلى الداخل الخفى عنىّ ، البيت المكنون على أسراره ، والحديقة بأشجارها الخلفية ونخيلها الذى لا يلوح لى منه إلا سعَف متكاثف علوى . كان عندى أيامها ثلاثة عشر عاما .

كان إلهام مرَدلى يجلس وراء مكتبه المكدس بالملفات والأوراق فى غير نظام كما يبدو ، وطبعا لها نظام خاص عند صاحبها ، فيما أظن. أم أن لها نظاما ، حقا ؟

وقف من وراء المكتب نصف وقفة ، ومد إلى يدا وجدتها طرية من غير قوة شد ولا حرارة لقاء ، وجلس بسرعة .

كانت الغرفة معتمة قليلا ، هل كان الشباك القديم الطويل مواربا أو مغلقاً ؟ وهل كان المصباح الكهربائى العارى المدلى من السقف يسكب ضوءه الأصفر الشحيح فى النهار ؟ تتخايل لى الآن الملفات

الكثيرة ، مكومة ومكدسة وعليها غبار وأغلفتها رمادية من القدم ، هل كانت ملفوفة ، كل دستة مثلا بدوبارة ؟

كان الهام داكن اللون مستطيل الوجه قليلا ونحيل العود - ظننت أنه مريض - على خلاف شقيقه إحسان مَرَدْلى فى ذلك كله . ولقينى بترحاب متحفظ - أو بتحفُّظ فيه مسحة الترحاب - وأظنه قد طلب منى أوراقا وشهادات واستمارات كثيرة . كان «موظفا» حقيقيا الآن ، لم يكن «فنانا» - أيا كان معنى ذلك - ألم أكن أنا نفسى بعد ذلك، عند الكثيرين جدا «موظّفا» (كبيرا أو غير ذلك) فقط ، لاغير؟ أو «موظفا أيضاً» على أية حال ؟

كانت تقف أمام خيمة البدو ، فى مرسًى وهمِى ، بيدها بندقية صيد مصوبة للأرض ، وكان شعرها غزيرا وناعما مقصوصا ألا جارسون ، وابتسامتها حييّة وبِكْر . صائدة ، وصيدها قد أصيب بطلقة مُصْمِية .

وكانت الخيمة من جلود الماعز والجمل ضربتها الشمس وبللتها أمطار نادرة ولكنها هتون ، فضرب لونها إلى رمادى مغبر قاتم ، والوبر مازال منتفضا ومستفزّاً من الخارج . أما دفء الداخل فمن يعرفه ؟ احتضانات شهوة مستنفدة وخشنة البحة ، ووطء أجساد نسوية بكر أو محنكة ، واختراقات هواها ، وتهلكة أحلامها غير المتشكلة وغير المصاغة أيضا ، على أبسطة صوفٍ منسوجة بأيدى النساء والبنات ، مبسوطةٍ على رمل مسوى منعَّمٍ مهدِ الوحشية .

النسيج القبطى القديم من الصوف العتيق على جدران فى شارع

رصيف البوربون فى جزيرة القديس لويس، برعيانه وعناقيده ورسم «پان» أسود الجسم عارم العزف على نايه الذى يظل يصدح بلا صوت مئات السنوات ، فيه أثارة من أبسطة البدو المفروشة على رمل الصحراء ، صلبان أردية الكهنة الأورثوذكس متكررة بين أغضان العنب المتجمد المحتشد بعصارة مدفونة لا تفيض .

«السين» داكن ومظلل وعميق وضيق تحت سموق أبراج نوتردام ، غير بعيد ، أنزل ، من فندق دى لابيه المندثر الذى يطل على الحى الرابع من طرف جزيرة القديس العتيد المتنسك المحارب أسير المنصورة، أجراس الكنائس تدق السادسة تدعو إلى قداس المساء .

نستمع معا ، أنا وسامى وجيزيل ، إلى ترتيل من الشيخ رفعت بصوته القدسى الذى يتماسك وينهمر وينساب ويصلب ، حنينا إلى جنات موعودة مشتهاة وفَرَقاً من جحيم الهالكين . وبيننا ، على المائدة الصغيرة الواطئة ، تغريبة بنى هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة ، وسيرة بنى هلال الكبرى الشامية الاصلية من أصل تناسلهم من الزير سالم إلى أبى ليلى المهلهل .

عشاء حميم وأحاديث شهية ، أفى ١٥ شارع رصيف البوربون أم فى ٤ شارع تورنفور ، فى البيت ذى الأعمدة الخشبية الضخمة ، جذوع ضربها سوس قديم قد طُهِّرت خرومُه العتيقة منذ أيام سكنى پروسپير ميريميه ، كأنّ دقات البيانو تعزف اشعاراً أنيقة عن كارمن التى أغوت فارسها حتى هجر ناسه واعتنق قيما لم تكن له ولن تكون،

يوماً من الأيام، وانتهى بفاجعة بعد أن نبذته المعشوقة المستباحة المنيعة عليه، المعطاء العصية عليه ، أم نحن فى شارع الفراعنة فى الحى الإغريقى السكندرى العريق ، فى القاعة الفسيحة ، وارفف الكتب الرصيفة غير المثقلة تحيط بنا ، والأباجورة ذات النور الرحيم .

تأتى قافلة الرجال من حافة أفق الدلالات ، تشير إلى ما هو غير معروف على صفحة رمال متقلبة ، الجمال تُنيخ وهى تزمزم وتخور ، ويهبط الرجال فى وسط حلقة من النسوة الجالسات القرفصاء على الرمل العارى، لهن غمغمة غير مستبينة من وراء براقع قصيرة مثبتة، بمخازم ذهبية محزّزة ، على الأنف ، مربوطة بطرحة الرأس . ويرقص الرجال فى داخل الحلقة الأنثوية أهى رقصة الصائد أم طراد القنيصة المحاصرَة ؟

نور مصابيح «السين» الموضوعة بحذق وتوخٍ حريصٍ ومرهفٍ للجمال، تتخلل أوراق الشجر على الرصيف وتلقى ظلالها المهتزة على مياه النهر وأرض الحديقة المكسوة بأوراق إبريّة ملفوفة مخشخشة تحت هبات الهواء ، وقد غابت أصوات السيارات المتلاحقة موجات تعلو وتنخفض وتعلو من جديد من وراء حيطان باريس العتيقة وأبراج قصر العدالة المدورة السوداء ذات القمم المخروطية ومئذنة الجامع المطل على الخليج الأزرق وبرج الجرس الذى يعلو كأنه خاشع أمام شكاة عاشق لا تخمد بمرور الزمان .

دفء العشاء المعد بعناية وذوق مصفّى مع سامى وجيزيل ، عبرت اليها بوابة خشبية ثقيلة مصفحة بحديد مشغول قديم الطراز ، وفناء

واسعا مرصوفاً بالبازلت مازالت فيه أطياف وأصداء مكتومة لعربات بائدة وخيول مطهمة مندثرة وصلصلة سيوف مغمدة تحت عباءات ثقيلة فضفاضة وقبعات واسعة ذات ريش وخيلاء .

لم تكن إلا نقطة ضئيلة الحجم ، ملفوفة على جسمها الصغير ، قدها الضئيل جامد وثابت دون أدنى نأمة ، ملىء بطاقة عرامة وحشية مكتومة ، تخفى وجهها السافر الصبوح بين ذراعيها . على إيقاع بطىء كأنه ينبع من تحت سطح الصحراء نفسها يتماوج الجسم القليل الذى يبدو فجأة أنه يملأ السماء حتى آخر الأفق ، تصطفق القدمان واليدان بدقات ارتطام شبقى مبتل وصلب معا .

وقصة فيروز شاه ابن الملك ضاراب بمجلداتها الأربعة ، وسيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذى يزن البطل الكرار والفارس المغوار صاحب البطش والاقتدار المعروف بالغزوات المشهورة والفتوح المأثورة ، فى مجلداتها المغلفة بورق كرتون ملصق عليه صفحة الغلاف الخارجى الباهت الصفرة أو الشاحب الحمرة أو الأبيض الفاتح الخضرة كعوبها الحمراء الزرقاء القماشية مشبكة مغراة .

امتدادات الرمل تعلو وتنخفض ثم تعلو من جديد ورغاء الجمل الشاهق الذى يحط بخفيه الأماميين أولا ثم يهبط بجرمه الجسيم على خفيه الخلفيين ، يخور كأنما يشكو ، وينزل من خطمه خيط أبيض من رغوة القهر أو الانصياع أو الرضى ، وفى عتمة الخيمة حدقة البطارية الكهربائية واسعة متفتحة بنور محدد مدور يومض ثم ينطفىء على الجسم الأنثوى المستكين تحت ثياب زاهية وثقيلة موشاه بقطع من

العملة الذهبية العثمانية تصلصل وقد انفكّ الحزام الأحمر الساتان العريض عن البطن المدور الهضيم ، المحبوك بقوة ربانية ، والجسم يحط على البساط الصوف المصبوغ بخطوط حمراء زرقاء متعاقبة ، وصمت تحقق الشهوات .

نفتح صدفات المحار المخضرة المضلعة ونلتقط لحمها الدفىء المتبل بمسحة طيارة من الزبد والبهار وعجين أعشاب برية عبقة ، ونرشف النبيذ الأبيض ثم نُثنى بالعدس الأسود المطبوخ على البط اللدن متماسك اللذة يذكرنى بما كانت تصنعه لنا أمى فى أيام الاسكندرية الرخية التى لن تعود .

وقصة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب على حصانه الذى يشب على قائمتيه الأماميتين ، وذيله غزير الشعر ، والأمير مدرع مزرد على رأسه خوذة مدببة فى مقدمتها شبه ثعبان الكوبرا الملكى ، وفى يده رمح مشرَع مرفوع مسدد إلى صفوف أعداء لا نراهم من وراء غلاف الكتاب وعلى جنبه سيفه الصقيل الطويل مخوف الطول . وقد ضربت طبول الحرب والقتال وخرجت العساكر تتسابق إلى ساحة النزال فهل كان فى يده أم فى يد خصمه كاووس شاه عمود من الفولاذ يبلغ القنطار وسلسلة من الحديد يعلق بها كثير من الكلاليب وحديد الأوتار ؟

تلويات القد الدقيق فى الثوب البدوى السابغ . مُحْكَمةٌ ضمتهُ على الردفين ثم يندلح على الساقين العبلتين تُحدَس ولا تُرى حركتُهما بنغم سريع لا تكاد تُحسّ انتقالاتُه من الهدوء إلى العنف ومن النعومة

إلى الصخب البدنى صارخ الدعوة صارخ الاشتهاء فيصرخ الرجال صرخات قصيرة مقطوعة بصوت أجش يأتى من أحشاء موجعة متطلبة ترد على النداء البرى بالنداء ، حتى يهوى الجسم الذى أسقط الصحراء فى هوة ساطعة النور ، وهى تنهج ، تناثرت من تحت قمطة رأسها خصلات شعر ناعمة فاحمة السواد مشعثة ، وكأنما عادت كل الطاقة المتدفقة فجأة إلى داخل بؤرة عميقة فى ذلك الجسم الملفوف على نفسه ، نقطة ملمومة مطويّة من جديد ، متحصنة من وراء حدود مغلقة الآن مهما كانت عذوبة انسيابها الذى جمد فجأة ، أغلقت الزهرة كل أوراقها ، وضمت نفسها إلى نفسها ، تماما ، ونهائيا . لم يعد يراها أحد .

جيزيل دقيقة الأصابع دقيقة الملامح دقيقة الكلمات ، نحيلة وشقراء جدا ، مسننة الوجه ، تكاد تحس انها ستنكسر الآن لو هبت عصفة ريح أو عصفة من الحديث أم من الأحداث ، لكنها من الداخل صلبة قوية السند لسامى ، مع حدة المردّ ورقة الملامسة معاً ، رسومها المنمنمة بتركيبة ألوان خفية النسق سوناتات سناها يترقرق ساجيا من تحت السقف المثلث والأعمدة الجسيمة التى تبدو كأنها شفّت وفقدت جسمانيتها نفسها مع أصداء موسيقى تنسحب إلى ماضٍ يومض فى سماء باريس .

توت القط الإلهى الحكيم بعينيه الواسعتين وجسمه المرن الكبير ناعم الشعر أسلافه من سيام أو من أيام سنوحى المصرى تحت صروح اخيتاتون المنقضّة ، ينزلق بين ذراعى جيزيل رأسه فى سحاب باريس

المشع بنور أبيض هى نفسها نوت المرفوعة فوق جب يحملها ابن رع يده عند ملتقى ذراعها بالصدر المقبب ويده الأخرى عند ملتقى الفخذين سحرت صباى هذه السماء الشبقية ، توت فجأة على سطح البيت جماع الحقب والعصور مرجع الأسلاف والأحفاد أذناه منتصبتان كأنما تنصتان إلى حسيس أو وسوسة لا يسمعها سواه ، أيستعيد هناك سيماء أبيس أم القرد اله هرموبوليس الأشمونين أمّ الثمانية آلهة وهو التاسع الأخير ؟

لوحات سامى السارية بتلال منسابة ذات أزهار مونقة وخرائط الاسكندرية التاريخية والقط بست الجاثم موسيقى رَبْضة جسمه المتوازنة على شفا أبدية لا تنتهى وصور آدم حنين كثيفة التخطيط والصوفا التقليدية والكراسى الرقيقة بلونها الكستنائى الذهبى الذى صقلته ونعمته مساعي سنوات من أجل تصالح الناس مع النفس ومع العالم ، نشرب القهوة الفرنسية فى الصباح ، جافة عميقة الوقع مع قطعة واحدة من السكر البنى الخام غير المبيض فى كأس مستطيلة من الخزف الطيب الملمس على الشفتين والستائر البيضاء تهفهف ولما تكد على شارع بوتاريل الصامت وفى واجهة الباتيسرى تحت إعلان عن «ماجريت» وأسرار الخيال .

ننزل إلى القبو على السلالم الخشبية التى لأقدامنا عليها صدى ، طالما شهدت فرحة اللقاء وعناق الشوق وحرارة اللقيا ، سامى يفتح الباب بمفتاح كبير ، فى ليلة شتوية . ننتقى زجاجة من النبيذ عليها طبقة خفيفة من هبوة غبار ، بطاقة الاسم والعنوان بالخط القديم ، رسم

كرمة ممتدة متموجة السهول والربى ، نشوة النبيذ تخامر نشوة المحبة وترجيع الترتيل العلوى فى مزاج مشعشع يحفز روحى إلى التحليق وكأن لى أجنحة الحمام الذى يرفرف فرحاً بمعمدانية يوحنا أو المسيح .

قلت ، من زمان ، إنه ليس للأوهام من مرسَى .

٤- سطح بيت فى شارع الاسكندرانى

عندما التقيت بفتوح القفاص سحرنى منه، على الفور، أنه بوهيمى المظهر والسلوك ، نسيج وحده ، كما يقال . كان فريد الطراز، لا يقيم وزناً لأى من التقاليد أو المواضعات المألوفة .

كان - مثلاً - فى عز الشتاء يمشى بجاكتة سبور، بقميص مفتوح، من غير بلوفر ، شعره أجعد وأشعث داكن السواد وغزير . وفى يده - دائما - كتاب عربى أو إنجليزى ، غالى الثمن مما كان يستعصى علينا أن نقتنى ، نحن الذين فى الجامعة بينما هو يعمل ، بدبلوم التجارة المتوسطة ، فى شركة البيضا ، بكفر الدوار ، يسافر إليها من الإسكندرية ، ويعود ، كل يوم .

سرعان ما توثقت بيننا الصداقة .

كان - ومازال - تستطيره الأفكار (أفكاره هو) فيستشيط ويشتعل حماسة ويقذف بنفسه فى جدل حام مع نفسه أو مع غيره يعلو فيه صوته ، بطيبة قلب أو بشىء من السذاجة حتى ، ويتناثر من فمه الكلام والرذاذ . ولم يكن عنده من كلمات السب أو الإدانة غير كلمة واحدة : «يا حيوان !» حتى لقبناه بها ، وكنا نحيّيه بها ، ونرد على مجادلاته ومشاكساته بها : «ياحيوان!» وهو يبتسم عندئذ، أو يتهانف بضحك خافت متردد إذ يخفض عينيه كأنما هو سعيد بالمداعبة أو على الأقل راض بها .

وكان من مرتبه فى «شركة البيضا» يعول أسرة أبيه ويعلم اخوته فى الثانوى والجامعة ويشترى الكتب الثمنة .

وبينما كان حذاؤه الضخم واضح الترقيع وواضح أنه أضيف إليه نصف نعل ربما عدة مرات ، وتشقق جلده ، وعليه آثار طين ومطر قديم لاتزول ، كان يشترى كل أسبوع تقريبا نصف دستة كتب انجليزى غالية من مكتبة ڤكتوريا فى شارع سعد زغلول ، وله فيها حساب جارٍ فتحوه عن طيب خاطر لهذا الزبون النادر ، وكان لا يفلت من نهم قراءته كتاب فى الأدب أو الفلسفة أو التاريخ أو الشعر أو الاقتصاد على السواء .

قرأت منه ، مثلا «آلة الزمن» لـ هـ . ج . ويلز ، فى طبعة مجلدة بغلاف بنى مذهب الكعب ، وترجمات بالانجليزية لروايات أناتول فرانس ، و « دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية » لجورج برنارد شو ، و «سندباد مصرى» لحسين فوزى يوم صدوره ، وغيرها كثير .

هل كان ذلك فى ١٩٤٢ أو فى ١٩٤٤ ؟ عرفت منه أنه اشترى «العالم الجديد الجرىء» و «بلا عينين فى غزة» ، «نغمة ونغمة مضادة» لألدس هكسلى ولما كانت تفتننى - حينئذ - كتابات هكسلى ألمحت له أن أستعيرها منه ، فقال ببساطة : « تعال معى خذها من البيت » .

كان بيتهم فى شارع الاسكندرانى .

وأيامها لم نكن نتحرج من زيارة أصدقائنا فى أى وقت ظهرا أو ليلا لا فرق .

كنا فى عز الظهر، مدخل البيت القديم العالى نظيف، رخامىّ، السلالم تلمع ناصعة النظافة وهادئة، أبواب الشقق مغلقة على ساكنيها، روائح

طبيخ الغداء : نفث تقلية الملوخية أو نفحة تسبيكة البامية تتسلل من سر البيوت المكنونة على أصحابها . كان محرم بيه أيامها فيه هبوة ارستقراطية باقية ، غير بيتنا فى راغب باشا حيث أبواب الشقق ليست ضخمة ولا عالية محكمة ، بل رقيقة الخشب وموارية فى الغالب تسمع من ورائها وأنت طالع السلم الضيق المعتم كل ما يدور خلفها : لعب الأولاد وزعيق الأمهات ودعاءهن على مقاصيف الرقبة المعجونين بمية العفاريت وطشة الباذنجان المقلى أو نفحة السمك المشوى بالرضة على وابور الجاز الذى لا تخطىء الأذن فحيحه القوى، المنتظم.

واذ كنا نصعد أنا وفتوح القفاص سلالم بيتهم فى الاسكندرانى ، تتعاقب الأدوار ولا نصل . لم يكن قد قال لى فى أى دور سكناهم ، وكنا منهمكين فى نقاش - أخذت أنفاسه تتقطع قليلا ، على حموة الصبا ونشوة المجادلة - حول عدد سكان مصر عند الفتح الإسلامى ، تقديرا على الجزية المفروضة على القبط ، أى على سكان مصر كلهم ، وهل كانوا أربعين ألف ألف أم عشرين ألف ألف ، باحتساب قيمة الدينار نسبة إلى الجنيه المصرى الآن ، وكانت الحسبة كلها تكنيكية علىّ جدا ، حتى وصلنا إلى الكات الخامس أو السادس ، وإذا بنا أمام باب السطح ، وإذا نحن على سطح البيت ، فسيحا ، مبلطا ببلاط أبيض ممسوح حديثا ، وإذا بيتهم هو بالضبط هذا : غرفة واسعة على السطح، فيها كل شىء .

وفيها قبل كل شىء مكتبة عامرة لم أكن قد رأيت مثلها فى أى بيت من بيوتنا، أرفف خشبية مفتوحة متعاقبة محملة بالكتب العربى

والانجليزى منها المجلد النادر المنال ، ومنها روايات الجيب ، وعلى الأرض رصص المجلات الاسبوعية والشهرية الرسالة والثقافة وأبولو والهلال والمقتطف والاثنين وكل شيء والدنيا .

على الأرض المبلطة كليم وعليه مرتبة عريضة ، وكرسى أو اثنان خيرزان ومائدة مثقلة بالكتب، وزجاجات الحبر، والرِيَش الخشبية مختلفة الألوان بعضها مغموس فى زجاجات حبرواترمان التى كان يستحيل علينا أن نشتريها - كنا فى عز الحرب - وبعضها قد جف الحبر على سنها الرفيع ، وفى الركن كرسى حمام خشبى منخفض ، وطبلية مدورة خشبها مشرب ببقع زيت لا تنجاب ، وطشت كبير من نحاس أحمر مصقول ، ووابور الجاز المحتوم ، وحلل الطبيخ جنب الحائط ، وقصرية غير بعيدة ، وسائر عدد الحياة البيتية الحميمة مكشوفة عارية ،جلاليب وفساتين معلقة على تلك المشاجب القائمة ذات الفروع الملتوية المتعددة ، كأنها قرون غزلان أو أغصان مقوسة حسنة التدوير ، ودولاب ضخم بمرآة بلجيكى عريضة تعكس الغرفة كلها ، وتكررها فى داخلها ، وتعطيها سعة أخرى ، فى آخرها المكتبة العتيدة وكنوز الكتب البعيدة .

قابلتنا أخته بملابس البيت الكستور الواسعة ، شعرها ملفوف بمدورة بيضاء مغضنة ، وراعتنى منها عينها الواحدة صفراء خضراء ، مثل عينى فتوح نفسه ، حادة ونفاذة البريق ، فى وجه آسر سمح مع صلابة خطوط عظامه القوية .

وكان واضحا أنها هى التى تقوم بمهمات ربة البيت، ومسئولياته الثقيله.

كل شيء كان مفاجئاً بمعنى ما ، ومتوقعا فى الوقت نفسه .

هذه الغرفة ، فى مرآتى ، ليست تكرارا ولا انعكاسا . ماثلة الآن، وبلا زمن . لها وجود فريد .

هذه الغرفة ، وفتوح ، والكتب ، وأخته ، وأدوات الحياة .

عندما زرته بعد ذلك - بسنين - وبعد زواجه بتلك البنت المغربية الأصل رقيقة الجسم حادة الروح كالسكين (كان قد هجر أوديت بعد حكاية لقاءات - وغراميات ؟ الله أعلم ! - ذائعة الصيت) فى شقته الأنيقة البورجوازية الأثاث ، تقليدية عادية ، كانت المكتبة الخشبية الأرفف المفتوحة قوية العضل قد حلت محلها خزانة الموجنى الغالى ولها واجهات بلورية تخطف البصر حوافها مشطوفة تعكس أضواء النجفة الكريستال الكبيرة بومضات زرقاء صفراء وفضية ، وبينما جلست فى فوتيى الطقم المذهب وغاصت قدماى فى السجاد الكثيف الوبرة ، لمحت بعضا من الكتب القديمة التى أحببتها ، هناك ، وراء الزجاج السميك ، أغلفتها شحبت ألوانها ، يمكن ، حوافها تآكلت قليلا من القراءة وعرق اليدين والاستخدام العنيف ، أثناء الأكل ربما وفى الترام وفى القهاوى، وفى التواليت، لم تعد زى زمان جديدة وبكرا ومقروءة أولاً بأول ، يمكن، لكنها مازالت تراث الصبا المذخور .

تراث الصبا المذخور ؟

الاسكندرية مساء ٢٢ نوفمبر ١٩٤٢

سخرية ! .. ماذا تستطيع أن تسميها غير ذلك ؟ ! ...

منذ أكثر من شهر كتبت إليك ولكنك لم تتفضل بالجواب ... رغم

رغبتى الصريحة فى ذلك .. ورغم أن الخطاب وصلك فى ١٣ حبيب جلبى .. ولم يضع فى البريد .. كما اعتادت الخطابات أن تضيع .. واذن .. فهى صفحة تريدها أن تطوى ، وهى مرحلة تريدها أن تقضى، لا بأس .. أو على الأصح .. بديع .. أليست الحياة ، بعد كل شىء ، سخرية كبيرة .. ؟ على أى الأحوال .. لعلك تذكر أن يونيو سنة ١٩٤٣ .. يونيو الموعود ، لم يأت بعد ؟ نعم .. يخيل إلى أنك تهرب منى ، أو كنت تهرب منى ، وكنت أنا أجرى وراءك .. وهذا مضحك قليلا .. واذن .. فلا بأس من مضايقتك أكثر قليلا .. وعلى ذلك ، فسأكتب لك .. وقد أكرر الأمر ، على رغم أنه يمكنك أن تثق أن كل خطاب يرد منك إلىّ ، وهذا غير محتمل ، فستكون النتيجة أن يرد إليك ، مغلقا ، وفى الحال ...

وفيـــــق ....

أى مأساة من مآسى الصداقة ، والخيانة ، والوفاء والكبرياء والنبل والحساسية والحيوانية مأساة جديرة بشخص كالشاعر راسين أو كورنى ، يصرخ فيها البطل ، ويبكى ، ويهتف ، ويملؤها الكاتب بعلامات التعجب .. وقطرات الدموع !! ...

نعم .. اننى لا أملك أن أفكر فى «اللغة البشرية» ... بغيظ .. وحقد سافر .. ! انها تمدنا بكلمات كثيرة ، كثيرة جدا ، لا معنى لها ، ولا وجود ، ولا مبرر على الإطلاق .. الصداقة .. والكبرياء .. والوفاء .. والنبل .. !! ... أشياء مضحكة .. لا أكثر .. ولا أقل ...

انني لا أريد أن أنفعل ، وأحتد ، فقط .. أحب أن أتكلم ، وأن أكتب .. وأن أعبر عما يجيش فى نفسى من مشاعر مظلمة ، هادئة، كضباب يخيم على صحراء ، وتخترقه أشعة النجوم الضئيلة ، عند مساء محتضر ...

انها لعنة مكتوبة على طائفة من التعساء .. لعنة فاه بها القدر ، ترغمهم على أن يكتبوا ، أو يتكلموا ، ويعبروا عن أنفسهم ، مهما كان الثمن ...

كلا .. لست أريد هستيريا من نوع الخطاب السابق ... ولا سخريات جوفاء ولا مشاعر الكرامة المجروحة .. وسائر هذا الهراء ..

هو الواقع أريد أن أعبر عنه .. فى نوع من الاستسلام .. نوع من عدم المبالاة ... اننى أفكر فيك كثيرا .. ليس عن صداقة أو وفاء .. كلا .. فقد تسممت نفسى .. وإنما هو نوع من الحنو الأبله .. للذكريات .. نوع من زيارة المقابر .. وذرف دمعة أو اثنتين .. على أعشاب نمت فوق جدث عزيز ..

هل تدرى ؟ .. فى مساء ١٥ مايو سنة ١٩٤١ كتبت فى مذكراتى ما يلى بالحرف الواحد :

«نعم .. لقد تسلل (أنت) إلى دنياى الخاصة .. وهناك عاش بين المجانين الذين يملأونها.. لقد أحببته كثيرا .. واقتربت روحى من روحه كثيرا .. وتعانقت مشاعرى بمشاعره كثيرا ... ولكن من يدرى ؟ ...

قد يجترف الزمن هذه العاطفة .. فتمر تحت عجلاته التى تدور على كل شيء .. وتحطم كل شيء .. ولكن .. هذا الزمن لن يقوى أن يلمس ذكراها فى قلبى .. لن يرفع يده لكى يحطم تمثالها المرفوع فى داخل نفسى .. فنفسى معبد خالد .. يستعصى على الزمن .. مقدس .. لا يجرؤ أن يضع قدمه على عتبته »

عجيب .. أن يحس المرء بأشياء هذه .. منذ سنة ونصف .. ثم يذكرها الآن حين يأتى الزمن .. يطل برأسه .. ويتردد .. ويزمجر !! .. أليس كذلك ؟ ...

(عجيب ، أن تتردد أصداء هذه الكلمات ، هذه النوستالجيا ، طول العمر)

نعم .. اننى أزور المقابر ، وأبكى على الأعشاب النامية فوق الأجداث ، عند الأصيل المحترق .. وأحدق فى لانهاية السماء ، وأنا أذكر «قبلة يهوذا» ، هل تعرفها ؟ .. أذكر مساء «خميس العهد» .. والمصباح وهو يرمى بأشعته الممتقعة ، على المصلوب وعلى الخائن ، وأذكر الدموع المذروفة فى ظلام ركن بعيد ، دموع ملتهبة مرة ، ثم أذكر جثة يهوذا التعس ، فى شحوب الفجر ، تتأرجح تحت النسيم ، بعد أن شنق نفسه ، بين شبحى الندم والمعرفة ...

كلا .. كلا .. لست أريد أن أتمادى ،، أن أطياف الرموز تتقاتل فى ضباب نفسى .. بروق تلتمع ، وعواصف تثور ، فى صمت ، وتختنق فى صمت ، وتدفن إلى الأبد ، فى سكون ...

من الطريف ، فى هذه الحياة ، أن هناك أشياء تافهة ، ضئيلة ، قد تفسر أشياء كثيرة ، وقد يتوقف عليها كل شىء ..

فى ذات يوم .. رويت لى أن مدرسكم الإنجليزى الذى نسيت اسمه .. والذى كنت تحبه .. كتب لك تعليقا على موضوع لك : « Simply devilish وتحتها خط .

الواقع أنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل .. صحيح أنه كتب good .. ولكنه لم يكتب التعبير الأول .. الجميل .. الفاتن .. وأنا واثق من ذلك .. وثوقى من أننى أتنفس .. لأننى ببساطة رأيت الموضوع بعينى .

والآن ، أليس هذا شيئاً تافهاً ، ضئيلاً : أنه كتب good ولكنه لم يكتب : «شيطانىّ ببساطة !»

تافه بالتأكيد .. ولكنه يفسر أشياء كثيرة ، أخرى ، ويلقى عليها ضوءا غادرا فاجرا .. ويزيح عنها الستار ، فى ضحكة مستهترة ..

نعم .. ولكن قبلة يهوذا .. ترتسم أمامى مرة أخرى فى عناد وإلحاح .. هل أنا غامض ؟ .. هذا أحسن .. ان الخواطر تعبر ذهنى فى خطوة واحدة بسرعة ساحقة ، وتترك خلفها الظلام ، وأنا أكتب ، بكل بساطة .. وأمانة ...

(ومازلت أصارع هذه الرموز الرثة ، أجهد أن أنفيها عنى ، ومازالت تزحمنى ، وتثقل على صدرى)

انها لعنة .. لعنة أبدية .. وُصمتْ بها شرذمة من الأشقياء التاعسين .. لماذا أريد أن أكتب أشياء بلهاء سخيفة ، فارغة ؟ .. لماذا أريد أن أقتنص هذه المشاعر المتموجة التى تمر بأعصابى ، كما يمر النسيم على بحيرة ضحلة ، ملآنة بالطحلب والحصى والرمال ؟ .. لماذا لا أنام .. كما يفعل الناس ، فى مثل هذا الوقت ثم أستيقظ وألتهم طعامى .. وأحيا حياتى ، وأموت ، كأى حيوان عادى ؟ .. مادام ليس هناك ثم فائدة ، ولا سعادة .. ؟ إنه الجرح القديم ، القديم يدمى باستمرار ، ويقذف صديده ، فى ظلام نفسى ، باستمرار ...

اننى أعيش كمجنون .. حبس فى جسد .. وحكم عليه أن لا يرى النور .. الجسد هادىء عادى يسير ويمتزج بالناس ، والجنى فى قمقمه ينفث لهبا ودخانا يحترق ويختنق ،ويناضل لالتقاط أنفاسه ، ويحيا ، فى جحيم ساحق، فى قمقم مسدود ، مملوء بالأبالسة، والملائكة، والزهور، والجمرات، هناك شبح يعيش معى باستمرار، ويسير إلى جنبى باستمرار، شبح مخيف، لكنه أحبه، وأحدق فى عينيه الغائرتين المملوءتين ظلاما، لكى أبحث فيهما عن الأحلام التى تعيش فى نفسى. نعم إنها فكرة الانتحار ، دائما معى .. دائما معى .. عندما أتعلق بالسحب ، وأرهف أذنى لنغمات الملائكة ، عندئذ فجأة تقهقه فى سخرية .. هذه الفكرة المخيفة المحبوبة .. فأسقط إلى الأرض .. وأنا أحدق فى عينيها المملوءتين بالظلمة، ثم أمزق أحلامى .. فى لذة لا يشعر بها إلا مجنون يمزق بأظافره.. وأسنانه.. جثة أحب الناس إليه

.. لذة طاغية تقطر منها الدماء وتندلع منها النيران .. فتلف الروح فى دخان مذهل خانق عطر .. كما يحس المرء .. وهو يرزح تحت كابوس مخيف الجمال ...

نعم .. الانتحار ! .. إنه صديقى .. أهمس اليه .. فيبتسم ابتسامته الرائعة .. ثم نشق طريقنا فى الحياة .. جنبا إلى جنب .. ويدا فى يد ..

فى المساء .. عندما تسود الظلمة .. أدعوه .. فى صيحة الطفل المنذعر .. وفى الصباح أستند إليه .. عندما أنقل قدمى الثقيلتين .. المتعبتين من ملامسة الأرض .. وفى الليل .. أنام .. وأنا أحلم به .. وفى كل وقت .. وفى كل مكان .. أشعر بأنفاسه الهادئة تهب إلى جانبى .. فيغمرنى شعور راحة وهدوء .. واطمئنان مرهف جميل ...

(هذا الشَبَح القديم مازال ملازمى ، شاخ الآن ، ووهنت بنيته ، ولكننى مازلت أستند إليه ، ولعله الآن يتكىء علىّ أنا ، يلتمس السند)

« أسفى .. ليس لى ثمة أمل ..

ان قلبى لا يعرف السلام .. ولا الهدوء ..

ولا تلك القناعة التى يجدها الحكيم .. فى تأملاته الساكنة ..

والتى تتوج نفسه بتاج من المجد رائع ..

تلك القناعة التى تكبر جميع الكنوز قيمة ..

ليس لى ثمة قوة .. ولا شهوة ..

لست أجد قلبا يحبنى وأحبه ..

وحتى الفراغ الهادىء .. لست أعرفه ..

اننى أرى من حولى يتمتعون بكل هذا ..

ويدعون الحياة مسرة ..

ولكننى تجرعت كأس الحياة ..

فعرفت لها طعما آخر ..

كم أحس الآن .. بيأس هادىء وادع

وداعة الريح .. والمياه .. الساكنة ...

اننى أستطيع الآن أن أضطجع .. كطفل متعب

وأبكى حياة المتاعب والكلال

تلك الحياة التى تحملتها ويجب أن أتحملها ...

حتى يقبل إلىّ الموت .. كالنوم .. يسترق خطاه ..

وعندئذ أحس برد العدم يسرى فى وجنتى .. اللتين يهب عليهما الهواء الدفىء ..

وتترامى إلى مسمعى الواهن .. نغمات الموج الأخيرة ..

تتردد فوق قلبى الذى يحتضر .. فى سكون ..»

هذه الأنات .. تساقطت من قلب تعرفه .. أو قد تكون نسيته .. لست أدرى .. نعم .. انها صيحات الانسانية الممزقة .. فى روح سماوية .. فان كان هذا ما يهتف به شيلى .. فكم بالحرى مخلوق مثلى .. له من شيلى أعصاب مريضة ممزقة .. وحساسية مرهفة .. ولا شىء غير ذلك ؟ ..

(وهل بقى هذا الشَبَح الآخر ملازماً لى أو جاثماً فىّ؟ هذا الشاعر القديم المنسى الذى أكرهه الآن ؟)

إلى متى ؟ .. إلى متى ؟ .. ليس يدرى أحد ..

انها لعنة .. لعنة أبدية .. يا اله الرحمة .. لو أن هناك .. لو أن هناك رحمة ..

هه .. من المحال أن يستمر المرء فى كتابة مثل هذا الهذيان الفذ .. والا انفجر فى مخى شريان .. أو شىء من هذا القبيل ..

فهى تعرف .. اننى ذهبت إلى صفط الملوك .. لأسأل عنك خصيصا .. ؟

واننى علمت أنك تدرس الصحافة فى الجامعة الأمريكية وأن مدير الجامعة عندما علم أن سنك لا تعدو السابعة عشر أخذ يرقص من الفرح والعجب وكاد يحتضنك أمام والدك ويلثمك فى وجنتيك .. لولا وقار العلم ؟

هكذا فهمت على الأقل من والدك عندما أخذ يقص علىّ فى فخر الأبوة العجيب كيف ذهبت إلى الجامعة الأمريكية وكيف قبلت هناك .

آمل - لست أدرى لماذا - على كل حال .. ان تجد الحياة شيئاً لا بأس به فى الجامعة المذكورة .. وأن تجد مخلوقات بلهاء مثلى .. تحتال عليهم نفس الاحتيال غير الشريف الذى كنت بارعا فيه .. وإن كان هذا غير محتمل .. كما أظن ..

الواقع اننى أهنئك لانك صادقت مخلوقا أبله معتوها مثلى .. أهنئك من كل قلبى .. وأبدى لك اعجابى الشديد بعبقريتك غير المنكورة ..

ماذا ؟ .. نعم اننى أبله معتوه سخيف .. لا ريب فى ذلك .. والا فلماذا مثلا أتكلف مصاريف السفر من الاسكندرية إلى صفط الملوك .. ذهابا وايابا .. لأحادث والدك المحترم دقيقتين اثنتين لاغير .. أعلم فيهما أنك ذهبت إلى الجامعة الامريكية وأن المدير رقص أمامك؟ !! لماذا ؟ !!

بلاهة .. لاشك فيها ..

ثم .. هل يخطر فى ذهن شخص عاقل أن يفكر بمثل هذه الطريقة ؟ .. أن يفكر أنه قد يكون أبله وهو لا يدرى وكل هذا الهذيان ؟ .. كلا .. إن العاقل لا يفكر هكذا مطلقا .. المجنون هو الذى يشك فى أنه مجنون .. أما العاقل فلا يعقل إلا أنه عاقل .. شىء مسّلٍ .. على أى الأحوال ...

ولماذا أكتب إليك .. رغم أنك لم تتنازل بالرد .. فآخذ مظهر من يترامى تحت أقدام سيادتكم .. ويرفع إلى عرشكم عينين مخضلتين بالدمع .. ويتضرع فى صوت مبحوح .. يطلب الرحمة والعطف ؟ ... لماذا أكتب أشياء مثل رسائل العشاق المهجورين ، لامؤاخذة ، كما سوف - لاشك - تقول ؟

لماذا أفعل هذا .. اذا لم أكن أبله .. لا أستطيع أن أقدر النتائج .. وأضع الأمور فى وضعها الصحيح .. وأن أحترم نفسى .. ولا أضايق غيرى ؟

ولماذا أظل مستيقظا حتى الآن .. الساعة الثانية صباحا .. أسود الصفحات الطوال بالهراء والهذيان .. الذى قد يضيع .. أو هو ضائع هباء .. ؟ ..

ولماذا أقلب فى خطاباتك .. ثم أتمتم بعدة لعنات بصوت منخفض كمن يخشى أن يسمعه أحد .. رغم السكون السائد .. ثم أضحك بعد ذلك ضحكة خافتة تماما كبعض المجانين ؟ ...

ولماذا مثلا تطن فى رأسى نحلة شريرة .. فأجمع كمية من الأوراق التى قضيت فيها الليالى الطوال .. أضع فيها روحى وقلبى وفكرى .. ثم أضع هذه الأوراق ، أشعار وقصص والسخافات التى تعرفها .. أضعها فى علبة صفيح .. ثم اطفىء النور .. وأوقد فى الورق النار .. فترمى بضوء مشع عجيب .. فى الغرفة المغلقة المظلمة .. ثم تتطاول ألسنة اللهب .. وتأخذ ألوانا متمازجة عجيبة .. وتخفت لتأخذ لونا أزرق شاحبا .. وتموت .. كل ذلك وأنا أحدق فيها .. وأبتسم لها .. تماما كالبلهاء .. ثم أقوم لأرمى بقايا الرماد الأسود من النافذة .. وأنا لا أحس بأى شىء .. إلا بجمود غريب متحجر .. نحو هذه الأشياء العزيزة المحبوبة ... ؟

والآن .. هل اقتنعت تماما بأننى أبله .. أم تريد أن أمضى فى الاقناع ؟ طبعا اقتنعت .. اقتنعت .. لاشك انك تصرخ انك اقتنعت لكى أخلصك أخيراً من كل هذا العناء ...

كل ذلك .. رغم أنك لا شأن لك بالموضوع كله .. انما هو أبله يكتب إلى نفسه .. لكى يقنع نفسه - لا أنت - انه حقيقة أبله .. !!

(طبعا لم تكن «علبة صفيح» بل كانت كروانة طبيخ . لكن ماذا تفعل فى حُواذ التوشية الرومانتيكية ؟)

أنت الآن تقطن ١٣ حبيب جلبى .. وأمامكم الفتاتان الشاميتان إميلى وايثيت ، كما أعتقد ، أم لعلهما انتقلتا وتركتا الوحشة والظلام فى الشارع .. ؟ .. هه .. ليس لى أن أعرف جواب هذا السؤال قط ...

لأننى لن أتسلم منك خطابا بعد الآن

أليس هذا شيئا دراماتيكيا مؤثرا ؟!

« .. ان بعض الدموع تجول فى عينى .. ولكنى أسرع بتجفيفها فى وحشية غريبة .. »

كان هذا كلامك ، فى وقت من الأوقات ...

وأخيراً إذا كنت قد عبرت هذا الخطاب بسلام .. ووصلت إلى هنا .. فاننى أحب أن أشكرك .. شكرا عميقا .. جزيلا ..

نعم .. شكرا ، عميقا ، جزيلا ..

هل تعرف أن بعض الكلمات .. تئن .. وتصرخ .. تحت ثقل ما تحمل من المعانى ؟

فى النهاية تقبل تحياتى، واخلاصى الأبدى، وشوقى البالغ الحار..

وآه ، على فكرة ، تحياتى إلى جانيت وأسفى لتهدم أحلامها فى «غرفتى الهادئة التى تقع فى ركن وكركما الجميل» .. نعم ، أليست الحياة .. كلها .. تقريبا ، أحلاما كوازيمودية مبعثرة ؟

(.....)

(لماذا - وما معنى - هذه الدموع النزرة التى تملأ عينىّ، بعد أكثر من نصف قرن؟ ياه! لا أصدّق طبعاً. لكن هذا الطفل الصبىّ النزق الغارق فى الرومانتيكيّة، مازال هنا، يا سلام !)

« الجامعة الامريكية بالقاهرة »

قسم الصحافة

عزيزى ..

أو لم يعد لى الحق فى أن أدعوك بعزيزى .. بعد أن صرت أنا لا عزيزا ولا صديقا ! ؟ ماذا حدث لعقلك يا صديقى ... هل أصبت بخبل من جراء مصاحبتك الطويلة لسامى وجورج وأمثالهما ؟

لقد بدأت خطابك الأخير بكلمة «سخرية !» ... نعم ... سخرية ! ولكنى لست أدرى أمنك أم منى أنا ! .. أية سخرية يا صديقى ! أية سخرية فى أن أموت سريعا هكذا . وأدفن . ويركع صديقى - أو من كان صديقى - الوحيد .. على العشب يبكينى . يبكينى فيدعونى خادعا . نصابا . زائفاً . محتالا !

يا الهى ! .. ماذا تقول جانيت اذا عرفت كل هذا عنى .. وتبين لها أنها مخدوعة . تحب شخصا يتحلى بهذا العقد من الصفات .. لا تخالنى غاضبا يا صديقى . أو حتى متألما . فأنا أعلم أى شيطان دفعك إلى كتابة هذه الكلمات . وأعلم بأى روح كتبتها .. ولكنك تظلمنى يا صديقى. تظلمنى ظلما غريبا. كنت آخر من يتوقع أن يصدر عن شخص هو أنت .. اسمع يا صديقى . وصدق أو لا تصدق ..

.. عندما خرجت أنت فى ذلك الأصيل المشئوم .. وتركتنى بتلك الصورة الغريبة التى لم أعتدها منك . غضبت أنا .. وشعرت بسخطٍ عنيف عليك .. وعلى نفسى .

قد أكون أنا المخطىء .. والمسىء .. فى ذلك اليوم .. نعم .. قد تكون هذه هى الحقيقة . ولكنك تعلم أن الحقيقة لاتعنى شيئاً فى مثل هذه الأحوال .. فقد شعرت أنا حينذاك بأنك أنت المخطىء . وتسيطر هذا الشعور علىّ .. حتى خلت حقا بأنك أنت المسىء وحدك .. وأنا الضحية البريئة لإساءتك . فرحت أنتظر يوما بعد يوم . بأمل أن يصلنى منك خطاب ينهى كل هذه السخافة أو قل الدراما المضحكة ! ولكنك لم تكتب . ويظهر أنك رحت تنتظر منى خطابا كما كنت أنتظر منك .

وانتقلت من صفط الملوك إلى مصر - وظهرت النتيجة . ونجحت . فتوقعت أن يأتينى منك خطاب بهذه المناسبة التافهة . ولكن . لا شىء. وتألمت أنا وعددت الأمر كله indifference منك ...

وبعد أسابيع .. أو شهور .. وصلنى خطاب منك ، محولا من صفط الملوك . ولست أحاول هنا أن أقول لك بأى شعور تلقيت هذا الخطاب . فشىء يشبه الكبرياء . أو الغيظ . يمنعنى من ذلك . ولكن الذى حدث هو أننى كتبت لك الرد - بعد بضعة أيام - على الآلة الكاتبة . وكان خطابا سخيفا على ما أذكر ... وستفهم معنى هذه الكلمة إذا وصلت إلى نهاية خطابى هذا .

ورحت أنتظر ردك على الجامعة . لأنى أخبرتك فى الخطاب «أنه يستحسن أن تكتب الرد عليها . وأن يكون العنوان بالانجليزية لأننى فى ذلك الوقت كنت أفكر فى ترك (١٣ شارع حبيب جلبى) والاقامة بالجامعة ذاتها .

ومرت أيام طويلة وأنا أنتظر ردك فلم يصلنى . ورحت أفكر فى كتابة خطاب آخر لك ولكن حدث عندئذ ما منعنى فى ذلك . إذ جاءت چانيت إلى الزقازيق وأنت تعلم ما حدث طبعا . فقد طرت إلى هناك حيث بقيت أكثر من ١٣ يوما عدت بعدها إلى مصر - (أعنى إلى الجامعة .. لانى منذ ذلك الوقت تركت منزل خالتى بحبيب جلبى) ..

وحدث أن ذهبت أول أمس إلى منزل خالتى . فقالوا لى أنه جاء خطاب منك . وتلهفت كالمجنون إلى قراءة الخطاب . ولكن من استلمه منهم كان قد وضعه فى مكان نسى موضعه فيما بعد . فأخذ يبحث عنه أكثر من عشر دقائق إلى أن وجده وكنت أنا فى خلال هذه المدة على حال من القلق والتلهف كادت تسبب عراكا بينى وبينه .

وأخذت الخطاب.. وأسرعت بالنزول كى أقرأه فى الترام .. لعلك تذكر حالتى يوم أن وصلنى أول خطاب من چانيت .. لقد كنت ساعة مجىء خطابك الأخير ، فى حالة تقرب من هذه لهفة وسعادة .

... وفتحت الخطاب ، فطالعتنى «سحرية» !! ...

لست بحاجة إلى أن أشرح لك أكثر من ذلك يا صديقى . أو قل أنا لا أستطيع . لأننى أشعر بضيق شديد عندما أطيل فى كتابة مثل هذه الاشياء ...

.. هذه هى القصة برمتها ...

لست أدرى إذا كنت ستصدّقها أم لا ولكن هى الحقيقة يا صديقى . وكثيرا ما تكون الحقيقة فى مثل هذه الأحوال أبسط مما

يتصور الانسان .. أو قل أبسط من أن تخطر على باله

ولكن ! العجيب الذى يضحكنى فى هذه المأساة كلها . أو قل السبب الذى جعلنى أتقبل معاملتك بهدوء دون ألم أو غضب كثير . هو أننى كثيرا . ما عاملت چانى مثل هذه المعاملة . لأتفه الأسباب . لأسباب كنت أذهل فيما بعد عندما أكتشف كم كنت مخطئاً فى تصورها . بعيدا عن الحقيقة بعدا شاسعا .

نعم . كثيرا ما كنت أظلمها - وأقول كنت لأننى تخليت أخيراً عن هذه العادة المقيتة - كما ظلمتنى أنت . وكنت أقسو عليها قسوة كانت تقابلها بالدموع والاستسلام وهأنت الآن . كأنما تنتقم لها - تعاملنى المعاملة ذاتها .. فأحس تماما كم كنت مجنونا .. سخيفا .. مخدوعا فى كل ما سببته لها من آلام ! ولنتته الآن من كل هذا .. إذا شئت أنت أن تنهى هذه المسألة السخيفة .

.. والآن يا صديقى .. هناك بضع أشياء فى خطابك أود أن أنبهك إليها ... كتابك الفرنساوى La Maison de la Mort Cer-taine مع چانى . وقد طلبت اليها بنفسك أن تكتب لك فيه الكلمات الصعبة . وقد قاربت الانتهاء من قراءته كما أظن وفعلت كما طلبت أنت منها وسترسله لك قريبا .

أما عن الشيء الآخر . الذى تزيح عنه كلمة «Simply Dev» الستار فى ضحكة مستهترة . وتلقى عليه ضوءا غادراً فاجراً فلست أدرى ما هو .

وإذا كنت تعنى ولعى بالكذب . فهذا شيء لا أنكره بل أنا دائم

التفاخر به . ولعلك تذكر أن صداقتنا كلها قامت على أساس ذلك اليوم الذى أخبرتك فيه «أننى من العباقرة فى الكذب والاختلاق»

لقد أحببتنى حينذاك لأنى أخبرتك بأننى كذاب . ولست أفهم لماذا تحتقرنى اليوم لا لشىء إلا لأننى . كذاب .. هذا هو كل شىء يا صديقى .

ويخيل إلى الآن اننى خلصت كتفى من حمل ثقيل . هو تلك الأشياء العجيبة التى صببتها على دون حساب ! .. اننى برىء من كل ما تنسبه إلىّ وهذا يشعرنى بأننى أفضل منك كثيرا . من هذه الناحية على الأقل .

نعم .. اننى برىء يا صديقى - أما إذا شئت أن تعتقد وتؤمن بغير ذلك فهذا شأنك وحدك . ولك أن تعيد إلىّ خطابى هذا .. دون أن تكلف نفسك عناء كتابة خطاب آخر من عينة خطابك الأخير .

انك قاس يا صديقى . قاس إلى حد عجيب علىّ وعلى نفسك .

اننى تعس يا صديقى لا أستحق إلا عطفك .. وحبك . بدلا من احتقارك وكراهيتك .

آه لو تعرف أية حياة أحياها الآن يا صديقى القاسى ! ..ولكن لا ! . ان الكبرياء اللعينة تمنعنى من أن أقول شيئاً أو قل هو احترامى لهذه الآلام هو الذى يمنعنى من ذكرها لئلا تظنها وسيلة وضيعة . أستدر بها عطفك وأستعيد بها حبك . أو قل صداقتك التى شئت أن تميتها وتدفنها فى قبرى الذى زرته مبكرا !

.. هل تذكر «أوسوالد ألفينج» ذلك الفنان الذى خلقه إبسن فى

مسرحيته «الأشباح» وشاء أن يصيبه (بدوبان العقل) . هل تذكر حال ذلك الفنان التعس ؟ . إنها حالى تماما يا صديقى . مع فرق واحد بسيط . هو أن عقلى باق كما هو - والعجيب أننى لم أجن إلى اليوم! ولكن (روحى) هى التى ذابت يا صديقى . نفسى . احساساتى . مشاعرى أحلامى . كل هذا يخيل إلى أنه ذاب ومات وتركنى متثلجاً بارداً لا أستطيع أن أحس شيئاً .

تصور أى هول يكمن فى هذه الكلمات يا صديقى ! .. انسان لا يستطيع أن يحس . لا يستطيع .. أن يكون ما كان يوماً ما كتلةً متقدة من العواطف والأحلام والأحاسيس .

ان الجو المخيف الذى أعيش فيه قد قتلنى . وسأجن يوما . أو أنتحر إذا وجدت الشجاعة لذلك .

.. ولكن ! لا . مالك وهذا يا صديقى .. مالك وهراء نصاب، محتال قضى عامين طويلين يكذب عليك ويحتال عليك احتيالا غير شريف .

يا إلهى ! .. ما أقساك على نفسك ونفسى معا !

أتعد كل ما مضى بيننا خداعا . ونصبا ؟؟. انك جننت يا صديقى!

أكانت تلك الأيام التى قضيناها معا خداعا ؟ أكانت تلك الساعات الالهية التى تعانقت فيها روحى بروحك نصبا ؟ أكانت تلك الساعات التى قضيتها معك أنت وچانيت كلها زيفاً ورياء ؟

أكان كل ما مر بيننا خداعا متصلا دائماً ؟ !

رباه! اننى مجنون اذن! .. لقد كانت حياتى خلال العامين الماضيين

نصب فى شخص واحد هو أنت . لقد كنت أنت كل حياتى خلال هذين العامين . أفكانت هذه الحياة كلها نصبا . وخداعا مستورا أزيح عنه الستار أخيراً فى ضحكة غادرة فاجرة ؟

.. ان شهرا أو شهرين قضيتهما بعيدا عنك . قد صيرانى إلى ما أنا فيه الآن من موت واختناق وهول دائم .. ومع ذلك فكل هذا خداع . ورياء ؟ .

ولم لا ؟ أليست الحياة ذاتها خدعة كبيرة . رنانة . جوفاء ؟ .

معذرة يا صديقى إذا كنت لا أستطيع أن أكتب لك أكثر من ذلك . فلم يعد لى أقل صبر على الكتابة . والملل يقتلنى لمجرد امساك القلم . أو قراءة كتاب .

أكتب إلىّ إذا شئت . إنى أنتظر .

وفيـــــق

يا صديقى، هأنذا أكتب إليك، بعد مرور أكثر من خمسين عاما، فهل مازلت تنتظر ؟

أم أن كل شىء قد فات أوانه ؟

غريب أننى أذكر ذلك كله فى مساء ١٦ نوفمبر ١٩٩٣ ، فقط بفارق إحدى وخمسين سنة وستة أيام ، إذا صحّت الحسبة .

أذكر ؟ أهذه مما يدخل فى باب الذكرى ؟ أم أنها بلا زمن ، كما أهوى أن أقول .

هل أعترف لنفسى اننى كأنما كتبت هذا الخطاب بالأمس فقط ، أننى أكتبه الآن، اننى سأكتبه ربما بعد ستة أيام؟ ربما مع تعديل طفيف

فى النبرة ، لا غير ، ربما بتخفيف قليل من الصرخة ، يمكن ، لكن الصرخة هى هى .

هل أسخر من نفسى - قليلا - لأننى كتبت ، أو سأكتب هذا الخطاب أم أننى أشفق على نفسى قليلا ؟

لا أرثى لنفسى ولا أنكرها .

« الفؤاد صعبان عليه .. » فقط

صخور الأشياء - وما فى داخلها - حادة السنان ، ماثلة الآن بقوة.

ليست ذكريات - كما لا أنى أعيد وأزيد - بل هى بكر ، حارة الحضور ، لم تتثلم فيها حافة واحدة لم يخفت لها وقيد .

أقول لنفسى « بهدوء » - و « بصراحة » أيضاً ": يا سلام يا أخى .. ! لا ينقصك إلا عزف كمان حزين وأشجان القمر الطرى المسكوب .

وأقول لنفسى : لا .. لا .. حرام . ليس ذلك بصحيح .

كيف كنت أحمل ذلك كله - كأنما نسيته - إلى اجتماعات الحلقة التروتسكية ، فى شقة عبد القادر نصر الله وعبد الرؤوف نصر الله ، شارع عباس ، محرم بيه ؟ بعد ذلك بثلاث سنوات فقط !

كان فتوح القفاص ، بطبيعة الحال ، يأتى متأخرا عن الميعاد ، يضرب بكل «قواعد الأمان» عرض الحائط - كما يقال - ويدخل وهو يحمل الكتب والصحف الثورية الماركسية والفوضوية ، بالانجليزى ، جهارا نهارا ، ثم يقتحم النقاش - أو مجرد استعراض الأحوال وتقارير التطورات ، المحايدة الاخبارية - بجدل عال وسرف فى الحماسة، من غير داع اطلاقا، يقاطع ويشتم «يا حيوان!» ويعلن، من غير مناسبة،

ثورته على ماركس المستبد برأيه الدوجماطيقى القاطع فى حتميته ، ويدين لينين ، ويؤيد تروتسكى ، ثم يؤكد انحيازه لباكونين وكربوتكين وللفوضوية التى تنتفى فيها كل قطعية وكل سلطة فوقية ، هكذا ، كله على بعضه ، وبينما نحن نتكلم ببساطة عن تنظيم مظاهرة أو كتابة بيان نطالب فيه بتأميم قناة السويس أو نؤيد فيه اضرابا لعمال مصنع بولفارا ، كان يشطح بنا نحو سماوات النظريات العُلى ، ويهيم فى كل واد مع أفكار مجردة ومغوية ، والرذاذ من فمه الواسع يتناثر دون تورع ولا حرج .

ومع ذلك لم يُعتقل فتوح القفاص قط ، مع أننا جميعا - تقريبا - قد اعتقلنا أو حُبسنا فترات تطول أو تقصر ، باستثناء كامل الصاوى أيضاً الذي احترق به سريره وهو يدخن سيجارة ، بعد ذلك بسنة أو سنتين .

عندما خرجت من معتقل أبو قير كانت الحلقة التروتسكية قد انفضت وبادت وأمست أضغاث ذكريات ، وكان فتوح رفيقاً دائما أو شبه دائم على طول فترة صعلكةٍ ويأس وتخبط ، وبحث مستميت عن لقمة عيش ، فتوح يعهد إليّ بترجمة براءات الاختراع - ميكانيكية وكيماوية وهندسية معقدة وتكنيكية جدا - للمكتب الذى كان يعمل به الآن ، ويملكه ماجرى أوفرند اليهودى المالطى الاسكندرانى ، أكرش ، أجش الصوت ، طيب القلب الذي هاجر إلى استراليا بعد الثورة .

وعندما كان اليأس والسأم وعنف الضيق يطفح بى، فى أية ساعة

من النهار أو الليل تقريباً ، لم أكن أعدم أن أجد فتوح فى مكتب براءات الاختراع فى محطة الرمل ، أو فى الفريسكادور - قهوتنا المأثورة التى حل محلها الآن «عمر أفندى» فى شارع سعد زغلول - أو حتى فى قهوة الأشباح فى الخندق - الممر الضيق المعتم تحت سفح عمارة أوريكو الشاهقة . ومنه عرفت كيف أدخّن السجاير الانجليزية الفاخرة : كرافن ايه ، بول مول ، أو بلايرز فى علب معدنية رقيقة أنيقة مسطحة كل علبة بخمسين سيجارة ، ومعه ، ومع أحمد قنديل الرسام الذى أحبه ، ومع رضوان القفاص ، أخيه الذى كان يدرس الفلسفة فى كلية الآداب ، وأنطوان - أخ أوديت - الذى كان يعمل عندئذ فى «الميساجيرى ماريتيم» كنا نذهب إلى سينما مترو ، من تلاتة لستة ، ومعنا زجاجة ويسكى بلاك آند وايت مبططة ، وقَدَحين أم الخلول فى قرطاس ورق متين ، وفى عتمة الظلال والأضواء المتناوبة ، وبهدؤ وحرص وكياسة، دون صوت تقريباً، وبينما الصور وأحلام هوليود الجاهزة المعلبة تتخايل على الشاشة، تترى، نفتح أم الخلول ونمتص الهلام الطرىّ الذى يحتفظ فى كنِّه بملح البحر - وكأنه يحتفظ فى سر لحمه الحريف بموجه المكتوم، ونمرر زجاجة الويسكى نترشف منها حسوة بعد حسوة ، جافة قراحا ، ولم تكن السجاير ممنوعة حينئذ ولا كان أحد سمع بأنها ضارة جدا بالصحة، وكان طعم الكرافن ايبه بأم الخلول والبلاك آند وايت له مذاق ونكهة خاصة جدا، وكان طعم اليأس من كل شىء هو طعم استماتة اللذة المندثرة بمجرد سنوحها .

وعلى أن يده كانت مفلوتة العيار ، أو بسبب من ذلك ، كان فتوح أحيانا يبحث فى جيبوبه فلا يجد مليما واحدا - والمليم هنا ليس استعارة بل حقيقة لها وزنها ، المليم الأحمر الكبير - مثل ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى «لورانتوس» بعد جولة مرهقة فى شوارع الاسكندرية .

كنت قد خرجت من عملى (الذى ادعيت انه فى المتحف اليونانى الرومانى مرة ، أو فى شركة باتينيول مرة أخرى ، ولم يكن بهذا ولا ذاك) بعد الظهر . كان ذلك يوم الأربعاء - وكنا فى أواخر الصيف ، وكنت محبطا ويائسا وشديد الشقاء من الداخل ، لأن نعمتى حبيبتى لم تكن قد اتجهت إلىّ لا بتحية ولا حتى بابتسامة من بعيد ، بل كان فى نظرتها ما تصورته انكارا أو مجافاة نهائية ، ولففت على المظان المعتادة : أتينيوس والتريانون والفريسكادور وديليس وقهوة الاشباح وكازابلانكا وعلى كيفك ، فلم أجد أحدا .

قدماى ثقيلتان وقلبى ثقيل وأنا أدخل لورانتوس وأعبر إلى الحديقة المفتوحة . الدنيا حر ورائحة الچيجو والچامبون والمكرونة بالفرن تحمل إلى عبقا مغويا ومنفرا قليلا ، وفكرت اننى لم آكل من الصبح واننى مع ذلك غير جوعان ، ووجدتهم جميعا ، بشلة المعلم ، حول مائدة كبيرة مستديرة مفروشة عليها زجاجات البيرة ، والنبيذ الأحمر ، مفتوحة ، والأكواب نصف ملآنة نصف فارغة ، والمزّات فى أطباق صغيرة من الصينى الأصلى الملون بنقوش، قطع الكرشة الحمراء ، خشنة متعرجة الجلد وطرية المرأى ، والترمس الأصفر بحباته البهيجة،

شرائح الخيار ، والطماطم ندية ، ورقائق الچامبون لا تكاد شفافيتها تتضرج بحمرة خافتة شهية ، وغيرها من خيرات الله .

كانت أرضية جنينة لورانتوس مبلطة ببلاطات بيضاء كبيرة ، وبينها ممرات من الحصباء معشوشبة عليها حصى كبير له خشخشة تحت أقدامنا وأضواء كرات المصابيح الزرقاء على أعمدة رفيعة ، متناثرة على الموائد الهادئة ، وشجيرات حسنة التقليم لها كتل مربعة من الاغصان قوية الخضرة تظللنا ، وكان هواء سبتمبر ناعما .

أليست صورة ناعمة ، حتى لو لم تكن صحيحة ، فهى قائمة ، وحية ، أهى أيضا لا تعرف الزمن ؟

كان هناك رضوان القفاص ، وأنطوان ، وفوزى ، وأحمد قنديل ، وطبعا فتوح القفاص الذى دهشت لأنه كان صامتا ، لا يفح ولا يلعلع، يصغى إلى أخيه رضوان الغارق فى شرح قضية الفمنولوجيا وكيفية انحدارها من هيجل ، وكان واضحا انهم لا يسمعون له إلا بنصف أذن فقد كان تكنيكيا جدا فى مصطلحاته التى لقنها حديثا فى الكلية على يدى يوسف كرم ونجيب بلدى وكازنبيف .

عندما شربت - وأسرفت - انقلب النبيذ علىّ كما كان يحدث دائما وأنا مضطرب الحس ومضطرب القلب ، فذهبت أفرغه فى التواليت الضيقة اللامعة من النظافة ، وعدت أحس رعشة خفيفة فى جسمى وركبتى مخلخلتين قليلا وأعرف أن الدم قد انساب من وجهى، ولم أصغ كثيرا لتعليقات فتوح الفلسفية الانفعالية ، وهتافه بأخيه: «يا حيوان ! اسمع .. وافهم .. !» اذ يحاول أن يثبت - بصوت عال -

ان الفمنولوجيا عرفها أبو حيان التوحيدى قبل أن يعرفها هوسرل . كانت غرارة قلوبنا حارة .

جاءت لحظة الانصراف بعد منتصف الليل بقليل ، على غير رضى منا ، ولكن مواعيد الاغلاق ، فى زمن الحرب ، تحكم .

حسبها رضوان القفاص بسرعة فى ذهنه ، ووجد أن الحساب يبلغ ٣٦ قرشا وسبعة مليمات ، على وجه الدقة ، واتضح انه لم يكن مع فتوح ولا مليم ، ونفضنا جيوبنا حتى آخر مليم - كان فى جيبى بالفعل شلن وثلاثة مليمات ، وجمعنا على الترابيزة ، بين أنقاض المزة والأكواب الفارغة ، كومة صغيرة من القروش والملاليم هى قيمة الحساب بالضبط وبالتحديد النهائى الدقيق .

جاء ستيليو ، الجرسون الجريجى الطويل ، منحنى الظهر قليلا ، أنفه أقنى وخطوط وجهه حادة ، فى البدلة السوداء السموكنج والبابيون الأسود على قميص أبيض زى الفل ، ينظر بعينيه النافذتين الغائرتين إلى كومة الفلوس على الترابيزة ، لمّها ، عدّها ، أعاد عدّ القروش والملاليم الحمراء الكبيرة ، مرة ، ومرتين ، فقال له رضوان : «مظبوط يا خواجا ؟» قال ستيليو ، صوته مشروخ وعال وهو يخبط يدا بيد «مظبوط جوى .. ولا بكشيش .. ولا خاجة عشان ستيليو .. مظبوط!» واستدار وذهب وهو يتمتم لنفسه : «مضبوط يا خبيبى .. مظبوط!»

أين كان وفيق بسطوروس راقم فى هذه الحكايات ؟ لماذا لم يكن له هنا .. أى حضور ؟ هل كانت له شلته الأخرى ، ومنها فوزى وأحمد

صبرى وايهاب ونسوانهم ، وهل كانت له اهتمامات أخرى ؟ لم أكن ، بالكاد ، أراه فى تلك الأيام ، أظنه لم يكن يحب فتوح القفاص ، أو لم يكن يرتاح له ، على الأقل .

وكانت قصة أوديت وفتوح القفاص معروفة لنا جميعا ، ومقبولة ، بل نجد فيها شيئاً من الطرافة والانعاش والرَوْح عن النفس .

ولعل أوديت كانت تكبرنا بسنوات قلائل ، يمكن سنتين أو ثلاثة لا أكثر ، وكان فى وجهها خطوط المعرفة والخبرة المكبوتة التى لم تكتمل.

وكانا يتواعدان ، أحياناً ، فى الفريسكادور .

تأتى ، أنيقة ، محكمة الجسم ، ورشيقة ، على عينيها نظارة نظر حريمى مذهبه الاطار ، يداها فى قفازين أسودين من الجلد الغالى ، حذاؤها بكعبه العالى يرن بموسيقية متزنة فيها رصانة وفيها لمحة نزق على بلاط الفريسكادور الذى كانت مقاعده على شكل مقاعد الترام أو القطار ، متقابلة وثابتة ومنجدة ومكسوة بالجلد الصناعى المريح . كانا يشربان ، معنا أو وحدهما ، فنجان الكابوتشينو الذى اشتهرت جودته ونكهته الطيبة ، وعلى رغوته المزبدة مسحوق القرفة أو الشيكولاتة الناعم الذى يكسبه فى الفم طعما فريدا ، أو يأخذان كأسا سريعا من المارتينى الجاف ، ثم يذهبان وحدهما إلى السينما مثلا أو التريانون أو المونسينيور لعشاء حميم ولابد أن يكون فخيما .

ومع ذلك ، أو بعد ذلك بقليل ، كنت أواعد أوديت ، صديقين نلتقى فى سكارابيه فى ستانلى بيه ، أو فى سينما فؤاد لفيلم فرنسو

من أفلام جان كوكتو ، جان ماريبه ، رأيت معها «أورفيوس» و «تحت سماء باريس» ، وكنت أمسك بيدها فقط ، أحيانا فى عتمة السينما الأنيسة . لم أقبلها قط - مثلا - لم أعرف طعم شفتيها .

ذلك بينما كنت أخوض غمرات حب يائس يزلزلنى ويبعث فىّ نشوات وعذابات ، وربمانشوات العذابات كذلك ، لنعمتى النضرة الحيية منعشة الصبا صغيرة القد .

وبالتالى لم تكن هناك بينى وبين فتوح القفاص لا منافسة ولا غيرة ولا تقاتل ، كان مفهوما - على الأقل عندى - ان ما بينى وبين أوديت صداقة لا أكثر ، فهل كان هذا مفهوما عندها ؟ وهل كان مفهوما أن ما بينها وبين فتوح القفاص كان صداقة غرامية ، أم كان غراما ، أو أكثر ؟

ربمـــا .

وكانت أوديت تأتى للفريسكادور أحيانا مع آرليت، أختها الطويلة التى لا أذكر منها إلا شعرها المنسدل الغزير ووجها بيضاويا واسع الفم وقواما فارعا وشهويا ، على عكس أختها التى كانت منمنمة الجسم ، «مثقفة» المظهر .

هل كان فى زواج فتوح بآمال الحادة القاطعة ، مغربية الأصل ، وفى حبى لنعمتى ، كلانا ، فى الوقت نفسه ، خيانة مضمرة - أو سافرة - لأوديت ؟

ربمـــا .

بل كنت فى ذات الآن ، أواعد جارتنا فى الشقة اللى تحت ، فى

راغب باشا . كانت تترصد نزولى للشغل فى الصبح بدرى وتخرج من باب شقتها فى قميص نومها قانى الاحمرار، ضيقا يحبك بطنها وأعلى فخذيها، وذراعاها عاريتان وبضتان، كأنهما فخذان، تتفجران بلحم شهوى . ولعلنى الآن نسيت اسمها ، كانت ممتلئة بجسمها ، ومحتشدة بل محشُوَّة بغرامها الرومانتيكى الحسى معا ، وكنت أذهب بها إلى سينما لاجيتيه فى الإبراهيمية أو إلى جنينة البيتى تريانون فى آخر شارع سعد زغلول ، بعيدا عن الأنظار ، فهل كان فى هذه المواعدات المغامرات ما يشبه الثأر أو الانتقام ، مم ، ممن؟ أم جرفتنى اليها نوبات يأس واستهتار بقيم كنت قد خذلتها أو خذلتنى ؟

ما الخيانة ؟ وأين الاثم ؟ وهل هى هناك ، هل بادت ؟ أم أنها باقية ، لا تريم ؟

سماء الاسكندرية ، صافية الزرقة ، كانت تطفو تحتها ببطء سحابات بيضاء خفيفة لا وزن لها كأنها لا تتحرك على سطح بيت فى شارع الاسكندرانى الأعمدة الرخامية الكورنتية تتناوب فى صفوف طويلة مع أعمدة الجرانيت الحمراء المشرجة بشرايين سوداء منشعبة غارقة قواعدها فى مويجات البحر المخضرة والنقوش الهيروغليفية تقول لها بالخط المقدس أسرارا لا تقص تحكى عن أمجاد غابرة ولكن ثابتة إلى الأبد فى قلب الحجر المدور المصقول كم من الأيدى الحانية الخاشعة نعّمته والكتابات القبطية موجات مزهرة بالاغصان المعرشة ومثقلة بعناقيد العنب ومزامير پان وداود معا زرقة الكوبالت الفرعونى بين اللازوردى والكحلى العميق تضيئها نجوم هندسية تومض

بالطزاجة كأنها فى أول يوم للخليقة وهى فى كِنّ الأعمدة تحت سقف السيرابيوم الساجى بحر سماوى ساكن السطح محبوس فى السماك العلى لا ينسكب موجه المرصود كأنما تجيش فى دخيلتها قدسية غير معلنة وإذا هى تنضو ملابسها فى الحرم المكنون وفى نور ينبجس من قلبها من هيكل مكرس إلى الأبد من عين واحدة نفاذة سيكلوبية تخلع القستان الخفيف أولا ثم تخطو قدماها وتنوس ساقاها فى بداية رقصة صامتة النغم لا يسمع جرس موسيقاها إلاها نايرة نيرة بنجوى كونية ثم تميط عنها السوتيان ويتحرر ثدياها الصغيران تحت أعين أسماء الآلهة المحفورة فى الجرانيت الأسوانلى المصمت بدمائه السخنة وفى رخام كرارا الناصع بلدونته الملساء وفى عمق الجسم المبذول وإذا هى الآن عارية تماما تنسل بين رموز القداسة منسابة فى رقصها رمزا آخر لقداسة الجسد الأنثوى الذي انسجمت فيه جثمانيته وسرائر دخائله المحززة معا لم يعد ثم حرص دنيوى بل سخاء كامل سَرَف العطاء بلا ضن فى موسيقى تموُّج الجسد الواحد المتعدد المتكرر بلا انتهاء المسفوح عن طواعية قرباناً بلا حساب .

ضربات موج الصبا فى «نوّة المكنسة» على رصيف أبيض يظل ساذج البراءة وناصع الحجر انهمار المطر الذى لا يغسل شيئاً ولا يثبت شيئاً ستارة مائية مزدوجة تطس الجدران العُتيّة التى لا تنهار وعصف الريح لا يقتلع نخيل الصبوات القديمة المورقة المثقلة بتمر خصيب يتخبط سعفه بحفيف أجش مضطرب النغم عذب وجارح الخشونة وهناك على البعد قلعة قايتباى التى لم ترمم بعد ولا وصول إليها أبدا عبر لجة السنين وهجمات بحر اللازمن .

لا وصول إليها ؟

٥- أمواج غائمة فى السماء

كأنما القطار يخترق عاصفة رعدية ، ونحن على وشك الوصول إلى محطة سيدى جابر .

ومض البرق يشق الفضاء ، منشعبا وخاطفا ، يضىء ركام السحاب الأسود لحظة ثم ينطفىء لتجىء بعده جلجلة تهدم السماء فى قعقعة متجاوبة الأصداء ، جليلة ، والقطار يقاوم عصف الريح وكأنما يصطدم بها وهو ينفذ فى حضنها المدوّم .

وكأنما رامة بجانبى ، كما كانت فى ذلك القطار الذى كان يشق نفقا طويلا مظلما ، وهى فى حضنى ، رأسها إلى كتفى ، أسلمت نفسها إلى اغفاءة قصيرة ، أحس جسمها الدفىء بالحنو والاستسلام إلى جسمى .

وكأنما أقلب كتاب مذكراتها يومياتها ، ليس فيه كلمات ، بل سور ملونة مرسومة بحذق ومسلم بها ، مأخوذة كما هى على علاتها .

فى رسمتها ؟ وماذا تقول باللون والخط وتدوير النقش ورموزه متجرة متشابكة ؟

عالم تقل بالكلمات .

وكأنما اختفت من جانبى ، بلا سؤال ولا غرابة .

خبت العاصفة ، وانحسرت ، والقطار يمضى الهوينى ، يبطىء وهو يدخل المحطة ، وليس فى يدى إلا هذه الصور التى بهتت ألوانها ، كتاب مذكراتها لا يذكر شيئاً عن الحب الباقى ، هذا الحب الذى

كانت تخشى عليه من الزوال بسطوة الزمن ، قالت «حبنا» ، لكنه لم يزل ، وما زالت مع ذلك للزمن سطوته . انتهى الأمر اذن ، كأنما قلت لنفسى ، بشىء من الحزن فقط ، هذا الحب باق ، لكنه بلا جدوى ، ككل حب ، ليس هناك فى حسى تفجع ولا التياع ولا مضض ، قليل من الحزن فقط .

دخل - فى الحزن - بقامته الطويلة ، أنيقا ، ربطة عنق بابيون سوداء لم أكن قد رأيته بها قط . من ؟ دار فى ذهن الحلم سؤالى : ماذا ؟ ألم يمت ؟ ألم يكن قد قتل ؟

قالت لى ان الصحراء الممتدة الفسيحة البراح تسحرها ، ان العراء المطلق تحت السماء يفتنها ، لا أحد ، لا زرع ولا نبات معشوشب حتى ، ولا شىء .. الرمل المتموج فى وهاده وكثبانه قليلة الارتفاع وسهوبه المبسوطة المدحوّة والهواء النقى حتى ليكاد أن يكون جارح الصفاء ، هذا هو ما تموت فيه حبا ، عندئذ ، قالت لى ، تشتهى أن تتعرى ، أن تنضو عنها كل ما هو خارجى مقحم ، كما تشتهى أن تسمو ، وتصفو ، وتخلص نقية بلا شائبة ولا وهم عكارة ولا كدر ، أمام الرموز الهيروغليفية ، تحت نجوم نوت المشعة حادة الخطوط فى زرقة اللازورد العميق بلا قرار ، قالت لى (من قالت لى ؟) : «رشوت خفير المعبد ، بل تحببت إليه ، حتى خرج ، وابتعد ، وخلوت إلى هيكلى وعبادتى ، فى عتمته الخفيفة بين الأعمدة الجرانيتية المدورة التى تهمس إلىّ بألغاز الأبد واللاموت ، خلوت إلى عرى جسدى أمام الأقداس ، من غير رجل ولا رغبة فى رجل ، بل هو خلوص ونقاء » .

قالت ما كانت قد قالته هى الأخرى . من التى قالت ؟ هى أم هى الأخرى ؟

كانت السماء غائمة والبحر مضطربا وأنفاسى متقطعة من صدمة الهواء على الكورنيش وأنا أعبر الشارع المبلل من رذاذ كان قد أقلع من الصبح ، ورشاش موج مازال يطس الصخر ، تحت ، ويعلو . يخبط الماء حافة الكورنيش ويتناثر ، محبطا ، فوق السور الحديدى الذى يلتمع .

وكان عبور الشارع خطرا وإن كانت السيارات قليلة لكن الأرض تحت قدمى زلقة .

عندما وصلت الرصيف وجدته فجأة أمامى .

بطرس طانيوس .

لم أكن قد رأيته من سنوات . آخر مرة لقيته فيها كان فى قسم الإنجليزى فى كلية الآداب عندما انتقلتْ إلى المحمودية ، وحييته تحية عابرة ، ومضت بنا الأيام كل فى طريق .

لكننى الآن وأنا أسلم عليه ، أمام باب البناية الجديدة الشاهقة فى جليم ، كأننا تحت سفح صخرة هندسية سامقة ولكن قميئة على نحو ما ، غير مقْنِعة ، وهو يسلم بصوته النحيل الرفيع شيئاً ما ، صوت مدرس محترف فيه رنة معدنية طفيفة ، تذكرت فجأة أول درس فى أول يوم لى فى مدرسة النيل الابتدائية التابعة للجمعية القبطية الكاثوليكية .

لابد أن ذلك كان فى ١٩٣٢ .

جئت من روضة الكرمة القبطية الارثوذكسية ، وقالوا لى : هنا مكانك . كنا اثنين على التختة الأولانيّة ، ولم تكن الحصة قد بدأت، وكنت خجلا وربما مرعوبا فلم أكن أعرف أحدا حولى - كنت طفلا فى السادسة .

كان درج التختة أمامنا مشتركا ، له غطاء واحد كبير يرفع وينزل على قسمين يفصل بينهما حاجز خشبى ، قسم لى وقسم لزميلى الذى لاحظت على الفور أنه أشقر الشعر قليلا وان كان أجعده ، أبيض ، ومدموكا .

رفعت غطاء الدرج لأضع فى «دُجْى» حمل الكتب الذى كان يربكنى ، فارتفع العطاء وكشف بذلك قسم زميلى من الدرج ، لم أكن أعرف عن زميلى شيئاً وترددت حتى أن أسأله ما اسمه ؟ وعندما نزل الغطاء سقط فجأة من يدى على كشكول زميلى .. التوى الورق واعوج الكشكول وأحسست طبعا اننى اقترفت جريمة .

هل كنت أرى فى المدرس الذى أخذ رأسه صلع خفيف انحسر معه شعره الأكرت الفاتح ، وعينيه المنتفختين قليلا ، ووجهه الممتلىء المدور ، ذلك الصبى الذي التفت إلىّ بغضب ومفاجأة ، فى أول استفتاح للسنة ، وهتف بى : «مش تحاسب .. انت أعمى !» ثم دخل مدرس الانجليزي قيام وقمنا تعظيم سلام جلوس طلعوا كتاب الانجليزى قولوا ورايا كات مات ، وكان ذلك مألوفا لى وأنيسا كنت قد حفظته فى الروضة .

فى الفسحة قال لى زملاء جدد أن الولد الذى كسرت له الكشكول

هو ابن أخ ناظر المدرسة بذات نفسه . هل كانت البداية - مثل المسيرة كلها حتى النهاية الوشيكة - خطرة وزلقة ومنذرة ، مهما كانت تافهة ؟

لكننا أصبحنا أصدقاء وزملاء ، افترقنا فى المرحلة التالية فقد استمر بطرس طانيوس فى مدرسة النيل الثانوية فى غيط العنب ، وذهبت أنا إلى العباسية الثانوية فى محرم بيه ، ثم عدنا فالتقينا فى الجامعة وان كان هو فى الآداب ، وأظن أنه كان قد نسى تماما حكاية الكشكول المعووج وان كنت أنا لم أنسها - كيف يمكننى ؟ - ولم أذكّره بها ، ولو على سبيل الضحك .

قبل أن تقام مدرسة النيل الثانوية كان محلها - عبر شارع الكروم، فى مقابل المدرسة الابتدائية - مبنى منخفض طويل خشبى السقف، كان كنيسة للأقباط الكاثوليك ، المقاعد الخشبية الجديدة الناعمة على صفين ، النوافذ العالية ذات الشراعات الزجاجية الملونة ، عتمة خفيفة ، رهبة الصور والتماثيل القدسية الملونة البدائية على نحو ما ، والهيكل المنسدلة عليه ستارة قطيفة حمراء أرجوانية .

هل كانوا قد دعوا تلاميذ المدرسة الابتدائية لحضور القداس ، صباح الأحد ، أم كانت تلك مناسبة خاصة ؟

وذهبت ، طبعا ، مع أننى لم أكن كاثوليكيا .

ولا فى أى وقت من الأوقات .

أم أن الذاكرة - أو الخيال - يلعبان بى ؟

كان القسيس الصعيدى أسمر الوجه صلب الملامح يلبس التوب هات

الرومانى الكاثوليكى ، قبعة عالية عالية مدورة سوداء تنتهى حافتها العلوية باتساع قليل ، والثوب الأسود السابغ ، عليه وشاح أبيض خفيف مشغول ، ودهشت بل فوجئت قليلا ، كان ذلك على خلاف ما عرفته فى كنيستنا الارثوذكسية ، حيث ملابس القسس بلدية ، ويضعون على رؤوسهم عِمّة سوداء ، وتنبهت إلى أن القداس والتراتيم كانت تتلى باللاتينية فقط ، لا القبطية والعربية ، لابد أن الطقوس كلها فى الثلاثينات الباكرة كانت وفق تقاليد كنيسة روما .

وعند تناول القربان فوجئت مرة أخرى بأنه كان أقراصا صغيرة ، رقيقة مدورة ، متساوية الحجم والكثافة والتدوير ، قلت : «مصنوعة بالماكنات» ، أما القربان جسد المسيح الحى الذى أعرفه فكان قطع الخبز البلدى المخمر الملىء ، لقمة تختلف عن لقمة ، لكل منها جسدانيّتها وكثافتها وحميميتها .

لم أحضر قداسا كاثوليكيا قبطيا بعد ذلك قط . أعرف أنهم الآن يتبعون الطقوس القبطية ويقولونه بالقبطية والعربية ، لكنى أحس داتما وربما عن خطأ - بلا شك عن خطأ - انهم ليسوا أبناء بلد ، أن فيهم شبهة غربة عن الوطن الأم . أنهم تَبَع وليسوا الأصل ، كما عندنا .

بعد سنين طويلة طويلة سوف أقرأ فى «الأهرام» يوم ٢٧ مايو ١٩٨١ :

شكر وذكرى الأربعين للمربى الكبير

الاستاذ ينى سالم

ناظر مدارس النيل بالاسكندرية سابقا

تتقدم الأسرة بخالص الشكر للمتفضلين بمواساتها بالحضور والنشر والبرق وتخص بالشكر السيد رئيس الجمهورية ونائبه والسادة نواب رئيس الوزراء والوزراء ومحافظ الأسكندرية ورئيس وأعضاء مجلس الشعب ورجال التعليم وكلية الهندسة ومركز بحوث الهندسة الصحية وأسرة التأمين الاهلية والاسكندرية للزيوت والصابون وهيئة الطيران المدنى وتفتيش ومدرسة أشرف الخوجة كما تخص بالشكر الجزيل غبطة البطريرك الكاردينال اسطفانوس الأول والاكليروس ورئيس وأعضاء الجمعية الخيرية القبطية الكاثوليكية وشعب الاسكندرية وسيقام قداس وجناز الأربعين على روحه الطاهرة الساعة العاشرة صباح الجمعة ٢٩ الجارى بكنيسة الكاثوليك ٢٩٨ شارع بورسعيد كليوباترا بالاسكندرية تلغرافيا عائلة المرحوم ينى سالم بالاسكندرية

وسوف أذكر الرجل الذى كان فارع الطول ، ومهيبا ، حنوناً أيضا بشكل ما ، هل كان بالفعل عم صديقى بطرس طانيوس ، أم خاله ، أم قريبا وثيقا ، نسيبا للعائلة مثلا ، ماذا يعنينى - أو يعنيكم - من التوثيق والتدقيق ؟ أعرف فقط أنه كان على صلة قربى به ، سوف أذكر كيف صعدت إليه سلالم الباب الجانبى الذى كان فى شارع الكروم أمام مبنى الكنيسة الكاثوليكية الخشبية ، سلالم مرهوبة لا يدخل منها إلا الناظر ، والمدرسون أحيانا .

كان أبى يمسك بيدى ونحن نرقى الدرجات الرخامية المحصورة بين حائطين من العتمة النظيفة الخافتة ، ولأقدامنا صدى خفيف على الرخام ، سوف ندخل على حضرة الناظر - الأستاذ ينى سالم - فى غرفته التى كانت عندى ، طوال سنوات أربعة ، شبه حرم مقدس . وسوف يقوم بنفسه ، شامخا ودمثا ومحنى الظهر قليلا ، يخرج من وراء المكتب الأنيق الصغير المرتب بخشبه الموجنى اللامع ، ويسلم - باليد - على أبى ، ويسلم على أنا أيضا باليد ، تلك من أسعد لحظات حياتى وأملأها بالإثارة والانفعال ، سوف يهنىء أبى لأن ابنه قد تخرج بتفوق من المدرسة الابتدائية ، وكان ترتيبه مائة وثلاثة من بين اثنى عشر ألفا وتسعمائة وتسعة وخمسين فى القطر كله ، فى ١٩٣٧ .

تلك من اللحظات التى يحس فيها أبى بالفخر ، والاعتزاز .

سوف تعوضنى تلك اللحظة عن يوم الصورة التذكارية للسنة الرابعة الابتدائية .

كان قميصى مفتوحا ولم أكن ألبس كرافتة ، كعادتى عندئذ ولمدة طويلة وربما حتى الآن ، وأرغمنى مرقس افندى مدرس الانجليزى الذي لم أكن أحبه على أن أذهب للبيت وألبس كرافتة للتصوير ، قال لى كلاما لا أذكر عنفه لكنى أذكر أن عينى امتلأتا بالدموع لكن لم أبك، وأجد أن عينى - فى الصورة التى أحتفظ بها للآن - كانتا منتفختين من أثر دموع الحنق والغيظ والحس بالامتهان - التى لم تنسكب مع ذلك ، على سبيل الكبرياء . وأجد أن ربطة الكرافتة كانت كبيرة وغير محكمة بالمرة على خلاف بعض زملاء الفصل - الكبار - الذين كانوا على سنجقعشرة ، غاية فى الأناقة والضبط .

كنت قد خرجت مع هؤلاء الزملاء «الكبار» إلى شارع فؤاد ، والشلالات ، فى مظاهرة ترحب بالملك فاروق الذي لم يكن يكبرهم كثيرا ، ثم صعدنا إلى ربوة الشلالات - بعد المظاهرة التى كان يحرسها بلوك النظام بعصيهم القصيرة الكاكى والشورت الطويل لغاية الركبة والألشين الملفوف على الساقين ، فى شاحناتهم الفورد مربعة الخطم .. فهل كان معنا بطرس طانيوس ؟ لا أذكر ، ولا أظن . بلى . كان معنا ، لاشك .

ولما كنت قد تأخرت فى العودة للبيت عن الميعاد المضبوط الذي كانت أمى ترصده لعودتى ، بدقة ، ولما قلت لها عن سبب تأخرى ، بأمانة ودون معاذير أو تعلات ، لم أسلم - طبعا - من التأنيب الحاد ومن علقة سخنة موجعة . لكننى - طبعا - لم أبال ، وكنت سعيدا وفخورا على نحو ما ، ولم أتوان عن الخروج فى مظاهرات أخرى ،

أيامها ، فى ذكرى وعد بلفور، وفى هذه المرة كان عساكر بلوك النظام هم الذين ضربونا وشتمونا بالآباء والأمهات شتيمة موجعة ، وكنت ، مع ذلك ، سعيداً بأننى كنت فى المظاهرة ، وفخورا بالتأكيد .

ذلك فى ١٩٣٧

وفى الاسكندرية ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ (فقط بعد خمس سنين ... !)

عزيزى وفيق ...

أحقا أنا أمقتك . وأبغضك ؟ .. أحقا اننى أحقد عليك ؟ ..

كلا .. كلا .. أى سخف ! .. اننى .. كما كنت ، وكما سأظل دائما ، أحبك ..

ان ماخيل لك ، ولى أنا أيضا ، أنه المقت والكراهية ليس إلا الحب نفسه ، الصداقة الجريحة .. تنزف دما وصديدا .. لتعود أشد نقاء .. وأكثر انصهارا ..

نعم .. انها لم تكن الا نوبة ألم هوجٍ مجنون ، فقد الوعى بنفسه ، فانطلق جائحا .. متنكرا بصورة مخيفة بشعة ..

يا لله .. كم هى مروِّعة.. تلك السخرية.. سخرية أحاسيسنا بنا .. ألسنا .. كلانا .. روحين مريضين معذبين ؟ نعم .. والارواح المريضة .. كم هى معقدة .. ومظلمة .. ومروِّعة .. هل تصدق .. ؟ .. اننى شعرت بلذة رائعة شريرة .. حينما قرأت صرخاتك الموجعة .. فى خطابك الماضى .. وتلا ذلك مباشرة ، شعور ساحق ، معذب .. عنيد .. بالألم .. والانسحاق .. وتأنيب الضمير ! ..

نعم .. نعم .. اننى قاسٍ .. قاسٍ إلى حد عجيب .. عليك .. وعلى

نفسى .. قاس .. لأن الألم يدفع المرء إلى القسوة ، وإلى الجنون .. ان التعاسة تستطيع أن تحيل الحياة جحيما .. انها .. كما قال تشيكوف .. تفرق بين المرء والمرء .. وتترك المرء وحيدا .. منسحقا .. فى عالم كبير موحش .. جامد مخيف .. وأنا .. لقد كنت تعسا .. ولذلك صرت أنانيا .. قاسيا .. مخبولا .. الصديق الوحيد .. الذى فهمنى .. كأقصى ما يستطيع البشر أن يفهموا ، لأننا .. لا نستطيع أن تفهم أنفسنا .

الصديق الوحيد الذى أحبنى .. لقد ذهب .. هكذا اعتقدت .. بكل ما فى النفس الطعينة الحساسة من قوى .. وتجسمت الفكرة كائنا حيا .. جلاداً .. قاسيا .. فى يده سوط عذاب ... !! ...

وإلى جانبى .. أينما أدرت بصرى .. انتصب جلادى .. وعلى فمه قهقهة مجنونة مذهلة .. مذعرة .. نعم .. كان الكون كله .. يبدو فارغا .. واسعا .. موحشا .. رهيبا .. صامتا .. كسجن فسيح ..

يا الهى .. هل أنا ملوم ؟ .. لست أدرى ..

وفى غمرة عذابى .. خيل لى أن الصداقة ان هى إلا مقت ..مقت يشتملنى بجو أسود .. ثقيل كجو كابوس .. وفى حمى آلامى .. تدفقت من قلبى الدماء .. ومن فمى سيول الهذيان ..

هل قلت لك إن صداقتك لم تكن إلا رياء .. وزيفا .. وخداعا ؟ ..

هل قلت لك انك نصاب .. محتال .. خادع ؟؟ ..

هل حقا .. ؟؟ ..

لست أدرى .. اننى كنت محموما .. كنت تعسا .. وكنت معذبا ..

فهل تلومنى ؟ ..

كلا .. كلا .. لقد انتهت تلك الفترة الشقية .. لقد انتهى كل هذا الهراء .. اننا كنا نعذب أنفسنا .. فى اصرار .. وجنون ..

فهل ستنتهى .. تلك السخافة .. أخيرا ؟ ..

أجب .. يا صديقى .. أجب سريعا .. فاننى - وأنت أيضا - إننى لا أستطيع أن أعيش إلا إذا عرفت .. وأحسست .. أن هناك قلبا .. فى هذه الحياة .. يفهمنى .. ويفكر فىّ - أحيانا . بعطف .. وحب .. نعم .. لا أستطيع ..

أجب .. يا صديقى .. إننى فى لهفة محمومة .. إلى خطاب منك .. رقيق .. جميل .. عذب .. كالعاطفة التى تعمر صدرينا .. خطاب .. كتلك الرسالات الحلوة .. التى كنت أقرأها لك .. منذ زمن .. يخيل إلىّ انه بعيد .. بعيد .

صديقى ...

لست أدرى .. هل تستطيع أنت أن تخبرنى .. لماذا كنت أفكر فيك كل مساء .. وكل يوم .. ولماذا لم أستطع أن أكتب لك الا الآن .. ؟ .. على الرغم من ذلك ؟ ..

وهل تستطيع أن تعرف .. لماذا .. يصوغ المرء من عذابه وثنا .. ركع أمامه .. ويبكى .. فى انسحاق .. وفى تلك الدموع .. يهتف لصلاة .. الصامتة الصارخة .. الغريبة .. التى تتردد فى النفس .. م تتحطم .. فى أنغام متهاوية .. لتجعل من الشقاء آلها .. ؟ ..

لماذا ؟ .. هكذا كنت فى العشرين يوما الماضية ..

هل تعرف ماذا كانت النتيجة ؟ ..

اننى الآن أفزع من نفسى .. اننى لا أجسر على أن أحدق فى أعماقى .. بأعين واسعة مستطلعة .. فان الظلام الذى يتكوم هناك .. يخيفنى .. ويذهلنى .. ويشعرنى بالدوار .. كمن يطل فى أعماق هوة لا قرار لها .. اننى الآن أجبن عن مواجهة نفسى .. عارية أمام نفسى .. لأننى أرتعد .. وأرتعش .. وأنطلق مذعورا .. كمن يفر من ظله .. ولا يدرى أنه ينقله معه .. ولو انكمش فى أعماق الظلمة ..

ان شعاعا واحدا من النور المرتجف المتقع .. كفيل بأن يظهر الظل .. وأن يملأ الهارب .. بالهول والمرارة .. والجنون .. ومع ذلك .. وعلى رغم كل شىء .. أليس العذاب مقدورا لنا .. واللعنة مكتوبة على جباهنا ؟ .. نعم اننا سنذرع الحياة .. محدقين بالمجهول .. متأملين باللانهايات .. باحثين عما لا نعرف .. «ناسين .. ناسين دائما .. ان لا أجنحة لنا فنطير .. واننا موثقين أبدا .. إلى هذه الناحية» .. كما يقول طاغور .. «ناسين .. ناسين دائماً .. أننا نجهل الطريق .. وأننا لا نجد الفرس المجنح .. وأن فينا الفتور .. وقلوبنا .. ما تنفك تتخبط فى تيهاء ..» ..

إننا نفرّ دائما .. من الواقع .. إلى الآلام .. إن الألم ليجعلنا ننطوى على أنفسنا .. نبحث .. وننقب .. فى الأكوان الغريبة المجهولة .. اننا نستشعر الظمأ دائماً .. إلى ما وراء الحُجُب .. اننا نحس الشوق دائماً .. إلى ما وراء المغَيَّب .. وما تنفك نبحث عن كل محرم ..

من الأفكار .. والمشاعر .. والأحاسيس .. لكى نستلب .. ونقتطف ونحس الحياة .. وما وراء الحياة .. بكل آلامها الجبابرة .. وأفراحها الخفيفة المرحة المتألقة .. وسخرياتها .. وجمالها .. وبشاعتها .. وروعة تعقدها .. ألسنا نحس الحياة .. ألسنا نظمأ إليها .. فى جنون .. إذا افتقدنا فيها روعة عرفناها من قبل .. حتى ليخيل إلينا .. أننا نحس الموت بعينه .. والجمود .. والملل .. والفراغ .. الفراغ القاتل الكبير .. ؟ .. نعم ان الظمأ إلى الحياة .. هو ما يخيل إلينا أنه الجمود .. وأنه الموت ..

لذلك فلنبحث عن الحياة .. الحياة الرفيعة السامية .. فى أعماق أنفسنا الحية .. الخصبة .. العامرة ..

نعم .. يا صديقى .. ان فى نفوسنا أكوانا .. انها الانسانية كاملة .. تتمثل .. مركزة .. فى أعماقنا .. لنبحث عن الحياة .. بين روائع الفكر .. والفن ..

لنبحث عن الحياة .. بين الآلام .. والعذاب .. الذى يطهر .. وينقي .. ويخصب ..

لنبحث عن الحياة .. ولنمزق قبورنا .. ولنرتفع .. هاتفين : أيها الموت أين شوكتك ؟ أيها القبر أين سلطانك ؟ كما هتف المسيح .. ابن الانسان .. الانسان الذى فهم الإنسانية .. وأحبها .. وتألم لها .. وقدم حياته .. ذبيحة .. ودماء محرقة ..

لنتمرد .. ولنثر .. ولنحطم القيود التى تنسجها حولنا نفوسنا .. لنصعد إلى السماوات .. ولنهبط إلى الجحيم .. ولنكن من الطبيعة

كلها عينها الصافية .. كما قال جيو ..

لا أريد أن أكتب كثيرا .. وان كنت أتمنى أن أظل أكتب طوال الليل .. حتى الفجر .. !! ..

فأنت تعرف جيدا .. ذلك الجو المقدس المعبود .. الذى يعيش فيه المرء .. حين يكتب .. وحين يجعل من مشاعره وأفكاره وأحاسيسه .. كائنات حية .. تملأ الحياة حوله .. حرارة .. ونبلا ، وجمالا ، أنت تعرف جيدا .. لكننى أريد أن يكون خطابى قصيرا .. نسبيا بالطبع .. لكى أكتب لك .. فى فترات قصيرة متقاربة .. وطبعا ذلك لن يتم .. إلا بتعاونك أنت .. فيجب .. يجب أن تسرع فى الرد .. لأنك بذلك - إذا استعملت تعبيرا لك - «تسدى خدمة انسانية جليلة ..» .

أنت لا تدرى أو تدرى على الأصح - تدرى تماما - ذلك التلهف المعتصر .. الذى أبحث به .. كل صباح عن خطاب لى .. فى قائمة البريد .. وأنت طبعا لا تريد أن تنتقم منى .. ؟ .. هل تريد ؟ ..

وأحب أن أنهى إليك بعض أنباء .. قد تهمك ..

لست أدري ماذا حدث لى .. حتى أصبحت أكتب الآن قصصا صغيرة .. وقطعا شعرية منثورة .. على نمط عجيب .. لم أعهده فى نفسى ..

ان الآلام التى كانت تصهرنى .. وماتزال .. توحى إلى .. بأشياء جيبة .. فمثلا عكفت على الكتابة .. وعلى الحلم .. كتبت

قصتين : «الأبله» .. و «الأوثان» .. وكتبت شعرا منثورا .. وسوف أبعث بها اليك .. إذا شئت .. وإذا وعدت وعدا قاطعا بأن تردها برجوع البريد .. لأننى غالبا .. بل ودائما .. لا أستطيع سوى الكتابة مرة واحدة فقط .. وأحس بضيق شديد .. وملل قاتل .. حينما أحاول أن أنسخ منها صورة ثانية ..

هذا من ناحية .. ومن الناحية الأخرى .. فاننى أقرأ الآن .. كالعادة .. فى جنون .. فقد قرأت ما يزيد عن عشرين كتابا باللغة الإنجليزية .. فى فترة قصيرة جدا .. حتى خفت على نفسى .. ألا أستطيع أن أكتب باللغة العربية .. مادامت كل أفكارى ترتسم أمامى .. باللغة الإنجليزية «اللعينة» .. !! . هذا تحدٍ .. أليس كذلك؟.

وقد ترجمت عشر قطع لشيلى .. وثلاثا لكيتس .. وعدة قطع لتاغور ..

وعلى فكرة .. قرأت عددين من المجلة الجديدة .. أحدهما عن الفنون فى القرن العشرين .. والآخر عن الأدب المصرى المعاصر .. وسوف أحدثك عنهما فيما بعد .. أو .. وهذا ما أستحسنه .. خير لك أن تطلبهما من ادارة المجلة الجديدة نفسها أو من دار الكتب الأهلية بميدان الاوبرا .. عندكم بالطبع .. هما عددان نفيسان حقا ..

وقد يحزنك أن تعرف .. ان صخرة ستانلى .. قد تلاشت إلى الأبد .. من الوجود ..

تسألنى كيف؟..حسنا .. لقد رأت البلدية .. بثاقب بصيرتها النيرة

.. أن تقيم عليها العشش الخضراء المعروفة .. فى صفوف منتظمة .. بعد اصلاح كثير.. وبذلك ضاعت وحشة الصخرة.. وجمالها الطبيعى.. وأناقتها الوحشية .. لكى تستبدل بها الاناقة المنظمة المنسقة المملة ..

أنا الآن لا أرى جورج إلا نادرا .. وإن كنت أرى سامى باستمرار .. ومن العجيب أنك دائما تقرنهما أحدهما بالآخر فى أحاديثك .. بكل بساطة .. وبكل جرأة .. كما يستطيع المرء أن يقرن الفراشة بالطاغوت .. أو شيلى .. بحافظ ابراهيم !! ..

أرجو .. وألح أن تبعث إلىّ .. بكل ما يخطر فى جمجمتك .. من آراء .. ومشاعر .. وحوادث .. وأقاصيص .. ربما تكون قد كتبت ، وعلى العموم .. بصداقتك التى أنا فى أشد الحاجة إليها ..

تحياتى إلى جانيت ، وأملى أن تنسى كل الهراء الذى كتبته فى رسالتىّ الماضيتين .

وأنا فى إنتظار خطاب رائع حافل .. «زىّ زمان» .. وبسرعة .. بسرعة .. بسرعة .. !!

وأخيرا تحيات وأشواق ..

المخلـــص

(.....)

أنظرُ الآن ، بعد خمسين سنة أو أكثر ، وأعرف أن ذلك الصبى ، وذلك الفتى، مازالا هناك، يقطنان ركنا فىّ ، مازالا ينظران إلىّ بتوجس من لا يعرف إلامَ المصير وكيف يكون المآل ، مازالت فيهما حياة عنيدة خاصة، ليست ذكريات، هى، كما أقول باستمرار ، الآن ، هى الآن.

القاهرة فى ٢٣ سبتمبر ١٩٩٣

عزيزى وفيق

انقطعت بنا السبل منذ سنوات ، ها أنذا أكتب لك ، استجابة لطلب صديق عزيز ، عن «المرأة» التى لم أصدق قط أنها «وعاء للحمل وللولادة» ، ولا أنها مجرّد أداة للتكاثر ، ولا موضوعا لمتعة الرجل ، ولا هى كما قيل عن المرأة فى كتاباتى ، قدّيسة وعاهرة فى وقتٍ معا .

ألم يقل ميخائيل من زمن بعيد : «أريد جسدك وسماءك القاسية معا ؟» ألم يقل : «أريد الحرية ، لا حريتى ، بل الحرية معك».

ألم يقل ما معناه أنه يعرف مع رامة الندّية الكاملة لا فى فعل الحب وحده بل فى فعل الحياة نفسه .

صحيح اننى لست ميخائيل ولكنى شبيهه ورصيفه .

أُذكّرك بما قال جمال شحّيد عنى فى مقالٍ له لم يصلنى إلا جزء منه ولا أعرف متى ولا أين نُشر : «انه يطرح إشكالية الذكورة والأنوثة دون تحيز للذكورة ، لا بل يرى فى الأنوثة الطبيعية المتوازية سمات إيجابية تتفوق على بطريركية الذكورة التقليدية» .

ليست المرأة عندى إلاهةً ولا جارية .

ليست قنيصة ، ولستُ صيادا .

ليست موضوعا ، ولا تمثالا ينفث فيه خالقه الحياة ، ويهوى ما صنعت يداه .

ليست أماً بديلة يهرع إليها طفل مذعور ملهوف وليست طفلة يحنو

عليها أب جَهم الحنان .

حتى وان كان فيها شيء من ذلك كله أو بعضه ، كما يكون شيء منه فى علاقتها هى بالرجل ، على ألا تحل هذه البدائل محل علاقة الندية والمشاركة حقا أمام أهوال الجمال وملالات الحياة ، والمِحن والسعادات الصغيرة و الكبيرة التى يُضفر منها نسيج الأيام .

المساواة المطلقة النّدية المطلقة بين الرجل والمرأة - على اطلاقها - هى قانون إيمانى .

ولا يمكن أن يحدث هذا فى داخل نطاق صراع معزول بين «الرجل» و «المرأة» بل لا يتصور إلا فى سياق تحررٍ للقوى الإجتماعية كلها ، على مستويات عدة .

حركة «تحرر المرأة» وحدها مقضى عليها . فلتكن حركة تحرر متصلة ومتداخلة الأبعاد ثقافيا وعلميا ، فرديا واجتماعيا ، سياسيا واقتصاديا .

ليست حبيبتى تمثالاً أرفعه على قاعدة عالية ، أتعبد تحت سفحه ، ست «شيئاً» من أشيائى ، ولا هى - كما لا أحتاج أن أقول - عورة مرأة ، ولا هى أى عضو منها - إذا أمكن الكلام عن «عضو» - ا كان - من غير الكلام عن «الكيان» كله ، جسدا دمثا وسماء سارمة ، هذه الازدواجية الزائفة التى فرضتها علينا الثقافة اليهودية المسيحية بين الجسم والروح . فما هناك قط أدنى شقّ ولو فى رُفع مرة بين الجسدانية والروحانية . لا فى المرأة ولا فى الرجل .

نحن الذين امتزجت دماؤنا برواسب راسخة من البطريركية الذكورية

نضبط أنفسنا اذ نتردى فى فخ هذه الثنائية الموهومة .

ولسنا وحدنا فى ذلك بل تسقط «المرأة» فى الشرك نفسه ، هذا إذا سلمنا مرة أخرى بصحة مثل هذه التعميمات ، الإطلاقيات ، «الرجل» و «المرأة» «نحن» وهكذا ، فلكل منا - رجلا أو امرأة على السواء - فردية وخصوصية لا يمكن اغفالها - أليست هذه بديهية ؟ اننا هنا طول الوقت فى أرض البديهيات المنكورة ، ولكن التعميم هنا لا مفر منه ، علامات تهدينا إلى إشاراتِ نورٍ على مفارق الطريق ، حتى ولو كان نور النهار ساحق السطوع .

لكنك - فيما أظن - لن تقبل هذا التفلسف كله ، سوف ترى فيه - ربما - شيئاً من الضعف ، والتخلى عن فحولة تتمسك بها حتى آخر لحظة ، وان لم تعترف بها صراحة . بل تقارف بها نوعا من التسامى - الذى فيه شىء من السذاجة .

لا ، لست منحازا ولا متعصبا - ولو فى الخفاء - لسيادةٍ ذكورية لعل الظروف المجتمعية والثقافية لم تعد اليوم مواتيةً لها - حتى فى عالمنا «الثالث» (أو «الأخير») - كما لعلها كانته فى حقبة متطاولة من الزمن توشك أن تنحسر .

بل لعلنى منحاز - كرجل - إلى جانب الأنوثة .

ألا يبدو لك هذا طبيعيا ؟

المخلـــص

(.....)

فى يوم الأربعاء ١٣ يناير ١٩٤٣

كتب لى وفيق خطابا لعله من أواخر خطاباته الحميمة :

عزيزى ...

... لست أدرى ما الذى حدث حتى استطعت أن أمسك القلم أخيرا .. ولكنى أظنها «يقظة الموت» كما يقولون ! .. لى شهور كاملة ، لم أمسك فيها قلما .. ولم أكتب شيئاً .. لم أكتب على الإطلاق .. اننى أعيش مدفونا يا صديقى .. أعيش سجينا فى جو مختنق بالظلام ، والبرودة القاتلة .. فى جو من الصمت .. والسكون الخانق .. كم أحس شكرا عميقا لهذه اللحظة التى قدر لى فيها أن «أنفجر» .. وأن أحس فى أعماقى بعض النار .. واللهب .. كم أحس الشكر لهذه اللحظة التى أحس فيها شيئاً على الإطلاق .. تصور المهزلة يا صديقى ... ان الاحساس فى حد ذاته قد غدا بالنسبة إلىّ حلما .. أشكر الظروف لو حققته !

وأعود فأتساءل .. ما الذى حدث حتى استطعت أن أمسك بالقلم؟ .. صدقنى أيها العزيز حين أقول إنها «يقظة الموت» .

كنت أقرأ خطابا جاءنى أخيرا من جانيت .. صادفتنى فيه فقرة .. هى دون شك السبب الذى بعثنى هذا البعث القصير .. وأستميحك عذرا فى نقلها اليك :

«.. يخيّل إلىّ أننى أتعس فتاة فى الوجود كه .. لقد حاولت كثيرا إبعاد هذا الخاطر عن رأسى .. ولكن الأيام تأبى ذلك .. فهى تثبت لى دائما ما أحاول أن أخدع نفسى فأكذبه .. لو لم أكن يائسة ،

لا نصيب لى من سعادة كاملة ... سعادة دائمة ، لما عاكستنى الأقدار فى أحلى ساعات حياتى .. فى أجمل أيامى وليالى الحبيبة التى أخال أننى عانقت السعادة فيها بكلتا يدى ، فلا أدرى الا وقد اختطفت منى كل شىء ، تاركة اياى ، أتخبط وحدى فى ظلام حالك ، مشدوهة . غير مصدقة .. أننى فقدت كل شىء .. واننى عدت من جديد إلى الوحدة .. بل الشقاء .. إلى اليأس والعذاب .. إلى البكاء .. وانتظار الرحمة من الأيام .. إذا كانت هناك رحمة فى الوجود ! »

هاك يا صديقى .. انها تعيش فيما تدعوه جحيما .. وعذابا لا نهاية له .. وأنا أعيش مدفونا .. ميتا .. فاقداً لكل عاطفة .. ولكل إحساس .

... لماذا ؟ .. ان وجود أحدنا مع الآخر .. يكفى لأن يرفعنا بعيدا .. إلى السماء .. بعيدا عن الجحيم والموت معا . ولكن . الحياة تأبى ذلك .

أولست أدرى ما هى «الأبالسة» التى تتحدث عنها جانيت .. سيان .

.... أخى .

ولكن ! يا لسخفى اذ أدعوك بهذه الكلمة الجوفاء ! كأنما هى حقا تعبر عن مشاعرى نحوك ؟!

.. اننى فقدت كل شىء فى الحياة إلا حبى لجانيت .. ولك .. نعم .. هذا الحب هو كل ما تبقى لى . ولكن الحياة تأبى إلا أن تجعل منه .. قبرا لى .. أموت فيه رويدا .

.. قد أراك قريبا يا صديقى .. فأجازة نصف السنة تبدأ فى ٢٣ القادم ولن تنتهى الا بانتهاء الشهر .. أما جانيت .. قالشيطان وحده يعلم متى أراها .

كم أود لو ماتت هذه الفتاة . اذن لانتهى كل شىء فى عذوبة ساحرة .

انت لا تعلم بأى جنون أتمنى موت أحب انسان إلىّ فى الوجود .. إنها حياتى يا صديقى .. ولا تعجب أن أطلب نهاية حياة معذبةٍ محطّمة محترقة كهذه .

.. انها تطلب الموت بإلحاحٍ مؤلم .. وكم أتعذب لعذابها يا صديقى .. كم أحس اننى مذنب .. واننى جررت هذا الملاك المسكين معى إلى الجحيم الملعون الذى كُتب على أن أعيش فيه .

.. ان قلبى يذوب ألما واشفاقا لها اذ أقرأ صرختها المحترقة فى هذا الخطاب الأخير .. اذ تقول :

«لست أدرى ما الذى يجعلنى أشك فى انتهاء هذا البؤس يوما . وهذا الخاطر يؤلمنى ألما بدرجة مخيفة تجعلنى أنادى الموت نداء مؤلما يتفجر من أعماق نفسى المعذبة .. وكم هى قاسية تلك اليد الرقيقة النحيلة ببرودتها الحبيبة .. يد الموت .. انها تبخل علىّ - حينما أناديها ضارعة فى سبيل رحمتها - تبخل علىّ بلمسة واحدة فيها نهاية كل شىء .. فيها خلاصى من هذا الجحيم .. وفيها راحتى الأبدية ».

.. ان قلبى يذوب شفقة لها يا صديقى..وأحس اننى مذنب..مجرم ..

لقد حطمت تلك الدنيا الواعدة التى كانت تعيش فيها .. وألقيتها إلى أعماق الجحيم الذى أتقلب بين جمراته .. انها رقيقة كالأحلام يا صديقى .. وديعة كالملائكة .. طاهرة كزنابق الحقل .

كم أحلم باللحظة التى يحمل الموت فيها أنفاسها الطاهرة .. وينثرها فى قلب السماء ...

كم أطلب لها الموت سريعا . حتى ننتهى معا . كما ينتهى نغم عابر تحمله النسمات بعيدا .. بعيدا .. إلى واد وسيع .

انها كل شىء يا صديقى .. ولكننى أعيش بدونها .. وليس فى الحياة شبح من أمل فى أن أحيا معها .. هناك كل شىء يشير فى سخرية مريرة قاتلة إلى ظلام حالك مخيف .. تكمن لى فى ثنايا المقيتة كل أحزان الحياة وكل أهوال هذا الموت المخيف الذى أعيش فيه بدونها .

آه يا صديقى .. أتذكر تلك السماء التى عشنا فيها معا .. نحن الثلاثة .. خلال تلك الأيام الحبيبة التى قضيناها ..

حسنا .. اننى يائس من الحياة تماما .. وليس هناك شبح لأمل يغرينى بها ..

حتى الكلية لا أذهب إليها الآن إلا لكى اسأل فيها عن خطابات لى..

غريب ! اننى لا أكتب لأحد على الإطلاق .. حتى جانيت .. لم أكتب لها منذ شهور طويلة .. ولكنها تكتب لى.. مرتين كل أسبوع ..

ولكن ما فائدة الأنين ؟

ان الموت يقترب ببطء مخيف. ولا فائدة من الأنين .. فلندعه يأتى

فى سكون .. ودعة وهدوء .. لن أراها يا صديقى .. ولست أكتب لها .. وهى كل حياتى .

لم يبق لى الاّ أن أعيش .. ميتا .. أحلم بما مضى .. كما يحلم انسان بعث .. بما كان فى حياته الماضية .

بعث ؟ كلا .. لن أبعث يا صديقى .. هذا أمل مضحك .. لعين ! إننى انسان ميت .. يحلم بما مضى وما كان فى حياته .

« لو كانت هناك رحمة فى الحياة » ..

كلا يا حبيبتى .. لا تأملى فى رحمة لا أقدار ولا بشر .. ولا تلك الخرافة التى يدعونها .. اللعنة .. كم يغلى دمى لمجرد ذكر هذه الأشياء ..

أتذكر بافنوس يا صديقى حين انتهى .. صارخا .. «ولكى أرغمك على أن تدخلنى جحيمك .. هأنذا أبصق فى وجهك» .. يا له من احتقار .. ويالها من سخرية هائلة مخيفة ..

ولكننى جبان تعس .. لا أجرؤ ..

يا للأبالسة ! ثلاثة صفحات كاملة .. أكتبها أنا ؟ .. هذا مضحك .. أو قل مدهش !

.. ولكنها على قلتها .. بين أسطرها المضطربة .. المحمومة .. المختلطة .. تحوى مأساة مروعة .. هى نهاية حياة كانت ذات يوم .. أجمل وأنقى حياة فى الوجود ..

أتكتب إلى عزيزى ؟ على رسلك يا صديقى ..

قد أكتب لك مرة أخرى.. ولكنى لا أعدك .. قد يكون ذلك .. بعد

أسبوع .. بعد يوم .. أو بعد شهور .. ولكن هل تكتب لى أنت .. لست أدرى .. ولكننى سأنتظر ...

وعلى ذكر هذا .. أذكر أن جانيت كلفتنى بأن أرسل اليك خطابا كتبته هى لك .. فهل تزمع أن ترد عليه ؟

.. هذا هو كل شىء يا صديقى ..

نعم .. لا أظن فى مقدورى أن أكتب أكثر من ذلك ..

ولكن .. يا للشيطان ! ألا يكفى كل ما كتبت ؟

إلى اللقاء يا صديقى .. وأنا فى الانتظار .

وفيـــق

فهل أستطيع أن أقرأ هذه الخطابات الآن - للمرة الأولى ربما بعد نصف قرن ، دون أن أحس اننى مازلت أكتبها ، ومازلت أتلقاها ؟

أكتبها ، أو تُكتب لى .

ابتعاث هذه الرسائل من جديد ، أقول لنفسى ، ليس تأريخا ولا استعادة تَذكُّر ، ألم أقل ذلك أكثر من مرة ، حتى الملل ، لكنى لا أمل من تكراره .

انه كتابة من جديد ، بل كتابة جديدة ، ولعلنى لا أجرؤ أن أكتبها الآن ، خشية من عاطفيتها المسرفة ، ربما ، وهأنذا أكتبها مع ذلك بلا خوف .

أكتبها ، كتبتها ، سوف أكتبها ، كان ينبغى أن أكتبها ، لم أكتبها ، لن أكتبها ، لم يكن يجب أن أكتبها ، وقد كتبتها ، هأنذا أكتبها .

بكل الأفعال .

العمالقة الغيلان التى ترود جبال ووهاد النفس ، تفترس أو تحتضن المسافر الضال ، حسب الأحوال ، هذه الكتابات .

متى ينتهى سفرى ، وضلالى ؟ ورحلة المسافرين فى دواخلى .

محباتى الكبرى - والصغرى - قد ولدت وعاشت وسوف تموت فى حضن هذه الغيلان العمالقة .

فقط لأنها جسيمة . «عمالقة» فقط لأن جرمها - وجُرمها - كبير.

التنين العظيم ، ندّ رامة ، كان رفيقا بل حانياً بل مُحباً . لكنه مع ذلك كان مفترسا ونهاشا .

ضوء الزمن الآخر مازال يشعّ على العتمات الممتدة على تراب من زعفران .

عمالقة ؟ أم بنات اسكندرانية - وغيرهن - أم فقط عرائس مصنوعة من مطاط كتلك التى وجدوها عند عبده أفندى شاروبيم الذى درسنى الفلسفة وعلم الأخلاق فى العباسية الثانوية ، أو عند الدكتور عبد الرحيم العربى أستاذ الفلسفة ذائع الصيت الذى يعيش الآن فى برلين ، عرائس أنثوية من كاوتشوك ، موضوعات شبق يخلقها المرء ويشكلها ويصوغها ويتحقق ويتدفق فيها ، هل اسمها چين أو مارجو أو مارسيل أم خضرة ورَشَا وماجدة ، تحليها الاعلانات المغوية فى الصحف والمجلات البورنوغرافية ، تعطيها شفاهاً متحركة ونهوداً حسب الطلب وأجساداً طيّعة وندويراتٍ مشتهاة ، وتجعلها تُصدر أنين المتعة والوجع الميكانيكى المطلوب ، من أجهزة تسجيلٍ

مخبأة بعناية (من غير كبير عناية بالإخفاء) .

أليس موجعا أن هذه الشهقات والأنات الكلاسيكية المطلوبة والمقصودة كانت من صنعة تلك المرأة المحنكة الشهوية التى أحببتُ ومازلت أحب ؟ عرائس من مطاط أم تماثيل بيجماليون المعاصرة فى ثقافة استهلاكية عارضة ؟ أدوات تنصب فيها وتنهدر نوازع الشوق إلى المطلق الأبدى ، ليست سيدة الملك القبرصّى الجميلة المنحوتة من عاج دافىء نفخت فيها أفروديت أنفاس الحياة بقوة ضراعة الملك الولهان . بيجماليون القرن العشرين .

وبالمناسبة لماذا ضبطت هذه الدمى المطاطية فقط عند مدرسى وأساتذة فلسفة ؟ (ضبطتها أجهزة قمع معينة فى ملابسات مريبة ، كما يقال)

أو على الأقل لماذا شاع ذلك عنهم ، فقط ؟ فهل ذلك لأنها مجرد تجريدات ذهنية ، صافية نقية بمعنى ما ، لأنها ليست كائنات حية حسية مضطربة التكوين متقلبة المقومات ؟

ولكن - أقول لنفسى فى هذا الحوار الممض - أليس اضطراب الحياة وارتباكها وجيشانها المدوم وربما غير المتوقع هى بالضبط أسرار قوتها وجاذبيتها ومصدر الندية الحقة بين رجل وامرأة ؟ (حتى لو كانت المرأة تلجأ لحيل شبقية ميكانيكية ؟)

أم أن نقاء الصورة ، وخلوصها الصافى لك وحدك ، وانصياعها الكامل لك وحدك - مثل كل تجريد فلسفى - سر من أسرار الجاذبية والاغواء ، أيضاً ؟

عمالقة غيلان عرائس من مطاط طواحين دون كيشوت طواحين الماء السواقى السبعة ذائعة الصيت التى تنعى لَمْ طفَوا لِى نار ؟ طواحين بُن تدور ، أمِنْ غير طحن ؟

طاحونة البن المدورة الصفراء من نحاس لامع ، ناعمة التدوير من الاستخدام ومن حميمية قبض الأيادى عليها اعتصارها فى حُميًا تشغيلها ، دافئة ، متموجة العضلات ، دوران المقبض المعقوف الصغير الذى تحس فعاليته وهو يعض ويكسر ويجرش حبات البن المحمصة ، بين الأسنان الدوارة المعشقة بقوة ، ثم يهرسها ، ثم يُنعّمها ، ثم تحس دوران المسحوق الدمث المطواع بين التروس والنتوءات الداخلية ، الملل الذى تعرفه اليدان فى عمل التدوير المتكرر والامساك بالجسم الاسطوانى كامل الدوران الذى دفىء ، وندى الآن بين يديك ، تسنده إلى صدرك تارة وتحس صلابته ، وإلى حجرك تارة لتريح نفسك قليلا، بينما المقبض يدور ويدور وأزيز ارتطام التروس ونفاذها وفاعليتها ، وصوت الخشخشة الأجش النفاذ أولا ثم هسيس المسحوق المذرور المضغوط اللين بعد ذلك ، وبعد أن كنت متلهفا لا تكاد تصبر عليه عندئذ ، تذكره الآن ، بعد كل هذه السنوات ، بما يشبه التوق والحنان.

وكأنما تعيد إلىّ هذه الطاحونة المدورة الناعمة التى أحس تحت يدى الآن ملء جسدانيتها ، حس تلك الأدوات الأخرى الكهربية ، مصنوعة من الصينى عاجى اللون كأنها مولودة غير مخلوقة ، رخيمة الملمس ، فتحت طفولتى عليها فى بيتنا فى غيط العنب ، لابد أن ذلك كان بعد ادخال النور الكهربائى إلى بيوتنا بقليل، بذخ التشكيلات الكبيرة

المصقولة من الأزرار المكورة اسطوانية التدوير ، ضخمة تملأ اليد، السطوح اللامعة المنحوتة فيها ثقوب وحزوز سوداء دقيقة محكمة الاستدارة خروم صخرة سيدى جابر نافذة إلى العمق تعج فى داخلها الحميم بحيوات لا نعرفها وأنواع من الكابوريا وأبو جلامبو سراطين ميكانيكية رفيعة السيقان أقماع المصابيح مفرغة من وهجها مصنوعة من زجاج مضبب مفضض فى لحمه الداخلى نقوش أغصان متشرجة مهندسة التفريع تنساب عند سطوحها بايحاءات شكل الكمثرى لها أصابع مبسوطة عريضة كالأوراق المفرودة من زجاج أبيض غير منقوش نصف شفاف الأسلاك المتينة ناصعة التغليف قوية الالتفافات كأنما تحمل من الآن شحنة طاقة مندفعة ومكبوتة ولكن مهددة دائما بالجموح حروف شفرتها مغوية وحارة وقد تكون مدمرة الدوى والحلقات والاسطوانات الصغيرة النحاسية المحززة حادة الحواف موسيقية الصدى متواشجة الدلالة والجرس والفيشات ذات الألسنة الضخمة - ألسنة قوالة - التى سوف تولج بشىء من الضغط هيّن فى ثقوب البريزات المضبوطة على مقاسها بدقة واحكام طقوس صارمة الصدق ولدنة تملأ قفة من الخوص الطرى مدفوسة تحت سرير أبى أتسلل إليها بعد الظهريات ما زلت ألوذ بها فى وجه الهلاك وفى عتمة ما تحت السرير المنيرة بالكاد بضوء الحياة المزدحمة الخاوية الآن أستخرج هذه المجسدات تدب فيها حياة خاصة بين ذراعى الممدودتين بالوجع والنداء.

الكتابات كالأسماك طافية على ماء الشط فضية ومفشوخة ولزجة

ومنذرة بالفساد .

حارة أيضاً بلا شك . تنكأ جراحا قديمة لم ترم قط .

طعنات الأنوار الكاشفة تطرد طائرات المغيرين عن قلب الاسكندرية وتدفعها إلى عرض البحر أو على الأقل إلى الشاطىء الرملى فى ليل الصيف الحار ، وإذ تحاصرها الأنوار والقذائف وطلقات مدافع الآك آك تتراجع الطائرات إلى الشاطىء فتنطلق المدافع المضادة للطائرات بجنون وتسدد طلقاتها بتركيز كثيف إلى الجسم الذى نراه لامعا يومض فى بؤرة التقاء شبكة الأنوار ، يسبح صغيرا بطيئا بلا صوت فى العلو الشاهق ، وعندئذ يسقط حمولته من القنابل (الكلمات ؟) ويصعد فوق متناول الأنوار وإلى ما بعد طاقها.

لكنها تعود ، كأنما بالرغم عنها ، تعود . القنابل والكتابات تعود.

سقطت القنبلة الضخمة على صخرة كليوباترا الحمامات ، وفى لصباح وجدنا شظايا الصخرة ، كبيرة ومسنّنة ، حادة وصغيرة ، كومة ومتناثرة على الرمل الفسيح ، وشظايا القنبلة - الطوربيد معة مضلعة فضية اللون مغروسة فى الرمل مازالت سخنة ، وتومض حت خطّ الماء الضحل الرقراق مع بقايا الكابوريا وأبو جلمبو وفتات لقواقع البيضاء المهروسة ، وجثث الأسماك الطافية على الموج لضطرب ، بلا حراك .

حصاد نزوات السنين . صخر كالغيم أو غيوم كالصخر ؟

صخرة ستانلى بيه وقد أزالتها البلدية، كانت وعرة شعثاء فيها رائحة

برية والرمال تحتها طيعة ومنسابة بين شعابها الصغيرة قائمة السنان وصرخات النوارس مدفونة فيها تتلاحق تكاد تسمع نداءات جوعها وشراستها غير مفكوكة الشفرة وصخرة سيدى جابر التى تندفع من خرومها الدقيقة أرجل الكابوريا الكثيرة الصغيرة تجرى رقيقة الجسوم مرهفة الفكاك شفافة أو تكاد فى نور الصبح الباكر جدا تحت شمس شتاء نصف غائم ولكن دفىء وحنون الصخرة العالية تنبثق من ربًى وسهوب غير واقعية كم حلمت بها وكم عشت فيها ورياح بحر بارد بل ثلجى تضربها وأنت فى بيتها ذاك الذى لم تدخله قط ولم تبارحه قط مع ذلك يعصف الهواء حول حيطانه المبنية من حجر صلد كبير برونزى اللون قليلا بلا طلاء ينهمر المطر عليه لانثياله على الحجر وفى المزاريب خرير أنيس موسيقاه الرتيبة تثير فيك شهوات غير جسمانية يرتعد لها جسمك ويتوتر الماء يجرى على أسفلت شوارع الاسكندرية يسقط فى البالوعات عَبْر قنوات نظيفة تحت الأرصفة التى تلمع من النظافة ولجريان الماء صوت انسياب بهيج المطر يسقط عليك رذاذا ثم قطرات مدورة لها وقع وثقل وأنت تمسك بيدها لكى تصلا إلى باب أوتوبيس محطة الرمل - كليوباترا وتضغط بيدك على ظهرها الرقيق تحس حرارته من وراء الصوف الناعم المنسدل وتحس شريط السوتيان المحكم على الصدر البكر الصغير صخور سيرلانكا شائكة السطوح تضرب إلى دكنة سوداء بحواف الأبدية الغائرة معها بحطام سماء بيضاء فى وهج ظهر لا ينتهى صخور غينيا على المحيط الآخر تتخايل لك هشاشتها وكأنك تراها تتفتت وأنت تعرف انها صلبة القوام وعامرة

بأحلام حِقَب دهرية مكتنزة بخزين القهر والعسف الذى لا تعويض له ولا برء منه وبأطياف أمجادٍ مندثرة أصداء صرخات الوجع التى لا يبرئها الزمن لا أتخبط بل أطفو تحت الغيوم فوق صخور السماء .

وهل أجرؤ أن أقول رعبى أمام هذه الصخوروتحت غيم هذه السماء؟

لماذا يجب أن نخبىء مفازعنا كأنها عار ؟

وهل أنا أخفيها ؟

هأنذا أقول . لا أخاف من هواجس رعبى .

الغيم ناعم له قبضة نهائيّة وغير متكررة لا تنى تأتينى من جديد .. تحيط بعنقى . أختنق .

من جديد ؟

بلا انتهاء ؟

٦- نورس وحيد على صخرة

على شاطىء البحر ، رامة عارية ، بضة ، جلدها الأسمر ندى غض فيه كل أنوثته الفياضة ، يتحدى البحر .

لها وجه هاتور ، وجه بقرى حنون ، غليظة الشفتين ، كنت أذكرها رقيقة الفم ولكن شفتيها حساستان متحركتان بحياة خاصة قادرتان . أجنحتى متهدلة ساقطة على الأهرام الثلاثة السابحة فى سماء الاسكندرية ، جلد السماء متخثر ، كثيف ، مثل جلد الحليب القديم الذى تصلب قليلا وتجعد .

الطحالب متدلية من عينى ووجهى ، طويلة مبلولة تهتز فى الطيران البطىء الذى لا يقطع الزمن . ذكرى خضراء لها نداوة الغشاء المترقرق المتماسك وأحط على صخرة ناتئة فى الموج الساجى الذى لا يترقرق ، أرى تحتها على قاع البحر الرملى الصافى تحت الماء الساكن الشفاف هذا الهيكل العظمى ، كاملا ، جافا تحت السيولة ، هادئاً بلا حراك ، أعرفه ، أحس عظامى فيه ، بل هى عظامى ، وقد سقطت عنى الأجنحة وراحت تطفو على سطح البحر الذى اكتسب الآن تلك اللزوجة ، غشاء أبيض مجعد ولكن ثابت .

على الصخرة تنبت فروع وأغصان وقرون منشعبة مثل قرون الأيل الكبير تنبثق بصمت وتصعد ، تلتف بى . قلت غريب أننى لا أسمع صوتا . امرأتى ، من على الشط القريب ، تنظر إلىّ بعينين واسعتين فيهما خضرة مألوفة ومفاجئة ، دائماً تبهرنى .

لم يكن هذا حلما . ولا رؤيا .

أما فى الساعة الحادية عشرة من مساء ٧ ابريل ١٩٤١ ، فى فجر الخامسة عشرة ، فان اليوميات مازالت تقول :

لا شيء ... ! كتبت أشعارا محزونة فاجعة تنبىء عن ألم وتفصح عن مشاعر مختلفة أو بالأحرى عن جزء صغير من مشاعر مختلفة ، فما اللغة كلها ، وما لغات البشر بأجمعها ، بقادرة على وصف ما يختلج فى قلب بشرى .

ألم يكن «روفائيل» فى قصة لامارتين يقضى الساعات الطوال فى حرب ضروس بين مشاعره وبين لغته .. كانت اللغة دائما تنهزم فيها فلا تستطيع تحديد المشاعر ، وان كانت تظفر من ذلك بمرونة وسعة وقدرة .. نعم ان هناك ألفاظا تدل على معنى مخصوص ولكنها توحى بأشياء أخرى غير محددة لا يستطاع تعريفها بالقلم .. توحيها إلى القلب فيشعر بها وان لم يعرف لفظا يدل عليها .. هذا هو سر الكاتب أو الشاعر أو الفنان على وجه العموم. إن هناك أشياء فى بعض الصور والقصائد ، يحس بها المرء ولكنه لا يراها .. وتشعر بها الروح دون أن تلمسها الأيدى أو تعرفها الحواس الخمس المحدودة .. قد نجد هذا الشيء الغريب بين سطور الشاعر المبدع ، وبين ثنايا خطوط المصور الخالق ، وفى زوايا حجر التمثال البديع ، وبين أنغام الموسيقى الساحرة ، هذا الشيء نجده هنا وهناك موزعا بشكل غريب ، يبث فى الروح انفعالات خفية تخفق بخفة وترفرف فى سكون ولكن فى وضوح أو «اعلان بالوجود» ان صح هذا التعبير ، هذه الانفعالات دائما تفلت

من القلم وتطير منه ، ومهما حاول دائما الامساك بها ووصفها ، فهى تغافله وتتسرب من بين أصابعه .. بنفس الخفة والغموض اللتين تتصف بهما هذه المشاعر كخواطرى، شَرودُ خبيثة، دائما تلوح وتغرى، ودائما تختفى سراعا وبدون أن يشعر المرء . دائما أحاول أن أدوّن ما يدور بخلدى هنا ، ولكن عند الكتابة يتبخر كل شىء ، ويهيم الفكر فى وديان جديدة ، وقد تعاود الخواطر القديمة الظهور ، ولكن لتختفى ثانية ، كأنما تبتسم فى سخرية واشفاق من هذا الشخص التعس .. تعس ؟ .. تعس !! حقا ... ان السلام الملكى يترامى فى الجو من المذياع .. فلأئته به اذن .

هل قلت اننى مازلت أكتب مثل هذه الأشياء ؟

فى طبقة مضمرة من الكتابة ، أظن نعم

للأسف ! نعم ، قلت هذا أكثر من مرة ، ومازلت أكتب مثل هذه الخطابات .

الاسكندرية ١٧ يناير ١٩٤٣

عزيزى وفيق ..

من المخيف حقا .. أن يقرأ المرء مثل خطابك .. ومما يحز فى النفس .. ومما يهز القلب من أعماقه أن يسمع المرء مثل صرخاتك الموجعة ، ولكن .. لماذا يا صديقى ؟ .. لم كل هذا اليأس ؟ ... لم كل هذه الظلمة .. لماذا هذه النظرة السوداء المذعورة المؤلمة ... التى لا تطاق ، إلى الحياة ؟ .. لست أفهم .. ولا أستطيع .

انها نوبة يا صديقى .. نوبة فقط .. نوبة قد تكون طالت .. وقد

تطول .. ولكنها ليست الا نوبة ، اننى لا أطيق أن أتصور تلك الحالة شيئاً دائماً حقيقيا صحيحا .. فإنّ هذا يكون مخيفا ، يكون كابوسا مروعا ، يكون شيئاً لا أجسر قط على التفكير فيه .. كلا .. كلا .. انها ليست إلا نوبة .. أؤكد لك ..

اننا كلنا نتألم ، كلنا ننسحق تحت وطأة الأقدام الجبارة التى تعتصر الدموع من أعماق أرواحنا ، ولكن .. كلنا يجب .. يجب بجنون .. أن نناضل هذا الألم ، وان نمزق هذه الظلال السوداء ، يجب .. يجب بكل عنف وإصرار .. أن نناضل لكى نلتقط أنفاسنا ، ولكى نخرج إلى النور ، ولكى نرتفع فوق قبورنا .

الموت ؟ .. آه يا صديقى .. اننا سوف نشبع موتا .. فلماذا نتعجل نصيبنا منه ... ؟

هل تذكر الخيّام ؟ .. لشد ما هو صادق .. وإنسانىّ ، فى بعض الأحيان ! ... أتذكر قوله .

وسأضطر للرحيل اضطرارا .. واختيارى ان استطعت اختيارا ..
ان أسرّى عن الفؤاد الهموما .. فى حياة ملأى أسى وغيوماً ..
فأدرها سلافةً واسقنيها .. نعمة فالوجود كان مصابا ..

فقط ، ان الوجود - رغم كل شىء - ليس هذا المصاب الذى يصوره الخيام .. ان فيه الخمر على الأقل .. فيه «كأس من الخمر .. وحبات من التمر .. وبساط من الزهر .. وثغر الحبيبة الجميل .. وعيناها الناعستان من النحول ، وفيه .. لهذا كله .. يحس المرء - يا الهى .. قبلتك فى قلبى ! »

« كلا يا حبيبتى .. لا تأملى فى رحمة أقدار أو بشر .. ولا تلك الخرافة التى يدعونها .... »

أى عمق من اليأس المرير يصطخب فى هذه الصيحة الممزقة .

ولكن يا صديقى .. أعود فأسألك .. لم كل هذه الظلمة ؟ .. ولماذا هذا التشاؤم المميت ؟

تلك الخرافة التى يدعونها .. هل هناك انسان عاش بدون هذه الخرافة ، كما تسميها .. هل هناك انسانية واحدة .. مهما كانت .. استطاعت أن تنطلق فى طريقها بدونها ؟ كلا ، كلا ، كلا ، مطلقا ..

ان الذى يهدم خرافة ما .. يقيم له وثنا آخر يعبده .. خرافة أخرى ... قد تكون أكثر قسوة ، وأكثر جمودا .. وأكثر بشاعة .. ان برجسون مثلا .. يحطم أوهاما قديمة .. لكى يضع لنفسه أوهاما - أو حقائق - أخرى يسميها «الحياة» .. أو «التطور الخالق» الذى ابتدأ خلية زاحفة دنيئة .. وظل يتعثر خلال القرون ، يبنى لكى يهدم ، ويبذر فى مادة الحياة سرفا واغراقا ، ويناضل المادة ، وينتصر ، وينهزم ، أعمى متخبط عجيب ، محتاج إلى مساعدة من البشر .. لكى يصل إلى غايته التى يسعى إليها منذ ملايين السنين .. كلا ، كلا ، ان تلك الخرافة .. هى الشىء الوحيد الذى لا تستطيع الانسانية أن تنساه .. تلك القوة الغامضة الرهيبة .. التى لا نحس منها إلا شوقا حارا جامحا اليها ، نزوعاً مجنونا فى صميم البشرية ، يترامى نحو الخلود واللانهائية .

أناتول فرانس - مثلا - هو ذا مخلوق «ليس يدرى» بكل بساطة،

قد تكون هناك هذه الأوهام ، وقد لا تكون .. ليس يدرى .. ولا يستطيع ، «قد يحدث أى شىء ، وقد لا يحدث ، لكننى لا أستطيع أن أحدد ...» .

ولكن ، ولكن هل استطاع أن يعيش هكذا ؟ .. كلا . لأنه لو فعل، فانه سيجن مباشرة وبلا إمهال، لقد رفع من الفن ، من الجمال، وثنا آخر ، يسجد تحت قدميه ، وعلى شفتيه ابتسامة نصف ساخرة ، نصف عابدة ، ثم يقدم له البخور من دماء قلبه ، من أعماق روحه الكبيرة .

وهكذا .. من المحال أن يعيش الانسان .. مادام انسانا .. بدون هذا الوهم .

وأنتما .. أنت وچانيت .. قد يعتريكما الشك ، ككل مفكر ، وقد يفترسكما الألم ، ككل الأرواح الكبيرة ... ولكن .. ان لكما من العاطفة النبيلة التى تعمر صدريكما، لكما منها وهْمٌ سام رفيع نبيل، سوف يرشدكما فى يوم ما ، إلى تلك القوة الهائلة الرائعة ، إلى النبل المجيد ..

كلا ، كلا ، أكرر لك ، وسأظل أكرر .. انه يجب .. يجب بدافع من العاطفة المقدسة التى قد بقيت لك على الأقل كما تقول ، يجب أن تنهض من ذلك القبر المظلم المخيف ، يجب أن ترتفع إلى النور ، يجب أن تبعث ، والا فما قيمة تلك العاطفة ؟ .. انها نوبة وأؤكد لك - وسوف تمر ، سوف تختفى ، كما تمر أجنحة طيور الليل ، ثم تختفى فى الفجر الرمادى الزاحف الذى يشرق فى كبرياء .

أخى ...

اننى أصور لنفسى حياتك تلك التى تصفها .. بكل هذا الوضوح المؤلم الغامض مع ذلك ، فأرتعد ، وأخاف ، وأغمض عينى ، كأنما لأبعد عن نفسى صورة مخيفة ، لا أجسر أن أحدق بها .

أنت لا تكتب شيئاً على الإطلاق ، ولا تحس شيئاً رفيعا ساميا ، وقد تكون لا تقرأ ، وقد تكون لم تر لوحة فنية رائعة منذ أسابيع ، أو لم تسمع قطعة من الموسيقى منذ شهور ، أنت - فقط - «لا تنقطع عن المشارب ودور السينما والسهرات» ، ثم أنت ، أخيراً ، لا تنقطع عن التفكير المرير المظلم ، «ولا ترى حولك من يحس شيئاً ، أو يرى شيئاً ، فكلهم جامدون .. قاسون .. حيوانات» .

نعم ، أى صورة مذعرة ، أى موت حقا . ولكن .. لماذا أيضا ، لماذا .. لماذا لا تقضى أيامك ولياليك فى رفقة القلوب الكبيرة التى قد عبرت بانسانيتنا هذه ، وتركت لنا حياتها الخالدة فى مختلف صور الفن المجيد . ؟ لماذا .. ؟ .. وان كنت حقا تفعل هذا ، فان هذا لن يكون بأى حال موتا ، أو شبه موت .. فانها الحياة ، الحياة الحقة ، الحياة الروحية ، ولعلها الحياة الوحيدة .

لماذا لا تعبر عن نفسك فى صور من الفن الذى تحبه ؟ لماذا لا تجعل «الحياة» تنبعث من ذاتك لكى تُضفيها على كائنات روحية أخرى جميلة .؟ لماذا لا تكتب ، أيها المجنون العظيم !! لماذا ؟

الموت ؟ ! كلا ، ان لك روحا خصبة كبيرة ، لا يمكن أن «تدع الموت يأتى فى سكون، ودعة، وهدوء» .. أنا لست أتملق ، ولست أحاول أن

أرتدى مسوح الوعّاظ والمرشدين . انما أنا الصديق الوحيد الذى يعرفك، ويفهمك ، ويحبك . ان روحك الكبيرة لا يمكن أن تموت . أؤكد لك ..

ولماذا التأكيد ؟ .. ها هو ذا الدليل بين يدينا .. فانك أنت تحس الموت ، والقبر ، والظلمة ، فى تلك الحياة التى يحياها جميع الناس بلا مبالاة وباستمتاع أنت لا تطيق هذه الحياة ، لأن فى نفسك نزوعا إلى شىء أنبل ، إلى أفق أسمى ، وأرحب ، وأكثر امتلاء بالنور .. أليس فى هذا الدليل على أنك لا يمكن أن تموت كما تقول .

عزيزى .. ان فى «الحياة» نزوعا إلى الامتداد ، والفيض ، وروحك ملآنة بالحياة، ولكنك تحبسها، تضيق عليها الخناق ، لاتجعلها تنطلق ، تنطلق مع نغم أو صورة أو كتاب ، تنطلق إلى الأجواء المقدسة، إلى الآفاق السامية ، إلى حيث تصبح السعادة ألما ، ويفنى الألم فى السعادة ..

يا عزيزى كلا .. يجب أن تعود إلى إلهك الذى أنكرته .. يجب أن تركع أمام الفن وأمام الحب اللذين هما مظهران لشىء واحد .. هو تلك القوة الهائلة السامية التى تحكم العالم .

نعم .. اننى لا ألغز ، ولا أحاول أن أعمى ، فالله ، الله الذى يعيش فى نفوسنا ، النزوع الغريب الذى لا يقاوم إلى أشياء غريبة ، القوى الهائلة السامية المعذبة الحلوة التى تجد طريقها إلى الخارج عن طريق الفن أو الحب أو الدين ... هذا هو الله .. وهذه هى «ملكوت السموات» كما يقول المسيح .. فهل يمكن أن ننكره ؟ .

كلا ، يجب أن نحمل صليبنا ونمشى، تعبين مقوسى الظهور، نحس بالنهك ، لأننا نحمل ثقل الانسانية فوقنا ، لكننا نحس بالحنّو الغريب الذى يملأ قلوبنا نحو هذا التعب ، ونبتسم

هذا ما أتصور ، هذا ما أوقن به ، وهذا ما أرجوه .

عزيزى ...

لست أدرى .. انك مجنون بلا شك .. انك «أجهدت رأسك حتى تعب» . انك مريض ، وبدون هذا لا يمكن أن تفسر تلك الصيحة المخبولة ، هل حقا كم تود لو ماتت هذه الفتاة ؟ اذن ، فأنت مجنون ، اننى أرتعد لمجرد ذكر هذا. كيف تعيش أنت اذن، وكيف تموت أنت؟. أنت اذن تمزق أحلامك ، تمزق حياتك ، وروحك ، كما يمزق المجنون جثة أحب الناس إليه بأظافره وأسنانه ، ويحس بالجذل التعس ، والغبطة المعذبة .

كلا .. أفق أيها المجنون . حطم الأغلال التى صاغها الألم حول كيانك . انتصر على هذا الألم .. نعم .. ان الألم يصهر ، وينقى ، ويطهر ، ولكنه فى النهاية يقتل ، ويميت . ان الألم لن يكون قط غاية للحياة وإلا فانها لا تكون «حياة» . ان الألم يمر بيده الملتهبة لكى يفتح النفس ويجعل الروح تفيق ، تفيق لكى ترتفع ، وتسمو ، وتخلد.

أنت تقول انك «حطمت الدنيا الوادعة التى كانت تعيش فيها ، والقيتها إلى أعماق الجحيم الملعون الذى كتب علىّ أن أعيش فيه» «لكنك فى الواقع قد رفعتها من الموت ، من الحياة الخاملة الطيبة التافهة، لكى ترشدها إلى ما فى أعماقنا جميعا من حياة نبيلة رفيعة

خالدة .. نعم .. ، ان فيها الألم ، ولكن فيها السعادة الرائعة التى تطغى على آلام الجحيم نفسها .. نعم ، من يجرؤ أن يقول ان العمل الفنى الرفيع لا يستحق أن يعيش فى سبيله المرء حياة بأكملها كلها عذاب ، وألم ؟

نعم ، لشد ما هى صادقة .. كلمة جان لاهور : «هذه الأكاذيب التى تغرينا بالحياة ، وتجعلنا نصفح عن هذا العالم المجنون ، أحبها ، وأحب معها الموسيقى والشعر والحب » .

كلا ، انها ليست جحيماً مطلقة تلك التى نعيش فيها .. انه مزيج من السماء والجحيم ، من السعادة والعذاب ، من التسامى والانسحاق ، من المر والبخور .

اننا نتألم ، ونموت ، يا الهى .. لنتعلم التضحية ، لنتعلم النضال فى سبيل تحقيق «الحياة» .

تقول لى : «أتذكر تلك السماء التى عشنا معاً فيها» .. نعم .. أذكرها ، ولكن لماذا أنت يائس ، لماذا لا تعيش ، وتحيا ، هل تفهمنى ؟ .. لكى تتفتح مرة ثانية أبواب الفردوس المغلقة ؟ .. لماذا لا تحيا حياة حقيقية ، لكى ترتفع مرة أخرى إلى هذه السماء ، وتحقق هذه السعادة ، وتنال مرة أخرى تلك الأكاذيب التى تكمن فى أعماقها الحقيقة العليا ؟

لم لا ؟ . اننى أسأل فى جنون .. ولا أظفر بجواب ، اننى لست أفهم ...

صديقى ...

أخيرا ، كم أحترق شوقا إلى نغمة جميلة منك .. كم أريد بجنون .. أن ترتفع عن هذه الوحول التى قد سقطت فيها أنا أيضا لمدة ليست بالقصيرة ، وُحُول الألم المنطوى على ذاته ، المحترق فى نفسه ، الألم التعس الشيطانى اللعين .. كم أريد بجنون ، بكل قوى صداقتى ، أن تمزق تلك الظلال السوداء ، وأن تحطم هذه الأسوار الساخرة .. المقيتة .. انك لا تعلم كم يؤلمنى كل هذا .. ان التأمل يا صديقى «قد يكون فى بعض الأحيان فى غير موضعه ، وقد يقودنا إلى طريق وعر» . لنرتفع .. لنرتفع .. لنرتفع .. اننا ننال نصيبنا كاملا من العذاب ، فلنثأر لأنفسنا من هذا الألم ، لنعتصرها قطرة قطرة ، بكل قوى حياتنا ، فاننا قد دفعنا ثمنها دموعا ، وآلاما ، وتعاسة .

لنحلق .. لنحلق .. فان فى الحياة آفاقا نبيلة كثيرة .. ان فى أجنحتنا التى مزقها الألم.. لقوة تستطيع بها أن ترتاد الآفاق البعيدة، وأن تحلق فى الطرق المجهولة ، وأن ترفع المصباح .

ماذا يهم بعد ذلك ؟ لا شىء .. فلنحلق .. لنحلق .. لنحلق .. يا صديقى .

(وبعد كل هذه السنوات ، أما زالت تلك عقيدتى التى أخفيها أحيانا عن تقية ، وأفصح عنها أحياناً ؟ أم هل انكسرت تلك الأجنحة ، كما انكسر القلب ؟ هل انكسر ؟ القلب ؟)

عزيزى ...

اننى أود بجنون أن أراك .. لا لأى شىء ألا لكى أنشب فيك مخالبى ، فأنا أريد أن أنتقم لنفسى من هذه الوريقة اللعينة التى بعثتها تقول انك حاضر لزيارتى فى قطار الساعة ١١ ١/٢ صباح الجمعة ، أيها اللعين !

فهو اذن مقلب نظيف وأنت لم تحضر قط كما هو واضح من خطابك الأخير . فإياك .. إياك أن تتأخر عن الحضور - بجد - فى الأجازة المقبلة .. فان بينى وبينك لحسابا !

وهل تعلم - مثلا - اننى لا أدرى ان كانت خطاباتى تصلك على الاطلاق .. فانك لا تشير إليها بكلمة ... اشتمها يا أخى ، العنها ، كوم عليها كل سباب الأرض ، فقط ، اذكرها بكلمة ، لكى أعرف أنك تقرأها على الإطلاق على أى حال ، فان عدم ذكرها هذا هو من أعراض الجنون الذى ترتع فيه ، فهنيئاً لك ، على كل حال ، هنيئا .. أو قد يجدر بى أن أهنىء أيضاً مكانا آخر تعرفه أنت بلا شك .. !..

عزيزى «الميت» ...

أرجو أخيرا أن تحيا ، وأن تكلمنى كما يتكلم العقلاء أو المجانين ، لا كما يتكلم الأموات ، ولو أن المثل القديم مازال صحيحا فان الأموات لا يتكلمون ، وهذا دليل على أنك لست ميتا ، فى النهاية .. والآن الا تصفق اعجابا ببراعة هذا المنطق ؟ شكرا .. شكرا .. كفى .. فقد أخجلت تواضعى .. ! أى أننى أرجو أن تكتب لى ، كما اعتدت أن تكتب قديما ، والا.. لست أدرى على أى حال ماذا أستطيع

أن أفعل ، الغالب اننى لا أفعل شيئا على الاطلاق . لأننى واثق انك لن تكتب ، ولن تعنى ، ولن تهتم الا بأن تكومّ على رأسى كومة كبيرة من الخبال والعته .. !

أخيرا .. أنا شديد الأسف لأننى لم أكتب لجانيت حتى الآن .. ولو اننى أعدك اننى سأتم هذا قريبا جدا .. وأظن أن فى هذا كله الكفاية وما فوق الكفاية . ولو أن فى جعبتى أشياء أخرى كثيرة ، لاعداد لها، وأنا منتظر خطابك قريبا ، أنت تعرف أى نوع من الخطابات أنتظر ..

فى الختام .. إلى اللقاء أيها العزيز المجنون .

(.....)

صخرة جرانيتية صغيرة مأخوذة عنوة من أرض هضبة الأهرام ، تتناثر فيها نقط سوداء وبيضاء وبقع دقيقة من الأحمر القديم وبها ابر مشعة وخازة تومض فوق السطح الصخرى . شعلة وعى صغيرة متذبذبة الإشعاع سوف تنطفىء وشيكاً صرخة نورس وحيد ساقط الأجنحة على صخرة سوف تطغَى عليها مياه أبدية بل لا زمن لها .

كيف أقول إن النهاية تقترب جدا ، واننى أعرف ، واننى لا أهتم حقا ، أقوله بصياغة لا رومانتيكية ؟ وإلى متى أظل غارقا فى وحلٍ رومانتيكى ؟

أسير مع وفيق القديم فى شارع شريف ، نتفرج ، بعد المدرسة ، على الفاترينات الأنيقة فى الشارع الأرستقراطى ، محلات الصاغة والتحف والملابس الغالية (التى رأيتها مكسورة منهوبة يوم إضراب

البوليس فى ١٩٤٧ وأصحاب الجلاليب يخطفون لأنفسهم ما استطاعوا ويجرون بينما العساكر فى ملابسهم السوداء ينظرون اليهم بلا اهتمام ولا حركة) وهو يتأبط ذراعى ونتحدث بحرية نادرة عما نرى وما نحس وما نحلم وما نأمل (وطبعا هذه كلها ذهبت ، ما تحقق منها وما لم يتحقق سواء) أو نذرع شارع صفية زغلول متجهين إلى محطة الرمل القديمة ، والبحر يبعث الينا بهوائه الملحى المنعش عبر أشجار النخيل على المبنى النيوكلاسيكى الصغير ، ونصل إلى محل العصير المفتوح حديثا ، باهرا بأدواته اللامعة وإغراقه بثمار الفاكهة المكومة فى سرف على الرخام ، والماكنات تئز ببهجة ، بعد سينما الهمبرا (التى هدمت ، وحلت محلها فرشة مغطاة من قماش الشوادر ، وتكومت فيها ركامات من الكتب التى تنذر بعذاب الآخرة وحساب الملكين وظلام القبر وخروج الجن من الأبدان ، ثم احترق جانب منها وجانب من سينما ستراند وكافيتريا الغزالة التى تحولت إلى بنك بعد ذلك، وهو مازال يتأبط ذراعى بحركة ود واخاء واعزاز لم أعرف مثلها قبل ذلك ولم أعرفها بعد ذلك إلا مع نساء أحببتهن كثيرا .

الاسكندرية مساء ١٥ فبراير سنة ١٩٤٣

عزيزى وفيق ...

يخيل إلىّ .. اننى كنت مخطئا .. حين رحت أنتظر ردا لخطابى الماضى .. طيلة الأيام .. طيلة الأسابيع ، طيلة الشهر الماضى كله .. لست أعنى انه لم يكن واجبا أن أنتظر ، بل أعنى انه كان يجب ألا أنتظر ... !

كلا .. ليس فى الأمر سفسطة أو تفلسف فارغ .. فهناك فارق كبير بين «عدم وجوب الانتظار» وبين «وجوب عدم الانتظار» ففى الحالة الأولى .. تكون المسألة من التفاهة بحيث لا يجب شىء ما ، وفى الحالة الثانية تكون المسألة من الخطورة بحيث «يجب» وجود أو عدم وجود شىء ما ...

والآن ، انتظر قليلا .. لا تطلق تلك الضحكة المدوية المرعبة ، بل فكر قليلا ، قليلا فقط ... ! قلت إنه يخيل إلىّ اننى كنت مخطئاً .. كلما هممت بالكتابة اليك .. ثم رحت أنتظر ، يوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد أسبوع ، أنتظر ردا من صديق صامت ، بعيد ، مصمم على الصمت ، عازم على أن يظل بعيدا .

ما أضعفنا يا صديقى .. ما أشد ضعف انسانيتنا ... !

إن أقوى العواطف ، أن أنقى ما يعتمل فى قلوبنا منها ، إن أعمقها وأثبتها .. محتاج أشد الحاجة إلى وقود دائم ، إلى غذاء مستمر ، يمد لهبها النهم بالحياة .. ان فضيلة الحيوان وحدها ، كما يقول باسكال ، هى التى تستطيع أن تكتفى بذاتها .. ان الانسان ، مادام انسانا ، هو حلقة واحدة خافقة حية ، فى سلسلة طويلة ، يؤلفها جميع الناس بأيديهم المتصافحة ، كما يقول جيو ...

نعم ، يا صديقى ، لماذا لا تكتب إلىّ ؟ .. لماذا تظل بعيدا .. ؟ .. لماذا ترفض أن تمد يدك على البعد ، لتتلاقى بيد أخرى ، مرتجفة ، باحثة ، محمومة ، لكى يرتفعا على الظلمة .. لكى يتحدا فى العاصفة ؟

هل هذه هى النهاية كما تقول ، «نهاية حياة كانت ذات يوم أجمل وأنقى حياة فى الوجود ... »

كلا ، كلا ، انها ليست النهاية ، انها لا يمكن أن تكون .

أننى أرفض ، بعناد ، أن أقبل مثل هذه النتيجة ، فان هذا يكون مروعا ، مخيفا ، مميتا ..

اننى أحس ، فى غموض ، ان هذا ليس صحيحا ..

كلا .. قل لى يا صديقى أنه ليس صحيحا ، وانها لم تكن أكثر من نوبة من حمى خبيثة .. مضت .. وانتهت .. وانقضت آثارها ..

تقول انك تعيش فى موت دائم مخيف ، ثم تصمت ، وتصمت ، وتظل صامتا ..

ما معنى هذا ؟ .. اننى لا أبحث عن معناه ، ان هذا يكون تعسا مخيفا ، حقيقيا ، قاتلا .. فليس فى الوجود أقسى ولا أهول من الوحدة الروحية .. من الظلمة المميتة التى تخلقها هذه الوحدة ، من العذاب - العذاب المميت - الذى يقتل من يحس بها ...

وأنا .. لقد أحسست بهذه الوحدة ، بكل قسوتها ، وهولها ، وعذابها ، طيلة الشهر الماضى ...

يا الهى ، لقد انقضت هذه الفترة ، لقد ذهبت ، لقد ذهبت ...

لشد ما أخافها ، لشد ما أرتجف لذكرها ، لشد ما أرتعد ، لأننى عارف أنها مضت .. ولكنها ستأتى ثانيا .. ستأتى بأشد .. وبأهول .. وبأروع مما أتت .. ان كان هذا ممكنا .

اننى فهمت التعس ، يا صديقى ، لأول مرة ، فهمته على حقيقته ، لأننى أحسست به ، فى قمة طغيانه ، وسطوته ، لأننى تلويت فى قبضته ، لأننى عبرت جحيمه .

لقد أصبحت شيئاً جديدا ، بعد ذلك الشهر المميت ، حتى لقد ارتعب أهلى ، وذعروا ، فقد نحلت ، فيما يبدو ، نحولا مخيفا ، وأصبحت لا أبدو إلا واجما ، عابسا ، تعسا ، «كمن يحمل الكون كله على كتفيه» كما قالوا - والكارثة ان حبهم هذا ، هذا الحب الأعمى الذى لا يرى ، ولا يفهم ، كان عنصرا جديدا آخر لإلهاب النار الآكلة التى كانت تضوينى .

يا الهى ، لقد انتهت هذه الفترة ، وخمدت هذه الجحيم ، اننى لا أكاد أصدق ، اننى أرتعد ، فى ذعر حقيقى ، عندما أحس ان هذا الهول خامد فقط ، وانه قد ينبعث فى أية لحظة ، ساخرا ، مقهقها ، مزمجرا ، كشيطان مجنون تعس .. يريد أن ينتقم ..

اننى لم أكن أدرى أن فى الوجود كل هذا القدر من العذاب ..

لقد كنت أغبطك ، من أعماقى ، على هذا الجمود الذى تتكلم عنه ، والذى لا أكاد أقبله .. أما الآن ، فقد اختفى العذاب فى ضباب رمادى هادىء .

لقد سقطت فى نوبة قصيرة كما أعرف ، من نوبات اللامبالاة الحيوانية الهادئة التى تجعلنى أستطيع أن أنظر إلى الماضى بنوع من الهدوء المتثائب الملول .

لعلك تتساءل الآن عن مصدر هذا كله ، لعلك ، كما امس ما ، تحس على الأقل بالفضول لمعرفة سبب كل هذا .. مادام الاحساس نفسه قد صار نعمة نادرة بالنسبة لك .

اذن ، فأنا أستطيع أن أجيب هذا التساؤل .. وأن أشبع هذا الفضول ... إن وجدا ...

انها المسألة القديمة ، القديمة ، انه شيطان الشك .

انه العذاب الانسانى الكامن فى الأعماق ، عذاب التمرد على الوجود .

انه الاحساس المرير بالوحدة الروحية .

هل تعرف ذلك الاحساس يا صديقى .. ؟ كلا ، كلا ، انه النقمة المتجسدة . هو أن تفيق فجأة ، فتجد نفسك وحيدا ، فى عالم واسع ، رهيب ، مخيف ، عالم صلب جاف ، صامت ، عالم ملىء بالأنقاض .. وبالظلمة ، وبالهول البارد القاتل ، الجامد ، المميت ، هو أن تدير حولك ، فى كل مكان ، بصرا ذاهلا ، زائغا ، لا يقع إلا على حطام .. هو أن تحس ملء رأسك بالحمى ، وملء قلبك بالجليد .

هو أن يتخلى عنك كل شىء ، كل شىء ، فتجد نفسك زاحفا بين أكوام من الشقاء الصامت الساخر فى صمته وجموده .. هو أن تصرخ، فى جنون ، فلا يرتد إليك الا صدى لصرختك ، صدى ميت ، مثقل ، يرن فى جوانب عالم مقفر ، موحش ، مذعر الفراغ .

هو أن تبكى ، ثم تسخر من دموعك ..

هو أن تمزق ، بأظافرك أنت ، ذات نفسك ، وأن تقهقه فى جنون ،

بينما تتساقط على جرحك الفاغر المفتوح قطرات من دموعك المحرقة اللاذعة ، تمتزج بدماء المرارة وقهقهات الجنون ..

هو أن تركع لله ألف مرة فى اليوم .. وتبصق فى وجه العالم ألف مرة فى اليوم .

هو أن تتحطم ، ثم تبعث لكى تتحطم من جديد ، ولكى تبعث ثانيا لتتحطم مرة أخرى ، بقوة أشد ، وإلى مالا نهاية من المرات ، هو أن تلعن الوجود ، وأن تدعو الموت بكل حرارة قوى الحياة ثم ترتجف .. وترتعد .. وتنسحق .. أمام الوجود .. والموت والحياة جميعا ..

هو أن تحمل لعنتك .. لعنة الأبد - تحملها بكل ثقلها .. لتجررها .. محطم الظهر .. محنى الجبين .. تجررها بين الوحول .. واللهيب .. فى طريق منحدر نحو الظلام .. الظلام الصامت البارد المخيف ..

هو أن تعيش تعسا ، بلا أمل ، ولا عزاء ، ولا يأس أيضا .

هو ألا تتعزى بنبل آلامك ، بل ترجعها بكل قسوة إلى آلام وضيعة مادية تافهة نذلة ..

هو أن تتحطم تحت ثقل الوجود ، وتسخر من الوجود ، وأنت تبكى .

هو أن تبحث عن شىء مجهول .. بعيد ، ساخرا بلا أمل ، ولا عزاء ، ولا يأس أيضاً .

هو أن تحترق رغبة فى أن تتشبث بشىء واحد ثابت مقدس ، ثم لا تجد ..

هو أن تفقد كل ايمان ، بكل شىء ..

هو - يا صديقى - العذاب ...

نعم ، لقد كانت فترة مخيفة من حياتى .

ان هذه الحمى لم تستمر أبدا طوال هذه المدة فى الماضى

نعم ، فليست هذه إلا مرضا . الأصحاء لا يمكن أن يحسوا بمثل هذا ...

وهذا ما يزيد العذاب .. أن يعرف المرء أنه مريض .. وأنه تافه ، وضحل ، ثم لا يملك شيئاً ...

من يصدق أننى أفقد الايمان بكل شىء ، حتى بالفن الذى ثبت لكل شىء فى الماضى ..

الماضى البعيد الذى انهار فجأة ، وبقسوة ..

مازالت تلك القاعدة القديمة كما يقول باسكال صحيحة .. سافرة فى صحتها .. دامغة فى أنها حق :

هو أن الاعتدال فى كل شىء واجب وضرورى ..

ولكن ما جدوى كل ذلك ؟

هناك جوع عميق فى النفس ، جوع لا يشبعه المنطق ، ولا الفلسفة .. جوع عميق ، عميق ، مخيف العمق .. شره إلى الايمان ..

ولكن ، أين هو ذلك الايمان ؟

لقد حاولت مرارا ، حاولت كثيراً ، أن أومن .. بالقيم الانسانية ، بالخضوع الملائم ، لكى أجد السلام ، والهدوء النبيل .

ولكنى تعس - أنا أيضا - وتافه ، وضحل ..

لقد فشلت دائما .. وفى كل مرة ..

ان فى أعماقى وحشا ساخرا ، متدفق الحياة ، قد يغفو قليلا ، لكنه

دائما متحفز ، دائما نهم ، دائما متمرد ، صارخ ، ينفث فى نفسى الظلمة ، والتعس .

ان اسمه الشك .

الشك الذى يصحبه طغيان الحساسية ، وطغيان المخيّلة ، وكلاهما عدو للسلام ، وللهدوء .. ولكن ما الفائدة ؟ ان مرضا آخر يعذبنى ...

هو أننى دائما أحقر نفسى ، وأرثى لنفسى بنفسى .. وأسخر من نفسى ، لذلك لست أدرى .. اننى ضال ، تائه .

ضال عنيد ، وعاجز وضعيف ، لا يجد من نفسه المقدرة على اتباع «الطريق»

لقد قال : «أنا الطريق .. وأنا الحياة ..»

لقد قال : «تعالوا إلى أيها المتعبين وثقيلى الأحمال ، وأنا أريحكم»

لشد ما يكون هذا جميلا ، وسعيدا ..

لكننى لا أستطيع .. أليس هذا مخيفا .. وشقيا ؟

ما الفائدة . ما الفائدة من كل ذلك ؟ .. لا شىء .

لا أمل ، ولا عزاء ، ولا يأس ! حتى اليأس لا أمل فيه ..

حتى هدوء اللامبالاة ، لا أستطيع أن أتخذه ، ولا بطولة المتشكك الذى يشق الطريق ، دون أن يتحقق من شىء ، دون أن يبالى بأنه لا يوقن بشىء يقينا نهائيا .

اننى أحترق فى جحيم حقيقية مفتحة الأبواب .. ولكننى فى أعماق اللهيب أنظر إلى الأبواب كلها وأعرف الطريق إلى كل منها ولا أقوى

.. حتى على مجرد الخطو . قد أغفو فى وسط اللهيب .. وقد أحلم .. بين النيران .. وقد أنسى قليلا .. اننى فى الجحيم .. لكننى دائما أستيقظ فى رعدة لكى أترك اللهب يمزق روحى .

اننى ملعون يا صديقى .. ملعون .. ملعون ..

وعلىّ أن أحمل لعنتى .. بكل ثقلها .. خلال هذا العالم .. ومن يدرى .. قد أحملها أيضا .. طوال لا نهاية معذبة ..

ثم .. وفى كل هذا العذاب المخيف .. أنظر حوالى .. فلا أجد الا ما يزيد من العذاب ..

حتى صديقى الوحيد، يصمت، ويصمت، ويظل صامتا، بعيدا ..

آه يا صديقى .. اننى لا ألومك .. فاننى أعرف كل شىء ..

اننى أقدّر ما تعانيه أنت أيضا .. اننى أعرف اللعنة التى تدمغ حياتك أنت أيضا .. ولكن ..

آه .. من ذا الذى يستطيع أن يتخلى عن الأمل .. ؟

فى يوم من الأيام .. يوم بعيد .. مشرق .. ضاح .. يوم جميل مملوء بأشعة الشمس النقية .. يوم حافل بالأغاريد .. وبالعطر .. فى مثل هذا اليوم .. قد نرتفع من مستنقع آلامنا .. قد ننفض عن كاهلنا لعنة الوحول ..وقد نغتسل فى نار مقدسة .. وننطلق .. فى السماوات .. ننطلق إلى .. بعيد .. إلى النور .. والجمال .. إلى أشياء طاهرة .. رفيعة.. مقدسة.. ونحلّق.. فى أشعة الشمس.. وفى زرقة السماء ..

يا له من حلم يا صديقى ... ! ... يا له من حلم .. ! ...

وإلى أن يتحقق هذا الحلم .. أو إلى أن تنتهى هذه المأساة ، ويهال

عليها قليل من التراب ، إلى أن يحدث هذا .. لماذا ترفض يا صديقى .. أن نتعزى بآلامنا عن آلامنا .. لماذا تصر على أن تظل بعيدا ، لماذا ترفض أن تمد يدك .. على البعد لتتلاقى بيد أخرى مرتجفة .. باحثة محمومة، لكى يرتفعا على الظلمة، لكى يتحدا فى العاصفة؟..

(هذا النداء اللاعج ، لوعة السؤال ، ألا تكفّ أبدا ؟ عرفت منها ، عَبْر السنين ، أن اليأس له وجه منير)

يا صديقى ...

قد أكون أنانيا ، وقد أكون تافهاً وغثا ، وقد تكون آلامنا كلها فقاعة من الزبد ..

قد يكون كل هذا حقا .. وقد يستطاع كل هذا

ولكن .. شيئا واحدا .. يكون هو الهلاك ..

نعم .. شىء واحد ، لا يمكن أن يطاق ، ولا يمكن أن يحتمل ..

هو أن يكون ما تزعمه أنت شيئاً ثابتا دائما ، مستمرا داحضا ..

هو أن تصر على هذا الصمت ، وأن تهمل تلك الحياة الروحية ، ولو كانت كلها آلاما وعذابا ، ولو كانت الجحيم هى الثمن ..

كلا ان هذا النوع من الموت - وليس الموت نهاية الحياة - هو الشىء الوحيد الذى لا يمكن .. لا يمكن بأية حال أن يحدث ... الصمت ؟ .. انه كفيل - بكل بساطة - بأن يقتلنى .

أكتب لى .. أكتب لى مثل ما كنت تكتب فى الماضى.. أو اكتب لى مثل التفاهات التى أكتبها لك أو أكتب أى شىء.. فقط.. لا تصمت ..

نعم .. ليس هناك مجال للمجاملات الاجتماعية .. أو للعبارات الملتوية الرقيقة الدبلوماسية .. أو لكل هذا الهراء ، اننا أقل الناس جدارة بمثل هذا ، للأسف الشديد ..

هأنذا منتظر ..

وجانيت؟ كيف هى؟ . نعم ، انه من المؤلم أن تستيقظ هذه الروح النبيلة على ضجيج الألم ، ثم تنتهى آخر الأمر إلى ضجيج الألم ..

ان هذا وحده يدعونا إلى الأمل لا إلى اليأس .. أو هذا ما يجب أن يكون .. نعم .. اننى أرجو أيضا أن اقرأ لها شيئاً ما .. فان فى الحياة الروحية مجالى أخرى واسعة ، رحيبة ، جميلة حافلة بالجمال - غير الألم - وكل ما أرجو ألا يفقدها الألم هذه السعادة الأخيرة ، سعادة الحياة الروحية .

(الحياة الروحية؟ ما أشد براءة هذه الكلمة، فيما يبدو، وما أكثر ما تضمر من خفايا الجسد المتنزية الجائحة.. الحياة الروحية !)

عزيزى ...

لست أدرى .. قد يبدو هذا الخطاب صرخة ممزقة مخجلة ، وقد يبدو متعثرا، أو ضحلا .. أو غامضا، ولكنه .. على أى حال - حار، وصادق .

نعم ، يا صديقى ، ان كلينا فى حاجة إلى الآخر ، ومن المؤلم حقا أن تصمت هكذا ..

ان هناك شخصا واحدا كنت أعرفه وكنت أحبه ، وهو الآن صامت..

وسيظل صامتا إلى الأبد .. شخصا قد عبر هذا العالم إلى المجهول اللانهائى . شخصا ما أزال أذكره ، دائما ، فى وحدتى وأبكى صامتا منسحق القلب دون أن يدرى أحد ..

(أبكى فقداناً لا يُعوض لذاتِ نفسى. كم أفتقدك أختى . شِقّ ذاتى الأخرى) .

ولكن .. يا الهى .. اننى أرتجف .. اذا قارنتك بها .

كلا ، انك ماتزال حيا ، متدفقا بالحياة ، الحياة الجائحة الرائعة التى تتألم وتصرخ وتسعد وتفرح ، وتتسلى ، وتنطلق فى ضحكة رائعة .

أليس كذلك ؟ .. نعم ، نعم ، قل انه كذلك

أما ذلك القبر ، القبر الصغير المجهول المنسى ، فانه يعيش فى ركن آخر من حياتى ...

(قبر لم أزره مرة واحدة فى خمسين عاما. وأزوره كل يوم)

ولكن .. يارب الجحيم .. هأنذا بدأت مناحة أخرى ..

لا بأس .. إن الروح التى تنتحب .. لا يمكن أن يتساقط منها إلا الدموع ...

عزيزى ...

لست أدرى ان كان يحق لى أن أنتظر أو لا يحق لى أن أنتظر أو يحق لى ألا أنتظر أو لا يحق لى ألا أنتظر ..

نعم .. فهناك فروق بين كل منها .. ولكن .

حسنا .. سأعفيك هذه المرة من هذا العقاب .. ولن أشرح لك الفروق !

نعم .. نعم .. سأجيب توسلك .. ! ولكن .. اياك أن تضغط كثيرا على صبرى ! واياك أن تحرج صدرى أكثر من حد معين .. والا .. أنت تعرف على أية حال !

نعم، وإذا تأخرت فى الرد، فأقسم لك .. بالقوى الخفية والظاهرة، وبالجحيم والأبالسة .. أن أرسل لك خطابا ، نعم خطابا واحدا لا غير، وأقسم لك ، انك ستمزق شعرك ، وتحطم رأسك ، وتدعو الجحيم والأبالسة ، والقوى الخفية والظاهرة ، ولن تفهم منه مع ذلك حرفا .. انه يكون عقابا هائلا مخيفا قاسيا ، وتكون أنت الذى سكبت المياه الساخنة على رأسك ! والذنب ذنبك ، على أية حال .. هيه ، آمل أن يصلنى منك اذن قريبا جدا خطاب ، ومن جانيت أيضا .

وإلـــى اللقـــاء

(.....)

أعرف - بوضوح - أن هذا الخطاب بالذات لم يصل إلى وفيق ، كان قد جاء من القاهرة والتقينا ، ولم نشر إلى ما جاء فيه بكلمة ، كنا قد بدأنا نتوجس من عنف مشاعرنا ، من حميا القلق والمضض . كأنما فقد الخطاب مصداقيته ، ومعناه ، لأنه لم يصل - هل كان له معنى ، أصلا ، أو مصداقية ؟ - بل كأن لقاءاتنا بعد ذلك أصبحت عبثية- كما تكون اللقاءات عندى- الا نادرا- أدنى وأهون بكثير من لحظات الحمى وسورات الكتابة، أقول « الا نادرا » ولا أقول - للاسف،

أو لحسن الحظ - دائما .

«لولا اليأس ما انقطع الهوى»

ما أغرب شعْر جرير ، حتى لكأنه غير حقيقى .

هل اليأس يُبقى الهوى متصلا ؟ هل اليأس هو الذى يمد الهوى بزادٍ لا ينفد ؟ اليأس سر اتقاد الهوى ؟

يأتينى أحياناً مشهدُ لقاءٍ مراودٍ .

أقول لها : لا تتكلمى . دعينى أحضنك الآن ، فقط ، لا أريد أن أقول شيئاً . سوف نشتجر مليا ، ربما ، فيما بعد . سوف تلومينني ربما، فيما بعد ، ولك حق ، الآن فقط دعينى أنظر اليك ، أملأ روحى من جديد بمرآك .

مشهد يمليه اليأس ، حلم كأنه حقيقة لا دحض لها . أمل أعرف أنه لن يتحقق أبدا .

«وأمّا اليأس فهو أخ شفيق .. كأن القحط عبرة كل أرض .. فسيان التهائم والنجود»

نعم يا بن بابك ، رفيق التولّج - هازئا بالأمانى - فى دُلَجٍ لا ستيضاح لها ولا انجياب .

هل ستغسلين قميصى الآن - كما كنت تفعلين فى الزمن الآخر - ن لوثات الأمل الخدّاع ؟ أنتقع فى «وشل الماء المُدمّن الذى يُزجِى فناً مجنحة» ، إلى قرار هوّات بلا قاع .

فى ذلك الزمن - باقياً وماثلاً الآن وإلى دهر الدهور. كنتِ جالسة على كرسى المطبخ المنخفض وأمامك الكروانة ، أم هل هو الطشت

الصغير ؟ ، ومن ورائك الغسّالة الكهربائية آخر موديل ، وأنت تشطفين القميص بعد أن كنت قد نقعته فى الماء والصابون طول النهار، أصابعك القادرة المحنكة المكتنزة قليلا فى الرغوة البيضاء الضاربة إلى رمادية خفيفة ، وعلى وجهك مسحة سهوم واستغراق ، كمن يقوم بطقس أو يفى بعهد أو يقدم قربانا ، استغفاراً عن خطيئةٍ غابرة أم استمطاراً لأمل منظور ؟ أم لمجرد إتقانِ ما بين يديك من عمل ؟ لماذا هذا المشهد لا يبارحنى - من بين مشاهد أخرى - ألأنه فى بساطته ويوميته محمّلٌ بدلالة تذهب إلى غور نفسى ؟ أم لأن ترفعك وكبرياءك الروحية قد تجسدت فى إيماءة اتضاعٍ ليس فيه أدنى ابتذال ؟ أم لأنه ، ببساطة ، يقول الحبُّ ، دون كلمات ؟

قلتِ : I care for you , I'll always do

قلتُ : دائماً ؟

اقول : ما معنى انكِ تهتمين - أو تعنين بى ؟

يا لبؤتى الجميلة الشرسة عاقلة الوجه جامحة الشهوة ، عيونها مروج خضراء ناضجة ، تضم ريش جناحيها على نهديها المكبوتين المتحديين ، قابعة على رخامِ الآن ومحلّقة الآن نفسَه فى سماءٍ مثقَلة بالسحب لم تحدث فى الماضى ، جناحاها شاسعان ومخالبها أظفار طويلة قانية المانيكير ، ضاربة فى عمقى .. فخذاها العظيمتان رابضتان على عجلة القَدَر الدوارة ، على شاطىء البحر وأنت عارية بضّة ، دائمة ..

هل أنتِ هنا ، الآن ، ما تزالين ؟

٧- لا وقت للنوستالجيا

هذه المرة لم تكن العينان اللتان تواجهاننى معاديتين . بل كان الوجه كله غريباً ، ثقلت عليه وطأة السنوات ، وتركته حادا ، قاطع الزوايا ، تجاعيده محفورة غائرة .

كان وجهاً لا صلة له بى .

لكننى كنت أعرفه كما لم أعرف وجهاً آخر .

هو قناعى ، طول العمر .

أوشكت أن أهتف به : مَنْ أنت ؟ لماذا تواجهنى باستمرار ؟ هل تطاردنى ؟ كان وجهاً فَقَد البهجة كما فقد النضارة .

عندئذ تمنيت أن أرى وجهها - هى - مُحبّة ، وغزلة ، عيناها العميقتان مكحولتان بخطٍ من مخملٍ ليلى ، عاشقتين ومتسائلتين باستمرار ، دون إدانة . تنتظران .

شفتاها قانيتان بدم الشهوة غير المسفوك ، وعلى أعلى وجنتها اليمنى تلك الشامة المدورة السوداء التى تؤكد تضرج خديها بحمرةٍ وردية فاتحة من تدفق الحميا الخفية ، صامتة ومتطلبة فى الصمت . بعد ذلك بكثير سوف تأتى صرخة وجع المتعة .

لم أحتمل ، فنزلت إلى الشوارع ، وسألت نفسى : أبحث عنها ؟ أم أحاول أن أجد نفسى ؟ قلت : من أنا ؟ قلت : فيم بحثى ونُشدانى؟

فى قلب الحب وَحشة .

أضمها إلى صدرى ، بكل ما فى صدرى من توق ، فأجد بيننا حاجزاً شفافا لا عبور منه إليها .

أطلال أزجى إليها التحية ، أطلال هى خضر الروابى فى روحى ، نضرة ، عفية ، ترف بنور ليس من هذه الأرض . تنوس على سفوحها سيقان عبّاد الشمس صُفْر السنَى ، رؤوسها المستديرة عيونُ مكحولة مفتوحة فى روحى فى ساحة صحنِ كنيسةٍ هى ؟ أم هو مسجد سامق عريق ؟ أم هو الرامسيوم وقد سقطت أسواره ؟ فقط أعرف أنه منه ينشعب شارع اليوسيس ، مستباحاً الآن ، بلا حُرمة .

«لم يكن عهد الهوى إلا مناما ..»

فى هذا النوم صحوى الوحيد .

يا ساكنى الأطلال غضّةً يا نعمةً مازالت ، ما أنضر محيّاكم ! .

كما لو كنت قد لقيتكم منذ لحظة ، هأنذا ألقاكم الآن ، لأول مرة.

ماثلون أنتم ، بكل بكارة النظرة الأولى ، بكل نشوة اللمسة الأولى .

صَدَمة البحْر تداهمنى فى شارع شامبليون ، ثغرة مفتوحة نحو أبديةٍ مراوغة ، والسحاب الخفيف ، مثل غيابِ من أحبهم ، يطفو على سماء زرقاء ساجية ، صامتاً ، لكن بينى وبينه صلة ما .

كنا فى الصيف، وكنت، فى غيمةٍ مضيئة، قد شربت الراح معه. وكانت السماء ، بلا نهاية ، هى سقف غرفتى المتكررة التى لم تَنْقَضِ قط . وكان يخايلنى ، يضحك ضحكة بلورية صافية ، لها موسيقى ، حسّها عذب ومهدِّد .

أجده، فجأة، يملأ الأرض والسماء. لا يهولنى. عيناه دائما غريبتان

وحميمتان، لهما ألقٌ أنيس وخطِر. ثم أجده قد اختفى من أمام عينى. لكنى أعرف أنه هناك .

كنت قد قلت له : أخلع عليك نفسي أم نفسك تخلعها علَىّ ؟

لَبس القلوب عندى ليس مما تخشى مهالِكه .

لكنه فقط ضحِك .

هل قال لى : انزلْ ابحثْ ...

هل قلت : عُمن .. عَمَّ أبحث ؟

أم قلت : هل البحث غاية ؟ هل البحث وصول ؟

عين مفتوحة فى سماء جُوانيّة ليست صافية ولا ناعمة ، تضطرب فيها أمواج السحب الداكنة المتقلبة ، تشقها لُمع بروقٍ تقعقع ، سرعان ما تخبو .

فى آخر شارع السلطان عبد العزيز كانت مئذنة جامع القائد ابراهيم هادئة الرشاقة . كنت أحبها ، وآمن اليها ، عندما كانت هناك ساعات للكبرياء . أما الآن فكأن فيها غرابة ، ونُذُر غامضة .

مبنى منظمة الصحة العالمية بأعمدته الكلاسيكية الزائفة يبدو ضيقا ومقتحما ، وعليه حَرَس . وحديقة الخالدين تحولت إلى سطح جراج تحت الأرض شكله خانق ، التماثيل صامتة خرساء ، لا تعنى لأحد شيئاً ، ومقفل عليها .

وعندما وصلت محطة الرمل ، على الصبح النضر ، وجدتها رثة صاخبة مضطربة المسالك ، مزدحمة بركاكة السلع التافهة ينادون عليها بأصوات ميكانيكية : كل حاجة بجنِى وربُع تعالَ بُصّ وشوف .

كله م المراكبْ الحقْ بجنِى وربع شرابات حريمى ورجالى وأتفال العبْ واتسلى ورق الكوتشينة بجنى ورُبع ، دقدقة متصلة على الموازين القائمة لها وجوه مرقّمة دائرية ، جافّة ولامعة أخذت من أصحابها مسحةً بشرية مهدرَة ، تُجاوِبها دقدقة متصلة من بويجية الأحذية يخبطون بانتظام على عدتهم بالفُرش الخشبية ، جالسين على الأرض ، متجاورين ، بلا زبائن .

«صعدت إلى الترام الأنيق الهادىء حتى فى زحمة عِزّ ساعة العودة، ووجدت بجانبها مقعداً خاليا. كانت جميلة وعذرية وبكراً رشيقة الخصر ورقيقة. وكان النخل السلطانى على الجانبيْن هفهاف السَعَف . قلت لها معابثاً بالسؤال التقليدىّ المكرور الذى كأنه شفرة : كليوباترا الحمامات ؟ فأومأت مبتسمة بأنوثةِ بنتٍ كبرعم وردةٍ مغلق الأكمام وَرَقُه الندى يلتّم على بعضه بعضا يكتنز عطراً شهويا مكنونا سوف يسكرنى رحيقُه فى قابل الأيام» .

كنّ يعبرن ساحة المحطة العارية ، الآن ، المكتظة بماكنات الفشار وثلاجات الكوكاكولا ومقاصير بيع الحلوى والسجاير . سوداواتٍ تماما ، على رؤوسهن أغطية زرقاء قاتمة وفي أيديهن قفافيز مشغولة بالتريكو ، أحذيتهن رجالية مسطحة الكعوب ، ملففاتٍ بأردية أحسها ثقيلة ، سابغة لا يبدو منها غير العيون اللامعة ببريقٍ صلب ، فى أيديهن الأطفال يتواثبون بحيويةٍ لا ينال منها شىء ، ويرفعون إلى الخَيمْات الأمومية الملففّة بالسواد والقتامة وجوهاً فيها براءةٌ باقية وطلبٌ للحنان .

«لحظة عبور الشارع إلى كافيتيريا «غزالة» فى الدور العلوى بعد سينما ستراند كانت لحظة استشرافٍ اللُّقْيا ونِعَم القُرْبى» .

عبرت الشارع إلى الرصيف الذى يغص ببياعى جِلَد الساعات وإطارات النظارات والصحف والمجلات الملونة وكتب أسرار الجان وعذاب القبر وعجائب التطبب بحبة البركة ، وكانت الشاورمة البايتة المسخنة مراتٍ عديدة ، بلهب البوتاجاز يلعق لحمها بألسنةٍ كيماوية ، تساقطت منها قشور رفيعة مكومة تحتها على رقعة الألمونيوم ، لها رائحة فيها عَطَن خفيف من اللحمة الزهمة ، تختلط برائحة بخور تعبق غيامتها فجأة من داخل محل الحلوى واللُّعَب والسودانى ، زجاجُه ملوث قليلا بآثار أصابع قديمة ، والرجل يهز مبخرته بقوة وجلبابه الرمادى المغبر يمسح بلاط المحل ولحيته رمادية شهباء هائشة ، صلِ على النبى صلِ ع الحبيب تكسبْ وكمان زيده صَلاه ، وسينما فريال عليها قضبان وأبواب حديدية كأبواب السجون تتردد أصداء الكلام فى الصالة الأمامية كما لو كانت فى ساحة جوفاء بين صور فريد الأطرش وفريد شوقى وفاتن حمامة وإعلانات كبيرة بذيئة التلوين عن فيلم اليوم .

لم يكن طيفها بجانبى ، وأنا أمر بجانب البياعين وأمامهم بضاعتهم من الصنادل والجزم والشباشب البلاستيك صاخبةً فى ركام ألوانها فاضحةً فى ابتذالها ، والشورتات الرجالى اللميعة الطويلة الفضفاضة على الموضة وعلى الشريعة - حسب المزاعم - والقمصان الاسبور المربعات وقمصان النوم بالحمالات الرفيعة حمراء وزرقاء من

نايلون نصف شفاف توحى بأجسام نسوية ميتة على الفراش أو مدعوكةٍ مهموكةٍ فى تحضير الطبيخ ومسح مؤخرة الأولاد والبنات والناس تأكل الفشار السخن أحس فى فمى تفاهةَ طعمه وهشاشةَ قوامه ، أقماع غزل البنات الحمراء الهائشة تتهشم فورا تحت الأسنان وتتعلق خيوط طيارة منها بالشفاه التى تلعق سكّرها المصبوغ فى سموم الصناعة مَنْ يدرى فى أى غُرف مظلمة ساخنة وملطّخة وتحت أى سلالم متهاوية وموحلة فى حارات بحرى أو خرابات العصافرة .

قلت: أبحث عنها ؟ قديستى المنتهَكة المنهوكة والمستباحة بلا ثمن؟

قلت : هل أراها أبداً بعد ؟

قلت : فات أوان الحنين .

هل برح بى الطيف الذى يسرى ، فزادنى سكراً إلى سكرى ؟

أستنجد بك يا شاعرى البحترى ، ولا نجدة .

قلت : سبات الروح الكمين ليس غياباً . ولا غيبوبة .

«فى طريقى إلى عملى ، وحبى ، فى الشركة التى أسميتها أسماء عديدة وعرفت فيها «نعمة» صاعقة الهوى الحق ، آتى إلى أول شارع النبى دانيال من طرف ميدان المحطة الفسيح، من أمام مبنى التليفون والتلغراف، تهب علىّ فى الصبح الباكر رائحة الجنايين المنسّقة المرويّة بعناية، ويتهادى الترام فى وسط الشارع الصامت، منيراً بأنواره الكهربائية فى وسط نور الصبح الغامر» .

مستودع زبالة السلع والكراكيب الملفوظة علينا من الأسواق العالمية قذفتْها إلينا مراكب سوداء محملة بركام نفايات النمور الآسيوية

قادمة من تايوان وهونج كونج وسنغافورة كلّه م المراكب إلحق إلحق شرائط فيديو رامبو متضخم العضل حتى الورم المكين وصراعه مع أشباه التنانين الاصطناعية ، وأفلام المصارعين المرتدين أسمالاً أنيقة مطرزة التمزيق ، وبقايا الكتب المصفرة متلوية الورق باعها تلاميذ المدارس بعد الامتحان ، وورثة الميتين هواة القراءة القدامى ، المجلات التي باخت أغلفتها وبهتت ألوانها وأصبحت موضوعاتها المثيرة ماسخة وغير مفهومة ، تلال الجوافة أيضاً حباتها الأمامية ممسوحة بالزيت ووراءها الحبّات المعطوبة طرية الجنبات - كلها على أى حال مشبعة بالمبيدات والهورمونات - والبلح الأسود لزج الشكل له حرافة عسلٍ مخزون فى لحمه المتهرىء .

هل كنت أبحث - مازلت - عن وجهى أم عن وجهها ، فى أطلال سينمات شارع فؤاد : سينما رويال ، وسينما بلازا وسينما فؤاد ، وهل سمعت لها أنين نَزْعٍ لا ينتهى ؟

«أطياف مخايلة عرفت فى طواياها لحظات هدوء وأناقة مع أوديت الغابرة إلى جانبى ، ويدها فى يدى فى العتمة الرفيقة ، نتلمس معنى ولانجده حتى فى إيهامات چان جابان وچان ماريه وسيمون سنيوريه وميشيل مورجان وترجيعات ناى أورفيوس تحت سماء باريس».

وهل وجدت بُغْيَةً لى فى شارع شريف الذى كان ارستقراطيا واجهات محلاته باذخة الجمال ؟

كان اللاجئون السودانيون بوجوههم الفحمية لامعة السواد وعيونهم البراقة كالخَرَز وقاماتهم النحيلة الطويلة المحنية ، أمامهم أكوام هزيلة

من البخور السوداني والعطارة المقوية للباه أو الشافية من الإمساك والإسهال ووجع البطن والأسنان ، ملفوفة في ورق نايلون عكر الشفافية ملصوق بصمغ خشن عليه بطاقات زرقاء وصفراء مطبوعة بحروف مطبعة مكسرة الحواف .

«في مكتب «الميساجيري ماريتيم» كان أنطوان ، بعد ساعات العمل الرسمية ، يفتح لنا المخزن الخلفي وفيه ماكنة الرونيو التي صنعناها بأيدينا نطبع عليها المنشورات التروتسكية وصحيفة «الكفاح الثوري» على رأس صفحتها الأولى المنجل والمطرقة ورقم ٤ بالعربي .

ارم ذات العماد ليس مثيلها في البلاد .

ماسة الحب المفقودة ، أشعتها ، داخل الحجر الشفاف ، ومضات طعْنٍ نفاذ» .

- وله يا حسين انت بتلعب مصارعة حرة ولا روماني ؟

- علبة النيدو بـ ٦ جِني ...

- مين عايز فلافل ؟

«لم يكن عهد الهوى إلا مناما» .

- بيساريا .. بيساريا .

- والله العظيم مِية في المِيّه

- يا ختي عنها وما خليت لهوش .. لا والنبي ، ومن نبي النبي نبي، هو كل الطير اللي.. قلت له م اللي متنقي ع الفرازة.. آه والنبي

- بيكيا .. بوتيليا ..

- أيُّوه يا جدعان .. أماً حِتّة نتايه .. طابت واستوت وطلبت الأكالة يا وله .

قادمة من تايوان وهونج كونج وسنغافورة كُلّه م المراكب إلحق إلحقْ شرائط فيديو رامبو متضخم العَضَل حتى الورم المكين وصراعه مع أشباه التنانين الاصطناعية ، وأفلام المصارعين المُرتدِين أسمالاً أنيقة مطرزة التمزيق ، وبقايا الكتب المصفرة متلوية الورق باعها تلاميذُ المدارس بعد الامتحان ، وورثةُ الميتين هواة القراءة القدامى ، المجلات التى بلت أغلفتها وبهتت ألوانها وأصبحت موضوعاتها المثيرة ماسخة وغير مفهومة ، تلال الجوافة أيضاً حباتها الأمامية ممسوحة بالزيت ووراءها الحبّات المعطوبة طرية الجنبات - كلها على أى حال مشبعة بالمبيدات والهورمونات - والبلح الأسود لزج الشكل له حرافة عسلٍ مخزون فى لحمه المتهرىء .

هل كنت أبحث - مازلت - عن وجهى أم عن وجهها ، فى أطلال سينمات شارع فؤاد : سينما رويال ، وسينما بلازا وسينما فؤاد ، وهل سمعت لها أنين نَزْعٍ لا ينتهى ؟

«أطياف مخايلة عرفت فى طواياها لحظات هدوء وأناقة مع أوديت الغابرة إلى جانبى ، ويدها فى يدى فى العتمة الرفيقة ، نتلمس معنى ولانجده حتى فى إيهامات چان جابان وچان ماريه وسيمون سنيوريه وميشيل مورچان وترجيعات ناى أورفيوس تحت سماء باريس».

وهل وجدت بُغْيةً لى فى شارع شريف الذى كان ارستقراطيا واجهات محلاته باذخة الجمال ؟

كان اللاجئون السودانيون بوجوههم الفحمية لامعة السواد وعيونهم البراقة كالخَرَز وقاماتهم النحيلة الطويلة المحنية ، أمامهم أكوام هزيلة

من البخور السوداني والعطارة المقوية للباه أو الشافية من الإمساك والإسهال ووجع البطن والأسنان ، ملفوفة في ورق نايلون عكر الشفافية ملصوق بصمغ خشن عليه بطاقات زرقاء وصفراء مطبوعة بحروف مطبعة مكسرة الحواف .

«في مكتب «الميساچيري ماريتيم» كان أنطوان ، بعد ساعات العمل الرسمية ، يفتح لنا المخزن الخلفي وفيه ماكنة الرونيو التي صنعناها بأيدينا نطبع عليها المنشورات التروتسكية وصحيفة «الكفاح الثوري» على رأس صفحتها الأولى المنجل والمطرقة ورقم ٤ بالعربي .

ارم ذات العماد ليس مثيلها في البلاد .

ماسة الحب المفقودة ، أشعتها ، داخل الحجر الشفاف ، ومضات طعْنٍ نفاذ» .

- وله يا حسين انت بتلعب مصارعة حرة ولا روماني ؟

- علبة النيدو بـ ٦ جني ...

- مين عايز فلافل ؟

«لم يكن عهد الهوى إلا مناما» .

- بيساريا .. بيساريا .

- والله العظيم مية في المِيّه

- يا ختي عنها وما خليت لهوش .. لا والنبي ، ومن نبي النبي نبي، هو كل الطير اللي.. قلت له م اللي متنقي ع الفرازة.. آه والنبي

- بيكيا .. بوتيليا ..

- أيُّوه يا جدعان .. أماً حِنّة نتايه .. طابت واستوت وطلبت الأكالة يا وله .

- البساريا .. طازه طالعة بميّة البحر ..

- فاجافيجو .. فاجافيجو ..

- مَنْجَه عويسى وهندى وبيض العجل شيليان حَمَار وحلاوة بتلاتة شلن كوالين أعمّر مفتاح أعمّر أصلح وابور الجاااز .

لم يكن البحر بعيدا .

أعرف أنه هناك ، ينتظرنى ، سوف أعبر اليه الحوارى التى زحمتها أكياس نايلون مملوءة بالنفايات وأكوام صغيرة من قمامة فيها بُقع مبتلة سوداء .

وكان الصقر يحدجنى ، بغضب ، من قفصه الضيّق المرهف القضبان المعّلق على حائط شارع الكنيسة المرقسية . لم يكن يستطيع أن يبسط جناحيه ، كان يعرف ذلك ، لا يبسطهما ولكنه لا يقبل ولا يستسلم . يصأى بصوت ثاقب ، يهبط فجأة بمنقاره الحاد المقوّس العظام على غذاء الأسير : مزعة لحم نيئة حمراء مرمية على أرض القفص . كل ما بقى له من أطياف نزوات الجموح والطِراد والتحليق ، جوعه إلى السماء لا غذاء له .

مُولدات الكهرباء الصغيرة النقالى على رصيف شارع سعد زغلول، حمراء مضلعة ، أمام المحلات تمدها بالكهرباء عبر أسلاك سوداء غليظة القوام شكلها شرير ، تهدر وتطنّ وتزأر بلا انقطاع ، بآليةٍ متصلة لا تهن .

وجنبها، فى صناديق الكرتون، السلاحف الصغيرة والكبيرة مكومة تهز

أرجلها بحركة بطيئة غير مجدية ، أفاط قميئة لديناصورات ممسوخة نسيتها الدهور داخل دَرَقات تبدو سريعة الكسر وقليلة المعنى.

نَصْبات البيّاعين شرابات حريمى نايلون سادة ودانتيلا وصوف مشغولة باليد وكيلوتات وسوتيانات مفتوحة ومعلقة ومغلفة بماركات دولية مزيفة وتلال من چاكتات جلد اصطناعى وقماش مبطن كُله م المراكب الحقْ الحقْ قَلَبْ وشوف بعشرة جِنى أوكازيون المراكب يا خَراب بيت الخواجا والطواقى الخليجية المدورة المخرمة المصنوعة فى الهند واندونيسيا .

«صعدت إلى مكتب الاستشارات العّمالية والنقابية الذى استأجره وفيق فى الدور المسروق الذى تجده بعد سلالم حلزونية حديدية فوق محل الجزم ، رائحة الجلد الأصلى الحريفة تفغمنى وأنا أدفع باب المكتب الزجاجى وعليه الاسم بالخط الثُلث الذَهَب : «وفيق راقم مستشار عمالى وصناعى» .

كنت قد زرته منذ أيام فى شقته الضيقة فى شارع امبرواز رالى بعد محطة كليوباترا الصغيرة ، وكان فى البيت رائحة رضاع الأطفال وزهومة الأجسام المقززة بكثافة عصاراتها ، ورحّبت بى امرأته الطيبة البيضاء المتلئة وهى ترد طرف ثوبها العلوى على صدرها بعد أن فرغت من رضاعة آخر ذريتها المتعاقبة . وكان الشارع عندما نزلت بالليل خاليا ، والرذاذ يسقط خفيفا وأنا أسارع خطوي وأحس غصّة حبٍ محبوط مكتوم لم أعترف

له بتباريحه، كما كان -هو- يشكو لى عذابات قلبه أيام زمان» .

وفيق الآن وعائلته الكبيرة قد نزحت عن مصر من زمان ، وتفرقت ذريته إلى مواقع الغربة فى ميلانو ووندسور وبريتانى ، لا يعرفون أنهم غرباء .

أمام طلل أطياف هذا المكتب القديم ينادى الرجل القاعد القرفصاء على الرصيف : لعبة عشان الولد لعبة عشان حمادة العروسة بتعوم وحديها فى المَيَّة اتفرج يا سلام ، تضرب بذراعيها وساقيها المتصلبتين من بلاستيك غير متقن الصنع فى مياه الطشت ، وفوح الخبز السخن الطالع من الفرن يختلط بالأنفاس الكيماوية من صناديق الجيلاتى ، محلات السجاير لا رائحة لها وعلى العربات الكارو المسنودة على عكاكيز رفيعة أكوام فتاحات العلب والسكاكين والشواكيش وفيشات الكهرباء والمفكات من كل المقاييس .

عَبقَ البن البرازيلى يحمل إلى نفث الغابات الاستوائية والتلال المخضرة المُسْبِعة فى تنجانيقا والأمازون وصرخات القرود المفاجئة مع زعيقٍ حاد للببغاوات وخميس سائق السيارة القادم أصلاً من زنجبار يحذرنا من النزول أو انزال شبابيك السيارة لأن هذه الجهة فيها الثعابين الضخام ذوات الأجنحة التى تطير وهى تحمل الرَجُل الجسيم لى ما فوق الجبال لتطعمه فراخها النهمة مفتوحة الأفواه .

محل البَن - والمخزن والطاحون - جوفه غائر معتم قليلا وعريق مازال محتفظاً بآثار عزٍ غابر .

يا من يحن إليك فؤادى ...

هل تذكرين ليالي هواكِ .. هل تذكرين عهود الودادِ ؟

«فى الپيتيه تريانون – الذى انضم اليه الآن بودرو – أخذت الشاى الكومبليه فى حديقته الصيفية الخلفية ، وطلبت رفيقتى التى نسيت اسمها الآن شيكولاته مثلجة وجاتوه بالكريمة ، كانت تقول إنها تحبنى وتسهر الليل فى نافذتها حتى ترانى راجعا من «ملاهىَّ» – كما قالت – بعد منتصف الليل فتنام وهى «تحلم بحبنا» الذى لم يتحقق قط ، وكانت تخرج إلىّ من بابها فى الصبح ، بقميص نومها المفتوح عن صدر وفير مضغوط وذراعين لحيمتين بيضاوين كأنهما فخذان ، لتقول فقط بعينين ثقيلتين بالكحل والحلم ، هامسةً بصوت خفيض مبحوح قليلا : صباح الخير يا حبيبى ».

هل طُويت ساعاتُ الحب ؟

قالوا محطة الرمل تحترق ، النار تصعد إلى عنان السماء ، سينما ستراند ، والفيومى ، وفرع البنك الأهلى ، وعلى كيفك ، ومحلات الساعات ، والكازابلانكا (التى استحالت صالة للأفراح البَلدَى وزعيق المطربين السَكّة والراقصات العوالم المضروبات) وشادر الكتب المجلّدة المذهبة ومحل العصير ، قالوا كلها تأكلها النيران .

كنت النار .

جوانحى مشتعلة . متعة شبقية أن أتقد وألتهم وأدمر . أنشق وأنفث دخان التهابى . أئز وأفح باللظى الذى يستنفدنى وأُستَنفَدْ به. فى قلب شعاليل النار وجهها مضمخ الشفتين مكحول العينين، حاجباها

توسان واسعان نازلان على أعلى وجنتيها يوشكان أن يلتقيا بطرف الكحل المرهف المستدق تحت العينين الدعجاوين النفاذتين . لم أعرف وجه مَنْ . مددت إليها ذراعي في قلب الضرام لم أجد أحدا .

عندما جريت إلى محطة الرمل وجدت النار قد انطفأت وتركت ندوباً سوداء في جُنُوب المبنى المطعون ، خبت ألسنة اللهب التي تعلقت بحيطان «غزالة» القديمة - لم تُخْمِد موسيقاها الناعمة الخافتة ولم تُطْفِىء ضوء أحلامها الرفيق ولا أحرقت وسائدها الطرية على المقاعد الوثيرة ، لم تضعْ لُقيَ الحب العذبة ولم تنقضِ ساعاتُ النجوى ولم تذْوِ أحلام مستقبلٍ لم يأت قط .

هل يمكن أن يعاد ترميم مالم يندثر ؟

قلت : لا دثور ولا انقضاء .

لا وقت للنوستالجيا .

ليست هذه مرثية ، بل ضرباتُ غضب .

عشيقتي لماذا تركتِ نفسك تستباحين ؟ لماذا تركتِ الغرباء ينتهكونك ثم أخذتهم - يا قادرة - إلى حضنك فاذا هم من بعض عمق جسدك ؟ كيف تستحيلين ، بالاغتصاب ، إلى توحدٍ مع الواغلين ؟

شارع سيدي المتولي بالليل هادىء وشبه خاو . مبنى المدرسة اليونانية القديمة بأعمدته الشامخة وبنيته الهيلينية مازال مضيئاً وعامراً بأنفاس اليونانيين الاسكندرانية القُدامى من قاليماخوس إلى كافافيس، ومن أرشميدس إلى سلفاجو، من سكيريانيديس الدون چوان موضة الخمسينات كهلاً رياضيا متوفزاً بالغَزَل الجسداني إلى كوستا

البقال الذى على قمة شارعنا فى راغب باشا فى دكانه أطايب الحياة من مأكولات ومشروبات التاراما والأوزو، الباكالاه والبلاميطا، الكونياك والنبيذ القبرصى الحلو إلى جانب الحلاوة الطحينية والجبنة الدمياطى والصابون نابلسى فاروق وصفايح الجاز ولوفة الحَمَّام .

أمام المبنى الرشيق المهيب الذى يتضوع بأنفاس الاسكندرية الهيلينية ذات النكهة المصرية كان البيت القديم تطلّ من جداره الحجرى الراسخ مشربيات دقيقة النَمْنَمة مخروطة من الحلم بصنعة المحبة ، ينسكب عليها نور القمر العالى البعيد ويسيل من على خشبها المشغول الحميم .

هل رأيتها تُطل منها ، شعرها الغزير الوَحِىّ مُلقى إلى جانب وجهها الأسيل ، انهمار دفىء يدعو اليدين إلى الغوص فى غماره الوَحْفة الوثيرة ، طيف ليلةٍ هندية وهى تلقى الأشعار ، حافية القدمين أنفاسُ الناس - وأنفاسى - معلقة بأنفاسها رخيمة الجَرس أنثوية الإيقاع صوتها فيه تمكّن وحصافة وبضّ بالنسوية وغلمة الشَبَق . كنت ليلتها قد عانقتها وعرفت نعومة أغوارها ، وكان بكاؤها بعد ذلك حاراً وعنيفا .

وتحت بيت سيدى المتولّى كان الجراج يشغل صحن الفناء القديم المسفلت الآن ، له باب حجرى مقوس العَقد تدور عليه نباتات منحوتة وبينها خطوط ناتئة بالخط الثُلث الجَسُور «ما شاء الله .. ادخلوها بسلام آمنين» . الجراج يبدو لعينى المجهدتين فسيحاً معتماً . ركنت

السيارات وديعة الجسوم بالليل إلى السكون . الأرض تمتد إلى داخلٍ لا تُرى نهايته فى براحٍ خاو تتردد الأصداء فيه .

على باب الجراج الحجرى السميك غزالة مصرية ، مربوطة إحدى سيقانها فى عمود حديدى قصير ، بحبْل مضفور مجدول برقة من خيوط البلاستيك اللامعة .

رقيقة ، هفهافة الجسم ، رأسها دقيق فى سَحْبته إلى الأمام ، وشفتاها تختلجان . عيناها واسعتان ، مكحولتان ، فيهما دهشة .

أصغر قليلا من حَمَل الذبيحة ، وأكبر قليلا من «بست» القطة اللبؤة التى لا حَبْس لها ولا يمكن أن تستمر فى الأسر ، حيةً ، ناطقة، لها كبرياء .

كان الجامع يربض ، راسِى الأركان ووطيداً ، على قمة الشارع الليلى المقمر . ضوء القمر يحدد نصوع جدرانه الخارجية المكينة ، ويرسم ، بدقة ، خطوط المئذنة الجميلة ومقرنصاتها ودانتيلّا معمارها الأنيق الذى يوحى إلى بجلالٍ ومهابةٍ ومحبةٍ تهتز لها مشاعرى وأصبو إلى حمى حنانها .

انكسر مركبى فى بحر الهوى .

عصفت به الأنواء ، وارتفعت أمواجه جبالا .

كم دنسوك يا قدسيّة الأسرار .

بدء إنقاذ آثار كوم الشقافة :

كتب - عاصم بسيونى فى «الجمهورية» يوم ١٩٩٣/٩/٧ :

«بدأت عمليات الترميم بمقابر كوم الشقافة الأثرية بوسط الاسكندرية وعلاج مشكلة المياه الجوفية بها .

أعد خبراء هيئة الآثار دراسات علمية متخصصة لعلاج ارتفاع منسوب المياه بحفر ٦ آبار ارتوازية على عمق ٢٥ مترا بأبعاد مناسبة عن المقابر الأثرية مهمتها سحب المياه الزائدة بشكل منتظم للحفاظ على محتوياتها الهامة .

كان د. عبد الحليم نور الدين رئيس هيئة الآثار قد زار منطقة كوم الشقافة وطالب بسرعة إجراء وتنفيذ عمليات إنقاذ المقابر الأثرية بعد أن هددتها المياه الجوفية بالانهيار ».

أما تحت كوم الدكة وأمام باستروديس ، فقد كانت البنت ترتدى البنطلون الجينز الخشن على ساقيها العبلتين ، وحذاءً عاليا رفيع الكعب ، وبلوزة حريرية شفافة تُرى منها حمالات السوتيان الأسود من على كتفيها الناصعتين ، وكان شعرها مفروشاً على ظهرها ، تسير بثقة وهى تخترق موج نظرات الرجال . لم يكن لها زمن .

وفى أهرام يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٩٣ أن طبيب الحجر الصحى بالمطار «احتجز ١٥ صقرا من صقور «شاهين» النادرة الغالية (٥٠ ألف جنيه للصقر الواحد) وكانت الصقور برفقة أحد كبار الزوار، وقد استشاط الضيف غضباً من الطبيب البيطرى، الذى يؤدى واجبه، ورفض حجز صقر واحد .. لأن هذه الصقور ، سوف ترافقه فى رحلة الصيد بصحراء مطروح .

وعندما أراد الطبيب البيطرى الشاب أن ينفذ القانون بحجز الصقور .. أصيب بخيبة أمل وحرج شديدين ، بعد أن أبرز الضيف موافقة «رفيعة المستوى» بالإفراج عن الصقور فور وصولها إلى المطار .

والقصة الثانية عكس الأولى ، فقد تعرض أحد الأطباء البيطريين إلى ضغوط شديدة ، عندما وصلت احدى القوافل وكانت برفقة أحد كبار الزوار العرب ، وكانت القافلة تعبر الحدود المصرية ، إلى خارج الحدود ، وقد حملت سيارات القوافل لحوما .. كان المطلوب أن يصدر الطبيب البيطرى شهادة تؤكد صلاحية هذه الذبائح التى تحملها القوافل ضمن عائد رصيد الصيد فى الصحراء المصرية للاستخدام الآدمى ليدخل بها حدود بلاده !

والواقع المرّ .. أن صحراء مطروح تزدحم بعشرات القوافل من سيارات الصحراء الأنيقة الغالية ، وقد خرجت كل قافلة .. فى رتل طويل .. وعشرات الصقور .. وموافقة تحمل اسم «وجود فى الصحراء» (أى سياحة صحراوية) من جهاز شئون البيئة .. ويرافق كل قافلة ثلاثة مندوبين من جهاز شئون البيئة والسواحل ، والأمن ، وقد اشترطت التأشيرة أن يكون «وجودا» وليس صيدا ! وهو الأمر غير الواضح : كيف تكون سياحة صحراوية لهواة صيد قادمين من الصحراء ! وللحق فان هذا العام هو أول عام يرسل فيه الزوار الفاكسات والتليكسات ، إلى جهاز شئون البيئة ، يطلبون السماح بالإذن للدخول بالسيارات ، إلى صحراء مطروح ، ومن ضمن شروط هذا الاذن ، عدم حمل سلاح أو صقور ، وتكون رحلة تأمُّل !!

ولكن الوضع مختلف تماما ، فالقوافل تدخل الصحارى بالصقور وتحصل على السلاح من عرب الصحراء .. وعندما أراد أحد مندوبى جهاز شئون البيئة ، الاعتراض على ما يجرى حدثت مشادة ، انتصر فيها قائد رحلة الصيد .. فقد نهر مندوب الجهاز أو عَنَّفه ، على الاعتراض وقال له «اننى أحمل إذناً بالصيد من أسيادك» ! ولما أراد المندوب أن يراقب وجوده ، فشل لأنه يقود سيارة «تلهث» وراء السيارات الحديثة المجهزة لغزو الصحراء ، وكم من مطاردات شهدتها الصحراء الشرقية ومطروح وزاغت القوافل من مندوب الجهاز . ورغم أن جهاز شئون البيئة يصدر تصريح «الوجود» فى الصحراء مشروطا بخط السير ، وعدد السيارات ، وأسماء المرافقين، لكن كل هذا حبر على ورق لأن المندوبين الثلاثة ، يواجهون قوافل صيد حديثة جدا لهذا الموسم الذى بدء هذا الشهر وينتهى منتصف فبراير . وأمام د. عصام البدرى ، رئيس قسم الحياة البرية ، والمحميات بجهاز شئون البيئة ، ٥٠ طلبا بالموافقة ، وقد أوفدت هذه الشخصيات مديرى أعمالها فى القاهرة - وهم لواءات سابقون - للحصول على موافقة «وجود فى الصحراء» ، وكانت سابقا تخرج من حديقة الحيوان «بتصريح صيد» ، والرحلة تمتد لعدة أسابيع وتتكلف أكثر من نصف مليون جنيه ! ويصاحب هذه القوافل صيادون وطباخون وسائقون وتباعون وحراس من الهند وتايلاند ومصر .. عدا سيارات الاسعاف والسيارات الثلاجة !»

وفى ميدان محطة الرمل ، تحت جدران السفارة الايطالية العريقة، كانوا يسيرون ببطء ، يؤكدون وجوداً ، ويثبتون ، بمجرد مشيتهم، شيئاً، رتلاً من الشبان ضِخام الجسوم، مفتولى العَضَل، وغير ملتحين،

يرتدون البنطلونات الچينز ، قرأت العبارات المطبوعة على ظهور قمصانهم الاسبور نصف كم صفراء اللون التى تلتف بإحكام على الأذرع المفتولة والخصور الممتلئة بتفجُّر الأبدان ، بكلماتها المتطابقة : «اللهم ارحمْ شهداءنا وفك قيد أسرانا» يحيط بها رسمُ عِقدٍ فيه أغصان شائكة وزهور صلبة . وأحسست البحر غير بعيد ، وزعانف ضخمة لحيمة تثير موجاً مكتوما من وراء السور الحجرىّ الأبيض على كورنيش المينا الشرقية .

«تخايلتْ لى ، فى زحمة ميدان محطة النار ، شعرها بنى فاتح مفروش على ظهرها فى غدائر مفكوكة مهتزة مع حركة جسمها المحكم، لها موسيقى شهوية كامنة» .

قلت : كم للهِ من تجليّات ... لا نهاية للهِ ».

- يا خوخ يا خد الجميل

- انت يا واد انت وهوّه يا مقاصيف الرقبة كل واحد يمسك إيد أخوه .

السماء تتدحرج إلى شقٍ فى قلب الليل . بياعة الكوكاكولا متربعة تفترش حصيرة صفراء جديدة على رصيف شارع النبى دانيال ، تحت عمود الكهرباء الذى يُلقى نوراً قوياً على بقعةٍ مستديرة بجانبها ، وهى فى الظل ، طفل ينام جنبها على قطعة من سجادة قديمة ألوانها بُنية مترية نصلت خيوطها وتلوح كأنما كانت ثمينة مصنوعة باليد فى أصفهان أو شيراز . وحولها كسرولة الومنيوم أرى فيها بقايا طبيخ ، ووابور جاز عتيق إحدى أرجله مكسورة ، مسنوداً إلى حَجَرة صغيرة ، وأكواب وأطباق بلاستيك غير نظيفة لونها

الضارب إلى الزرقة يميل الآن إلى خضرة زاهية فى نور الكهرباء الساطع ، وجردل واضح أن فيه ماء مغطى بخيشة مبلولة ، قلت : بيتها ، ملاذها من هجوم الليل ووحشة الهجر .

صندوق الكوكاكولا الأحمر مطبَّق الجنبات يبدو عاليا ، وراءها ، فى الشارع الذى أفرغ الآن من كراكيب السلع والشرائط والفواكه والكتب القديمة ومجلات زمان ، غُطِّيت العربات الكارو المحملة بنفايات أسواق العالم ، بدت كنعوش ثوت فيها أشياء - كائنات - غريبة ناتئة الجسوم ومكومة الأضلاع ، وهى تنادى : «الساقع .. ! .. اشرب ليمون .. ! كاكولا .. !» فماذا أقول لكِ ؟ أقول لك «يا أختى .. يا بنتى .. يا امرأة أعرفها فى صميم نفسى .. ليس لى ، حتى ، حق الأخوة عليك ، وليس لى بنات .. أنت غير كّل امرأة عرفتها .. لكنى أعرفكِ كما لم أعرف أية امرأة» .

كانت نحيلة الوجه ، سمراء داكنة ، وعظام كتفيها بارزة تحت جلابيتها السوداء ، أمّ سفرة مكشكشة على زىّ أهل الطرانة ، وكان على حِجرها طفلة ترضع من ثديها الصغير المتهدل الملىء ، قلت لنفسى أليست طفلة كبيرة ؟ لعل عمرها أكبر من سنتين ، وكانت تمتص ، بنهم ، اللبن الذى يلوح أنه شحيح ، كأنه طعام للبقاء على قيد الحياة، فقط. شعرها مترب أشعث ، قوى منكوش فى نور عمود الكهرباء ، وعيناها واسعتان ومحاصَرتان بكحلٍ يبدو أزرق كامدا ، مفتوحتان تنظران إلىّ بسؤال لا أعرف اجابته .

ألم ألتق بهذه المرأة من قبل ؟ وكانت صعيدية ؟ قلت .

ألم أعرف هذا الكابوس ، من قبل ؟

لماذا التكرار ؟ فيم العودة إلى أرض الكوابيس .

- صلّ ع النبى تكسب .. وكمان زيد النبى صَلاه

- قبل ما تخرجى ابقى اتبخّرى م الحسد والعين ، بخور بَسّ !

- أنا بقول لك أهوه .. اوع تَروح هنا ولا هنا .. عينك تزوغ هنا ولا هنا .. أحسن يا اللّه السلامة !

قال لى ، وهو بعيد ، شاهق ، يُحاجّنى : أما زلتَ تبحث عن وفيق، عن وفقاء ، عن وفيقات ؟ أمازلت تبحث عن وِفاقة ، رِفاقة ، صَداقة أو محبةٍ مُوافقة ؟

قلت ، أُحاجّه : أليس التنافر ضربةً لازباً فى كل وفاق ؟

قال لى : لن تجدها قط .

قلت : أظل أبحث .

كانت السماء تنسكب فى البحر، بينما كنت أستمع إلى الصحراء. ما تقوله الصحراء ، بأصواتٍ خفيضة ، نسوية ، تكاد تكون مكتومة ، فيها مع ذلك بَراحَ فسيح ، ونعومة كم أفتقدها .

كأنما البحر لم يعد أنا . أمواجى تتكسر على حافة الصحراء الممتدة إلى مالا أرى . رغوات الزبد تذوب باستمرار ، وتأتى من جديد .

النخيل متشابك الفروع والأصول ، ينبثق من على الحافة متلوى الجذوع ، ينحنى على البيت الذى لم يعد فيه الا جدار واحد غير مكتمل ، مبتور ، من الطوب النىء ، قائم فى فناء موحش خاو .

شراع المركب الحاد معلق فى وهدةٍ بين ربوتين مدورتين من السحب

المكومة الخمرية الضارية إلى صُهبة خفيفة ، لدِنة ومتماسكة ، سُلافة قديمة متوردة اللون ، كثيفة بحياة نضرة . السماء عندئذ هادئة ومشتعلة بالشفق ، بصمتٍ وحنو .

- من صعد إلى السماء فأخذها اليه ؟

- أنا صعدت .

- من عَلاَ إلى السحاب فاحتضنه ؟

- أنا علوت .

ثم هويتُ ، بعد ذلك ، ومازلت أهوى ، فهل انحطمت ؟

النجوم أضاءت ، ليلتها ، فى محارسها ، وابتهجَتْ . هل كانت تبعث إلىّ رسالة ؟

- خايف يكون حبك لىّ شفقة علىّ .

من قال إن الحب والشفقة نقيضان ، أو حتى متغايران ؟

كأن رحمة تبطن عندى كل حُب .

وارحمتا للعاشقين ، ماذا جنوا من الحب ، وجنينا ؟

«صار كلّى قلوبا فيك وامقة . للحب فيها وللأشواق أمشاجُ ..»

الأصوات الآتية من طفولتى لا أستطيع الرد عليها ، لا تفارقنى . فأين حدود طفولتى .

من غير تسايلٍ ولا تهرؤٍ فى نسيج العاطفة : ودّع هواك وانساه وانسانى عمر اللى فات ما هيرجع تانى . لم يعد وقت . لم يعد وقت ، لم يعد وقت ، من غير دموع ، ربما بقليل من الحزن .

هل أنساكِ ؟ هل يُنسى هواكِ ، أبدا ؟

- تين يا عجمية المحفظة والحَلَق بجِنى وربُع المحفظة ع السكيـ .. يـ .. ين

أيوه الفريك الصعيدى يا فريك يا جوافه يا للى النبى حَلاَّك البسْ الصوف بتاع الشتا يا بَلح يا بنات عيشه هوَّه لما يكون ابن جنية واجدع مخلوق خلقه ربنا برضو مش حيستكردنى يا واد يا زلطة .. يا زلطة العنط والله وعزة ربنا وشهّ يقطع الخميرة م البيت الحلوة اللى هناك اللى لابسة حلق أخضر بجِنى وربع الحَلق والمحفظة ..

الصقر بوجهه الانسانى الصارم ، أكبر من الانسانى ، يبسط جناحيه فوق حبيبتى الملقاة على سرير انتهاكها تساقطت منها قطرات دم نزر فى ليلة عرسها ، قالت له ، متى حطمت قفص أسرك ؟ متى انطلقت إلى السماء ؟ قال : لم أكن أسيراً قط لن أسقط ابدا .

الصقر الوحش ندّ التنين أم هو نفسه الثعبان الناطق الحكيم ، هوذا فى المدينة .

قالت لى : لا تصدِّقْ .

قلت : وهل غاب لحظة واحدة ؟

قالت : الدنيا ليل والبحر بعيد .

قلت : حتى فى الغياب حضور مقيم

قالت : متى ؟ متى ؟

قلت : حضور لا يريم

قالت : يا ويلى ! .

قلت : كل أحدٍ يراه .

وفى غيام الرؤية وحجابها الشفيف تهاجمنى التياتين والتنانين والغيلان والدناصير، العماليق الشاهقة والمسوخ القميئة زاحفة كالثعابين الملساء الرفيعة والسحالى ذوات الدَرَقات الهشة والعناكب السوداء

ذوات الأنياب المسنونة والوجوه المخطّطة المبتسمة عن نواجذها ، منها ما هو على مقاسى بالضبط ، ينظر إلىّ بعينين غريبتين .

«البَكّلاه فى شارع إيزيس معلقة مشبوحة فى محلات البقالين ، بين المقاهى والمراحيض العمومية والمقلاة ذات الصحن المتحدر المستدير السخن مائلاً على الفرن المتقد على الدوام ، الرجل يرفع الحمّص والسودانى واللّب بشىء كأنه المذراة ، إلى أعلى ، يفرشها وينفضها ببراعة يدٍ ساحرة، تصطدم الحبوب المدورة الصغيرة بحافة صحن المقلاة ثم تتحدّر من جديد، ويرفعها مرة أخرى بمذراته التى لا تكل .

جسوم البَكّلاه ناشفة بيضاء غير شفافة ، مدلاة من الخطاطيف ، أكوام قمر الدين والبندق واللوز والحمّص وعين الجمل والصنوبر فى شوالات بضة وعضلة ، بهجة رمضان تغمرنى ، قراءة الشيخ محمد رفعت تنسال عذبة رقراقة من الراديو الضخم ذى العين الكهربائية الخضراء المدورة ، تهدهد القلب وتطامن المخاوف لكنها تحمل للفاسقين والعاصين نذيراً صارما كأن فيه رحمة خفية حزينة. مسرات الروح، والحِس، متواشجة، آلامها الآن منسية».

ليس طريق الياسمين ، على العكس ، ببعيد .

يأتينى عَبقَة وأنا أدخل إليه من شارع فؤاد ، فى الحى الإغريقى القديم ، تهب علىّ الآن نفحته الجسدانية المتطايرة ، عبر ستين عاما أم عبر عشرين قرنا من الزمان ؟ الأغصان الرفيعة مهتزة متهدلة على الأسوار الحديدية فى الفيللات الكلاسيكية المعمار، بواجهاتها وأعمدتها الهيلينية ، تفيض هذه الأفنان الليلية بخضرة هفهافة تتوزع

فيها نقاط الزهر البيضاء الدقيقة سهلة القِطاف ، وتملأ جسد الليل الحار المبلول بشذى الياسمين

إلى أين يُفضى شارع الياسمين ؟

الأشعار التى دفنتهُا ، كأنها كنز مكنوز ، تحت جدران قصر النُعمان الأبيض الشاهق ، تحت حيطان فندق أوبروى الشامخة التى رفضتنى فى ليلةٍ هندية قديمة ، وتحت صخرة ستانلى بيه التى انتسفتها بلدية الاسكندرية الهوجاء ، هأنذا أحتفر الأرض لأستخرج تلك الأرصدة ، فيطالعنى وجهه الضاحك ضحكة بلورية ، وفمه الذى ينفث النار .

فى «الأهرام» يوم ٣ مايو ١٨٩١ من الأسكندرية : «قلنا إن عدد الآبار فى البلدة بلغ ٩٠٠ والصحيح أن هذا القدر فى العطارين وحده . أما فى عموم الثغر فيوجد ما ينوف عن أربعة آلاف بئر يستقى الأهالى من مياهها السامة القتالة» .

قمر القلوب أين نورك ؟

حبيبتى الطيعة المنتهكة ينخر فى جسدها عطبُ شهواتٍ غابرة ومقيمة ، تظلين مع ذلك لصيقة بالقلب بل بالجسد منى ، تهتز لك أشواق روحى. ومهما كنت صموتا، بل مُخرسَة ، تظل آيات مجدكِ مرفرفة فى هذه السماء التى غاب عنها النور . أين أنت ؟ أما تزالين هناك ؟

كنت الآن أجرى ، بخطو سريع منتظم ، لا أحس أن الأرض تحتى ، لا أنهج ولا أكاد أعرف أن لى جسما ، خفيفا أجرى كأننى أطير ، كأننى فى حلم أطير .

البيوت القديمة وراء سينما ماچستيك لها حدائق فسيحة مهملة معشوشبة ، قوات الأمن تحتلها ، ويقف أمام البوابة الحجرية الضخمة بجمالها غير البائد حَرس مسلح ، بالسترة السوداء والخوذة السوداء والمدفع الرشاش الأسود الصغير فى طرفه السونكى الحاد سطحه الجانبى فيه تجويف منقور منتظم الحواف ، مشرع للأمام .

سيارة حمراء مكشوفة تتعقب بنتا نحيلة الساقين تلبس البنطلون الاسترتش المحزق ، أحمر لاصقاً بفخذيها الرفيعتين ، لا تثير فى المرء - ربما - إلا قليلاً من رثاء ، وقد ألقت على كتفيها ، دون أن ترتديها ، چاكتة جلد اصطناعى سوداء مفتوحة ، ومن على حافة السيارة يقول لها الولد المحفلط المزفلط المحبّك المتأنْتِك : «إيه يا بت اللى أنت لابساه ! ما تروقى يا متخلفة .. طب اركبى ! وهى تهرول مسرعة ، وخائفة ، وغير مستسلمة .

دوّت فى سويقة سيدى بشر شحنة تاسفة صغيرة لم تصب أحداً بجراح ، كان الفجر يوشك أن يطلع ، لكنها دمرت الأسماك التى كانت على الرصيف أمام سينما «المنتزه» القديمة (هل تحولت إلى بنك أيضا ؟ أم تُركت للخراب ، مثل سينما فلوريدا ، وسينما لاجيتيه ؟) وفى الشارع تناثرت أشلاء السمك ، بيضاء مغسولة أو محترقة أو محموشة بالبارود وممزقة الأوصال ، رؤوسها المحدّقة بعيونها المدورة المفتوحة ، أزرار حمراء مبتورة ، ماتزال تبرق بين شظايا قليلة ومسحوق زجاج مذرور كالملح المجروش .

قالوا : مَرَّ من هنا ... !

قالوا : من المعمورة إلى العصافرة من العجمى إلى العامرية، من

باكوس إلى سموحة ، من سيدى بشر إلى سيدى جابر .

قالوا : من محرم بيه إلى ستانلى بيه ومن كرموز إلى كامب شيزار .

فى المعمورة كانت المرأة تتجه إلى البحر ، واثقة ، جسيمة ومتناسقة ، ملء جسدها قوة الشباب ، بفستانها الكامل حريريا ناعما سابغا له طيّات وشراشيب ، مقفل الصدر طويل الأكمام ، تخفى شعرها بعمامة محبوكة لها عدة طيات متراكبة من قماش ساتان أزرق مطرزة بحبات لامعة وخرز متعدد الألوان تحيط بمعالم وجهها وتؤكد تقاطيعه المسمسمة ، وفى قدميها حذاء مطاط لاصق ، وعندما ابتلت ساقاها التصقت بهما شراشيب الفستان ، ثم تحددت قسمات جسمها فى الموج الضحل وهى تغوص ، واذا بها تسبح بمقدرة ، وتمكُّن ، فى كامل زيها ، وم الشطّ رأيت كل تدويرات الجسم وربواته ووهداته وهى تغوص وتطفو ، وصدرها متكور وراء حُبُوسه الحريرية اذ تصعد وتهبط بجانبيها وذراعاها تضربان الموج فى حركة السباحة المنتظمة الرتيبة .

كنت أرقبها ، دهشا وخجلا قليلا ، والمصيفون تحت شماسيهم الملونة المتقاربة جدا ، فى ضجيج أحاديث وأغنيات موسيقات الكاسيتات والراديوهات المختلطة المتراكبة ، وزحمة النداءات ، ودقات الراكيت المصمتَة تاك تاك ، اذ تعود من سباحتها ، تشر بالماء من كل قسمات جسمها ، تمثالاً حيا مبتلا متجسد الطوايا والثنيات ، تسير ، لا مباليةً بالنظرات الشرهة التى تسمرت بها ، والحذاء المطاط يترك على الرمل آثارا مبلولة لها صوت صرير إذ ينبثق الماء منه مضغوطاً له زقزقة مكتومة .

قلت على قول سيدى سحنون : حقيقة المحبة مالا يُنتقص بالجفاء .

قالوا : عند سيدى المرسى أبو العباس قالوا عند سيدى كريم فى غيط العنب قالوا فى الحضرة وعند المسرح الرومانى ، فى المكس وفيكتوريا ، فى حجر النواتية وفى كليوباترا الحمامات ، فى كرموز وفى الأزاريطة ، فى زيزينيا وعند العامود ، وعلى كوبرى التاريخ . قالوا نشفت ترعة المحمودية تحت زعانفه الضخام وحراشيفه الجارحة وهو يضرب طينها الرخراخ اختنقت سطوح المياه الضحلة فيها تحت ورق ورد النيل المفلطح المَحنِىّ بعضه على بعض متلويا فى عضارة حوشية وبطىء السريان فى تجمعات بذيئة الالتصاق بالماء النزر ، وهو يشق طريقه فيه يزيح التخثر الراكد وقد لاح قاع الترعة موحلا لزجاً لم تصوح الشمس لدونته قالوا كان يَؤُجُّ منه النور والنار قالوا كان يغمره موج الظلام .

عندما التقيت به أخيراً فى شارع سعد زغلول ، كنت أعرفه .

كما لو كنت أنتظر لقياه ، كما لو كان حميما .

الشارع قد خلا فجأة من الناس والسيارات والحناطير ، الدكاكين أغلقت ضلفها وأنزلت ستائرها الحديدية بصوت خبط وقرقعة فى الشارع الصامت ، ورأيت البياعين يلمون نصباتهم وبضائعهم وباعة الصحف على عجل يجمعون أوراقهم ومجلاتهم ، والمارة يتدافعون جميعا مهرولين متزاحمين فى الحارات الضيقة الذاهبة إلى شارع سعيد وإلى البحر والشوارع الجانبية ناحية شارع شريف والفلكى والكنيسة المرقسية .

كانت أقدامه-زعانفه المفلطحة لها صدمة ثقيلة مبتلة على أسفلت

الشارع تتناثر منها قطرات مياه قليلة تبدو كثيفة القوام .

وضحك لى ضحكته البلورية لها صدىً يتردد بين المبانى العريقة إذ يعلو برقبته الفارعة الضخمة فوق السطوح ويكاد يهدم شرفات البيوت بحراشيفه الناتئة .

ووراءه من بعيد رتل سيارات المطافىء والإسعاف ، جلجلة أجراسها ومواء صفاراتها يبدو خافتاً ضئيلاً لا جدوى فيه .

قالوا كان هنا فى المولد حيث كانت حبات الأنوار الكهربية عقوداً تحيط بالمئذنة السامقة وتتدلى متأرجحة بألوانها الحمراء الزرقاء الصفراء ، والصلبان الضخمة المربعة تحدها أنابيب المصابيح النايلون الطويلة النحيلة المتقاطعة ، فوق الساحة المكتظة بالناس فى طرفها موكب المُرتدين جلود الفهود حليقى الرؤوس حليقى الأبدان المكتسين بالمسوح المتمنطقين بالإسكيم الرافعين رايات التكبير والتوحيد تخفق فى هواء الليل ، هل يرتلون لآمون أم يتغنون كيريالیسون أم يسبحون بالأذكار والأوراد ، وجماهير المحتفلين قد استقر بهم المقام أقاموا مخيمات صغيرة أو فرشوا الحصر والسجاجيد وبسطوا الملاءات والبطاطين على حبال ممدودة بين أعمدة النور وقوائم خشبية حفروا لها قواعد غائرة فى أرض المولد ، يأوون إلى كِنّهم المرتجَل المحروس فى رحاب ولى الله القديس الشفيع مرفوع المقام من الصوان والجرانيت المنقوش اسمه الواحد على صفحات القلوب والناس فى حِماه يعيشون ويطبخون ويأكلون ويتضاجعون وينامون ويصلون ويذكرون ويترنمون ، حاجاتهم البدنية والروحية كلها مقضية على الاسم المكنون غير الملفوظ،

ويستوشمون على أذرعهم وزنودهم القوية أو النحيلة .

تُنشرت الأقمشة ذات الألوان الزاهية تخفق فى هواء البحر من الميا الشرقية - أم هى نسمات النيل ؟ - المناديل أم أوية المدندشة والأوشحة والملافح والشيلان الحريمى غامقة الزرقة بوبرها الناعم متقلب الألوان ، وأكوام الحمّص والفول والحلوى وأقفاص الفجل والجرجير وقُفف التين والتوت والبلح الابريمى وأرغفة الخبز والبتاو المعجون بالحلبة والسمسم وأدوات الطبيخ الألومنيوم والخشب والطشوت البلاستيك والفخار والأباريق الزجاجية الزرقاء .

أغرقنى طوفان المولد وبهجته الحميمة ، منعشةً للقلب الظامىء إلى القُربى .

رأيت الشيخ الصعيدى ينادى : «يا دانيال .. اوع تعَوِّج فى البحر يا ولدى» وهو يرفع ذراعه فينحسر كُمّه الوسيع عن وشم أليف قلت : «يا عم ابو دانيال حمد الله على السلامة يا بوى !» قال : «الله يرعاك يا ولدى».«قال : «عم نيجوا ننول البركة ونرمى الحمول » .

قالوا : مر من هنا .

وكانت الساحة التراب ، الخلفية ، من وراء الصرح الشاهق المكين تموج بطوفان الناس وفتّح عينك تاكل ملبن والنداءات والدعوات والصرخات والضحكات قد غاصت فى غمار عجيج الميكروفونات وتسبيحاتها والجدع يشجّع الجدع وأطفال يتدفقون ويتدافعون ويتصايحون والكرة الحديدية الثقيلة على قضيبها المرتفع بانحدار ، يدفعها الفتيان الأشداء والصبيان والكهول إلى أعلى تصطدم بالحافة أحيانا فيهتفون بالانتصار تاك تاك أو تقع الكرة خائبة إلى قاعدتها

السفلية فى أغلب الأحيان بومْ مْ مكتومة الصدى ، وتحت نور الكلوب الساطع الضارب إلى زرقةٍ بيضاء متوهجة ، ومن أمام صفوف الدكك الخشبية التى جلس عليها أولاد البلد والفلاحون والصعايدة ، رجالا كلهم دون نسائهم ، تتمايل الغازيّة وتهتز فى ثوبها الأسود اللميع المطرز بالترتر الصغير يخشخش فى تحركات جسمها وتذبذباته الخاطفة بالبطن والنهود وصبى السيرك يزعق فى الميكروفون المرأة الكهربائية - بالفصحى - على بطنها تنوّر على وسطها تنور من كل حتة تنور ادخل يا جدع قبل ما تلعب .

قلت نعم مر من هنا ، ولم يهرب منه أحد هنا ، غمرته أمواجهم ، وجهه هنا كوجوههم ، متكرر منهوك دهرىّ القِدَم أضناه العوز والنحول ولكن فيه كبرياء لا ينال منها شىء مهما نزفت دماؤهم إلى الداخل المعطوب الذى يظل عنيداً وسعيداً ببهجات عريقة .

«المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك» .

خلعت أوصافى على محبوبى ، لم يبق منا إلا جوهر الحب ، ثابتا ومراوغاً فى آن ، مخايلاً ولا يريم .

أهى محبة توجب سفك الدماء ؟

قد أُريقت دمائى ، من زمان .

شربتْها رمالُ بِيدٍ من ورائها بِيدُ .

كانت تمتطى صهوته ، عالياً هناك ، تحيط رقبته السميكة ضخمة الحراشيف بذراعيها السمراوين المدملجتين بنضارةٍ لا تغيب ، ورأسه يرتفع فوق بناية شيكوريل ، بعينين رحيمتين وصارمتين معا ، ونفثات

ناره الخفيفة تندلع فوق سقف المترو بول .

كانت عارية شعرها منسدل يستر ظهرها وبطنها الخمرى ، سابغاً على كل جوارحها ، جسدها ناصع السمرة تخطف منه ومضات من خلال جدائل الشعر الغزيرة المتموجة ، وهى تتشبث بحراشيف عنقه الهائل العريض المتين .

وكان يسير ببطء وحذر ، أسفلت الشارع الخاوى يغوص تحت ثقل أقدامه - زعانفه المفلطحة ولكنه يحرص ألا يمس الأبنية العريقة فلا تتهاوى جدرانها الشماء باحتكاك جسمه بها ، كأنه يحميها من سطوة نفسه .

لأنفاسه صوت مثل فحة وهيج النار ، ودخان أبيض خفيف يأتى بعد ألسنة اللهب المتطايرة من فمه حتى يصل إلى السفارة الإيطالية عبر الحديقة ومن جنب التمثال الذى بدا صغيرا ولكنه حصين .

هل كنت - ومازلت - أشرب معه الراح ، صيفاً وشتاء على السواء ؟

«شربت كأسا بعد كأس ، فما نفد الشراب ولا رويت» .

وهل قلت إن قلبى لا يرعوى عن هواكِ ؟

وأنتِ هناك ، على متن سفينة شاهقة بلا شراع ، ولا دفة ، لا تُنال.

مثل قصص كثيرة تقطعت السبل بيننا ، كما يقال ، بسبب من كبرياء ، بسبب من أوهام ، أم بسبب من مخاوف وتوجسات ملتبسة؟

هل نفد رصيد الشهوة أم تهاوى جُسْمَانُ الهوى ؟

أم أن الزمن - كما كنت تتخوفين - قد أوقع علينا سطوته ؟ وهذه

هى ، كما يقال أيضا ، سُنّة الحياة ، هنا على الأرض ؟

قلت لنفسى : لم تجد وفيقا ولا وفيقة ، قط ، ولن تجده أبدا .

كان الدُثور عند لحظة البدء .

قصاراكَ لحظات خاطفة من وفاق ، بل من نشوة لا تصدّق ، من بهجةٍ لم يبقَ لك بعدها من شىء ، لحظات - كما تعرف - هى أبديات . فهل هذا قليل ؟

ليست هذه مرثية . ليست هذه قصة .

تلفتُّ حولى ، لم أجد الغزالة المصرية ناعمة الجسد التى جاءت أصلاً من الصحراء الشرقية ، أو من أشبيلية ، توحشنى عيناها المتسائلتان ، بخضرتهما الصفراء الدعجاء ، توحشنى .

كان الجراج فى شارع سيدى المتولى خالياً الآن ، رأيت الحبل المضفورة جدائله الرقيقة ملقى على الأرض الأسفلت الصلبة . حياته السارية قد بارحته ، أحسه جافاً وذابلا .

قلت : طارت صقورى التى وقفت على العُليقة المشتعلة لا ينتهى احتراقها ، ضربت فى شعابٍ لا طاقة لى باستبارها ولا بالتغوير فى مخانقها الطرية العميقة .

تلك كلها مجازات ، لا مجاز لى فيها .

كان - هو - يطل علينا من النافذة العريضة المفتوحة على فناء موحش لا يطرقه أحد ، وكانت النار فى فوهة شدقية المقفلين مكتومة، لم نسمع فى لقائنا الأخير باخ، ولا موزار. ترددتُ ثم أحجمت عن أن أطلب الموسيقى ، أن أطلب ما كان من حق الحب ، لم يكن فى لقائنا

الأخير موسيقى ، بأكثر من معنى .

عندما لمست يدها واستجابت لى ، وبدأنا طقوس الاقتراب من أحدنا الآخر ، جسدانا ينصهران رويدا ، لم يكن ذلك إلا روتينا شبقيا ، لم يكن ثم اقتراب حق ، ولا انصهار حق . افتقاد الموسيقى تَوجُّس وإخفاق .

هل تقبلت إخفاقى عن طيب خاطر ، أم كان التسامح الطيّع انقطاعا للسبيل ، على أى حال ؟

البيت - بيتنا - رفضنى فى الآخر . لم أجد وسادة أضع عليها رأسى ، لم تتطوع هى بأن تقول أرح هنا رأسك المنهك . هل ذلك لأنها تأخذ مأخذ المسلم به أن هنا موضعا واحداً لرأسينا معا ؟ ولماذا لم أفتح درج خزانة ملابسها لكى أضع فيه متاعى القليل ؟ المتاع القليل من حبيبٍ مفارقٍ ؟ لماذا انتظرت أن تفسح هى ، لى مكانا ، لماذا لم أقتحم مكانى الطبيعى ؟ لأنه لم يكن هناك مكان لى ، لم يكن هذا بيتى الذى أويت إليه ساعات ، لم يكن بيتنا . كان وهماً ما أقوى رسوخه ، وما أعذب مراودة طيفه .

أهذه توجُّعات النوستالچيا ، أم أننى أتوحّد بها ، لا أستطيع - ولا أريد ربما - أن أتحلل منها . أراها الآن كما صنعتْها هى لى ، كما صنعتُها أنا لها ، فى نورها الذى لا يخبو . الجذوة المدفونة تحت الرماد مازالت محترقة .

بيتنا الذى لم يَكُن ، وما أقوى كيانه . فيه سعة الحب وبهجته وسَكَراته ، النفس فيه فسيحة ليس لها جدران ، كالسماء . بيتنا الذى لم يَكُنْ ، أحسه قائما فى داخل جسدى ، أنظر إلى سمائه من

النافذة الرحبة الشفافة، فأرى الوحش الوديع القاتل المحيى يطل علىّ، جريت إليه ، ومازلت أجرى ، تندفع بى خطواتى، كما سأفعل دائما ، حتى أصل إلى نباتات الظل اليانعة وارفة الظلال تحت الفتحة التى أرى منها المُولِد ، وأسمع نداءاته من هنا ، من الآن .

أُصارعه ، وأصارعها ، فى قبضة أحضانٍ وثيقة ساخنة لا انفكاك لها ، لا انطفاء لها . تَتَقطع أوصالى من حبى حتى أعود نقطة مُحرِّزة داخل النون . أطياف وقائع حلم مكنون ومكين ، لأن مخالفة الحب لا تنجينى . لا أريد أن أفر من بلائه ، وروحى عاجزة عن احتمال سطوة أشواقى .

يا سيدتى ، يا سيدتى ، هل تسمعين ؟

سؤال قديم قدم الخَلق الأول ، لا يريم .

كانت تنظر إلىّ ، من علٍ ، من فوق المتن الشاهق الوطيد ، بعينيها الخضراوين النجلاوين ، طعنات نظرتها تترك جروحاً بِكراً غضة لا برء لها ، ولا تريد البرء .

أريد أن يخرسنى الحب فلا أنبس . بَوْحِى انسكاب لا أملكه .

وما أزال ، على اليأس ، أهتاج إلى لقياها ، أليس اليأس أخاً وفيقا ؟

لا أملك فطام جوارحى عن شهوة قرباها .

ألم يقولوا «إن أمر الحب لا نهاية له» ؟

لم أستطع أن أرى نهايته، كان ذيله العظيم يضرب فى غور أفقٍ لا يُرى، ولسانه المشقوق يضرب أطراف سحاب مشتعلٍ عند قلعة قايتباى،

من وراء الأنفوشى ، من وراء النخل السلطانى الذى احترق سَعَفه من الجفاف والقدم ، من وراء أنوار المولد التى تهتز الآن فى آخر النهار ، كرياتٍ مغلقة على ضوئها النزر كثيف القوام ، من وراء البحر الساجى.

هذا الحلم الشاهق الغامر لا صلاح لى بغيره ، ولا صلاح له بغيرى.

الإصابة مصمية ، هأنذا أقول .

خرجت من الحب إلى الحب ، هأنذا أقول ، قد تَحقَّق فنائى .

أعود آخر النهار ، بعد أن احتضنت التنين ، ضربات البحر هينة ، سماء الاسكندرية صافية وسماء روحى ملبدة ، لم أسمع أحداً يناديني : إدوار .

لم يعد هناك وقت لا للنداء ولا للعودة .

لا وقت للنوستالچيا .

لا وقت .

إدوار الخراط

٢٣ طوبة ١٧١٠

٣١ يناير ١٩٩٤

* تنويه

ما بين معقوفتين صغيرتين نصوص قديمة مأثورة عن شعراء وصوفيين ، لم أرَ حاجة إلى إرجاعها إلى أصولها ، إذ أنها قد اندمجت فى نصّ هذه الرواية . وإنْ لزم التنويه

الخرّاط

HAMDAN.B
15/5/2009

فصـــول الروايـــة

الصفحة

١- سرير محترق ٧

٢- وسوسة الهواجس الراسخة ٣٩

٣- مراسى الأوهام ٧٥

٤- سطح بيت فى شارع الاسكندرانى ١٠١

٥- أمواج غائمة فى السماء ١٣٥

٦- نورس وحيد على صخرة ١٦٩

٧- لا وقت للنوستالچيا ١٩٧

مؤلفات الأستاذ إدوار الخراط

التي تنشرها وتوزعها دار ومطابع المستقبل

١- حبطان عالية : مجموعة قصص (١٩٥٩)

٢- ساعات الكبرياء : مجموعة قصص (١٩٧٢)

٣- رامة والتنين : رواية (١٩٧٩)

٤- اختناقات العشق والصياح: قصص (١٩٨٣)

٥- الزمن الآخر : رواية (١٩٨٥)

٦- محطة السكة الحديد : رواية (١٩٨٥)

٧- ترابها زعفران : نصوص اسكندرانية (١٩٨٦)

٨- أضلاع الصحراء : رواية (١٩٨٧)

٩- يا بنات اسكندرية : رواية (١٩٩٠)

١٠- مخلوقات الأشواق الطائرة : رواية (١٩٩٠)

١١- أمواج الليالي : متتالية قصصية (١٩٩١)

١٢- حجارة بوبيللو : رواية (١٩٩٣)

١٣- اختراقات الهوى والتهلكة : نزوات روائية (١٩٩٣)

١٤- رقرقة الأحلام الملحية : رواية (١٩٩٤)

١٥- أبنية مُتطايرة : رواية (١٩٩٤)

١٦- حريق الأخيلة : رواية (١٩٩٤)

١٧- اسكندريتي : كولاج قصصيّ (١٩٩٤)

١٨- مختارات من القصة القصيرة في السبعينات : مع دراسة (١٩٨٢)